

الحياة مدرسة

الله وحده يعلم : كم من النساء ،
فى مشارق الأرض ومغاربها ، سعدن
بمطالعته . . فقد أحب المرأة أكثر
من أى رجل فى العالم . . .

حياة أونوريه دى

بلزاك

للمؤلف

الحياة مدرسة

حيـــاة بلزاك ... ... (القصصى الاعظم)	شركة فن الطباعة	الناشر مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
التلميذة الخـالدة ... ... (حياة مدام كورى)	مطبعة المعارف	

الكتب العاطفية

رجال ونساء (١)	شركة فن الطباعة	الناشر مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
« « (٢)	شركة فن الطباعة	
حياة قلب	شركة فن الطباعة	
الموجة العـذراء	شركة فن الطباعة	
المرأة لعبتها الرجل	شركة فن الطباعة	
شباب الفولجا	مطبعة المعارف	
جرائم شرقية وغربية	مطبعة المعارف	
العاصية	مطبعة المعارف	
غانيات	مطبعة المعارف	

وثائق الحرب العالمية الثانية

مأساة فرنسا	شركة فن الطباعة	الناشر مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
أسرار انهيار أوربا	شركة فن الطباعة	
الرقص على البارود	شركة فن الطباعة	
الوحش الأصفر	شركة فن الطباعة	
الطابور الأول	مطبعة المعارف	

باريس	مطبعة دار الكتب المصرية	نفدت
ماقل ودل (فى جزءين)	مطبعة دار الكتب المصرية	
تاييس		
الزنبـقة الحمراء		
أفروديت		
فى الحياة والحب		

طرطـــوف
عدو المجتمع
بتكليف من وزارة المعارف العموميـــة

عبيد الذهب .. أخرجتها الفرقة القوميـــة

بالفرنســية

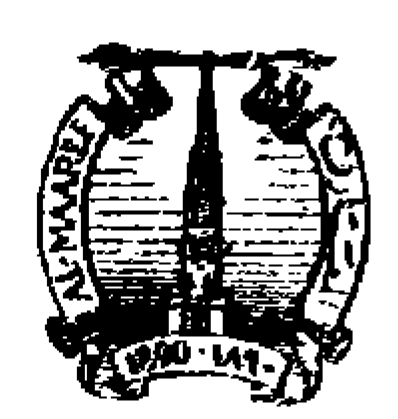
الصحافة المصرية منذ نشـأتها إلى اليوم ... ... (باريس ١٩٢٨)

الاصلاح فى مصر منـــذ ثورة ١٩١٩ ... ... (« ١٩٢٩)

احمد الصاوى محمد



حياة أونوريه دى
بلزاك



ملتزم النشر
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

الإهداء

إلى صديق النائب المحترم

الأستاذ محمد بك شعراوى

إن قصة « بلزاك » ومطبعته ، التى أدانته وأشقته ، تذكرنى بأياد كريمة لك . . أنت لاريب قد نسيتها ، لأن خلقك القويم ، وطبعك الكريم ، كليهما يؤدى المكرمات وينساها . .

ألا فاعلم . . أننى أذكر ، وبعض الناس يذكرون . وإذا كنتُ قد أديتُ إليك بعض الدين المادى ، فهيهات أن أجد سبيلا إلى أداء بعض الدين الأدبى ، فهو يطوق لك ماحييت عنق . . ذلك لأنك وثقت بى ، وأكرمتنى ، وأيدتنى ، فى وقت ضيق عزّ فيه الصديق . .

فتقبّل هنا ، أيها الصديق الشهم النبيل ، بعض اعترافى بالجميل . .

صبرى

تضمين أمين

عن رنيه بنچامان

مراجعات فى « قصة الكونتيسا »

« رسائل إلى الأجنبية » التى نشرتها أخت بلزاك « لور سورفيل »

« رسائل بلزاك ومدام كارو التى لم يسبق نشرها »

الغلاف خاص بهذه الطبعة العربية بريشة الفنان المجرى الشهير

إريك دى مانيش

زخارف الفصول بريشة الفنان النابه

ل . شولتز

كاريكاتور الصفحة الثالثة بريشة بنچامان روبو

الرأس الصخرى فى آخر الكتاب للمثال العظيم رودان



الجزء الأول

النضال مع الحياة

١

هذه الحياة الفريدة ، حياة « أونوريه دى بلزاك » ، أقرب ما تكون إلى قلبي .. إنى أحبه .. أحب قوته وضعفه .. أحب عبقريته الفذة ، وسذاجته النادرة .. أحبه : شاباً فقيراً فى باريس ، يبحث عن خيالات وأشباح لقصصه ، وأبطال لرواياته .. أحبه : محباً ، مخلصاً ، معذباً ، حائراً بين الفن والحب ... أحبه : متخبطاً ، يبحث عن المال طابعاً وناشراً ، فيخسر ، ويظل بقية عمره عبداً لخسارته ، يؤلف ليسدد ديونه .. وهيهات ...

ولقد اخترت لقرائى الأعزاء هذه الحياة العزيزة علىّ .. سأشركهم فيها .. وكنت قد اتخذتها لنفسى ، أرى خلالها ما لا تراه العيون .

وإنى لأذكر ، فى كتاب وضعته « البرنسس ببسكو » ، أنها عند ما لقيت

« مستر كارتر » ، مكتشف مقبرة « توت عنخ آمون » ، لم ترد أن تحدثه عن اكتشافه الذى يسأله عنه كل الناس ، وسألته عن حياته ، هو شخصياً ، فى الصحراء ، وهى الحياة التى لا يسأله عنها أحد . . فقال لها إنه يعيش فى عشة « بنجالو » ، فى وادى الملوك ، قرب المقبرة . وفى خلال السنوات العشرين التى قضاها باحثاً منقباً ، دون أن يقنط أو ييأس ، كانت سلواه هى قراءة الكتاب المقدس وقصص « أونوريه دى بلزاك » . . فقالت الأميرة : « حقاً إن بلزاك وحده هو الذى كان كفيلا بأن يعمّـر الصحراء . . . » ! . . .

* * *

النبوغ كالحب ، ما من أحد يتقبله فى أرضنا الغبية بصدر رحب ، فلابد له من العنف ليفرض نفسه فرضاً . ومن بواعث الأسى فقر الأسرة والمجتمع فقراً روحياً مدقعاً ، يجعلهما عاجزين عن إدراك الساعات الأولى من صباح قدرٍ جليل أو مصير عظيم . . فالآباء ، والمعاصرون ، يعيشون جميعاً ، بلا تأثر ، أو مبالاة ، بمجد بازغ مولود ، فلا يناله من دهره إلا حسرة الأفئدة ، بعد فوات الأوان ، عند ما تتأمل جمال العبقرية المفقود . . .

حقاً إن سبق الشعور بعظمة الرجل الكامنة فى بساطة الطفل يتطلب معيناً من الإلهام أو الموهبة الشاعرية ، وهو ما يعز عادة فى سواد الناس . . لماذا تبهر عيونهم ، من بين كل ما حولهم ، من أشياء خاملة ، فتميز علامات النبوّة ؟! . . أترى هذه العيون فى السماء المشرقة أكثر من يوم صيف ؟ . . أليست القلوب التى تحس دنو العظمة نادرة ندرة القلوب التى تتأثر بوردها النورانى المتفتح ، عند ما تلمسه شمس الصباح الكريمة بشعاعها الدائم الإشراق ؟ ! . .

* * *

عند ما كان « أونوريه دى بلزاك » ، فى يونيه ١٨١٣ ، فى الرابعة عشرة من عمره ، على شاطىء اللوار ، بمدينة تور ، يتنزه مع أخته ، بصحبة أمهما ،

صاح على حين فجأة ، وهو يقفز ، كمن به مس :

— لور ! . . أتعرفين أن أخاك سيصير رجلا عظيما ! . .

فتضج الصغيرة الغريرة با لضحك ، وترد عليه أمه ، الحصيفة ، هازة كتفيها : « مالك ولكلمات تجهل معناها ؟ ! »

وكان النهار هادئاً جميلا . وليس فى نور السموات وطيب الأرض مايشعر نفساً غير ملهمة بأن تلك الصيحة الصبية هى بشير هاتف بمجد مؤثل للآداب الفرنسية . . لقد كان الفتى فى السن الناعمة الصوت ، فكيف يحمل كلامه على محمل الجد ؟ . . ومع ذلك فتلك هى الساعة الخطيرة التى تتكوّن فيها الشخصية ، ساعة النبوغ ، الساعة الأولى المشهودة : يستيقظ الأسلاف ، ويتحدثون معاً . . ومن خلال أصواتهم جميعاً ، تحت قلنسوة الطالب ، نرى رجلا صغيراً يدخل الدنيا ، ويبحث عن توازنه فيها . . . وبينا كان هذا الصبي يحلم فى هذه الأشياء الكبيرة ، مشى فى التراب ، فاحتد عليه صوت أمه :

— ها أنت ذا قد أتلفت جوربك وحذاءك ! . . أنت لاتلتفت إلى شيء ، ولا تعنى بشيء ! . . يا للضنى منك ، ويا للعذاب ! . . أتضحك ؟ ! أيها الولد الذى لا قلب له ! . .

فترد عليها العين الصافية ، والوجنة الوردية ، والفم الباسم ، والصوت الذى فيه رنة الفرح : « بالله لا تغضبى ، يا حبيبتى ، يا أماه ! . . »

ويجرى ينهل من الهواء كما لو كان ماء ، ويحصى ما على سطح نهر اللوار من أشرعة بيضاء ، إذ ينفخ فيها الريح مثلما تنفخ فيه أمانىّ الحياة . . . وبعينيه العسليتين ، الظامئتين ، اللتين ابتدر فتأجج فيهما شعاع نفس من نار ، راح ينظر بشغف إلى ذلك المحيط السعيد من الحدائق والجنات ، والبيوت التى جمعت بين التواضع والانسجام . وكان يحدث الكائنات أحيانا بصوت عال ، ويسأل النهر عن صحة أسماكه ، ويسأله أن يطمئنها على صحته ! .

وكانت لور تطرب ، والأم الشابة تتنهد ، أنيقة ، جميلة ، ذات سيادة وخشونة ، كما لو كانت ، تحت مظاهر النعمة والرغد ، تحمل هماً خفياً . . ولكن من أين للصغار أن يدركوا هموم الكبار ؟! . . ومروا أمام بائع صور يعرض صورة نابليون واقفاً فوق خريطة جزيرة كورسيكا . . فقال أونوريه الماكر :

— أماه ! . . ياليتني كنت قد ولدت في كورسيكا ! . .

— يا لك من مخلوق مرذول ! . .

فيضج بالضحك . . وإذا ببائع صحف ينادي بالنصر ، وفي يده ملحق حربي ، فيهرع الأطفال إليه :

— أماه ! أماه ! . . انتصار ! . .

فيقول بائع الصحف ، والعرق يتصبب منه :

— ها هو ذا نصر جديد يتوج بالمجد هامة الأمبراطور ، وفرنسا . . إن الجيش الأعظم ، أيها المواطنون ، قد فاز في معركة « بوتزن » ! . . والحلفاء قد ذهبت ريحهم ، وتشتت جمعهم ، فولوا الأدبار ! . .

وبينما كان الجمهور يهتف : « لتحي فرنسا ! . . ليحي الأمبراطور ! . . » ، كان أونوريه واجف القلب ، يتبع تقاطيع بائع الصحف ، وكان جندياً قديماً ، مشوهاً ، مقطوع الساق . . فصار بلزاك الصغير ينظر ، ويتعلم ، ويتهذب ، ويأخذ من مشهد هذا الشقاء الإنساني ، والحرمان النبيل ، درساً في بسالة الرجولة ، التي تغفل شقاءها . وتنسى حرمانها ، في ضجيج انتصار الأوطان . .

لشد ما عاد أونوريه قرير العين ، يتفجر طموحاً ! . . ما أكثر ما في الحياة من أشياء عظيمة وجميلة !

ألقت مدام بلزاك أمراً إلى المربية ، المكلفة بالأطفال . . فأسرعت هذه إليهم ، لتبدل ملابسهم ، وتنزع ثياب النزهة الأنيقة عنهم . . والحق أن أونوريه قد خلع سترته وبنطلونه الرمادي القاتم ، دون أن يفكر فيما يفعل . . فقد زعم

نفسه عندئذ فى بروسيا ، يحمل علماً مظفراً ، ويدخل بلداً على رأس الغزاة ، ويسمع ضرب الطبول ودوى الهتافات . . .

وإذ كان لا يزال أمام موعد الطعام ساعة ، يأخذ أونوريه أخته لور إلى الغرفة العليا من البيت ، حيث يشاهدان من نافذتها السحرية مدينة « تور » ، وجميع أسطحها ومداخنها ، وهالة الشفق التى تبسط على ما حولها صفاءً وسلاماً . .

ــ أتعرفين ، يا أخيّتى ، أن من سعدنا أن ولدنا فى مدينة طيّبة ؟ فقد كان من المحتمل أن نولد من المتوحشين ! . . فما زالت فى الدنيا بلاد تغص بهم ! . . وليس ثمة غير عيب واحد ، هو أن تور ليست قريبة من بروسيا . فلن يجىء الأمبراطور إلى تور . فما أشد شوقى إلى رؤيته ! . وهل قصت عليك « المدموازيل » (يقصد المربية) كيف كان الجنود ، أثناء التقهقر من روسيا ، يقضون نحبهم فى الجليد ، إذ كانت درجة الحرارة ثلاثين تحت الصفر ؟ أما هو فكان يروح ويجىء ، ويأمر ويقود ، ولا يشكو شيئاً . . حتى لقد كان لا يحس البرد ! . . لقد صدق أبى إذ قال عنه : « إنه ليس رجلا من طينة البشر » !

ثم أضاف بحياء وبساطة :

ــ وإنى ليسرنى شعورى بأننى ، أنا أيضاً ، لست على غرار الناس . . فإذا سألتنى أو لم أكن فى مدرسة ڤندوم مثلى مثل بقية الصبيان ، قلت لك إننى كنت أموت بينهم من السآمة والضجر ، إذ أراهم يعملون جميعاً نفس الواجب ، فى نفس الساعة ، فى نفس القاعة ، فى كراريس متساوية شكلا ، وحجماً ، ولوناً ! . . فهؤلاء « الآباء » (يقصد القسس المعلمين) ، لا يريدون لنا فى رؤوسنا إلا أفكاراً واحدة ، ليست رفيعة ، وليست سامية ! . .

فتراجعت لور ، كما لو كان قد قال شيئاً غير جائز ، وقالت بصوت خافت :

ــ أتذكر الآباء الذين ضربوك بالمقرعة على أصابعك ؟

ــ أوه ! المقرعة ! . . إننى ، وهم يضربون ، كنت أفكر فى شىء آخر . .

أما أحدهم وهو « الأب هوجول » ، فلا أغفر له ما حييت ، إذ أخذ منى كتابى !

— أى كتاب ؟

— لقد سبق أن حدثتك عنه . .

— إننى لم أتذكر !

— اعلى إذن ياعزيزتى لور أنه لايقال : « إننى لم أتذكر » ، بل : « إننى لم أعد أذكر » ! . .

— ولكن هذا طويل !

— نعم هو طويل ، ولكن معرفة اللغة تتطلب وقتاً أطول من جهلها . والجهل أطول وأصعب ، والإرادة تفرض الزمن ، الزمن الطويل . . والعناد يقضى بطول الصبر . . والأمل يتطلب طول البال . . وهذا هو موضوع كتابى « فى الإرادة » . . .

— أكتبته بدل واجباتك ؟

— بالتأكيد ! . . وكان فى درجى . . وكنت أحبه ! . . وكان قلبى يثب أثناء كتابته . . وكنت يا صغيرتى عند وضعه فى سن « بسكال » الفيلسوف حينما اكتشف بمفرده الرياضيات كلها . . وفى اليوم الذى أخذ منى الأب هوجول كتابى فكرت فيك وفى أبى وأمى ، وقلت : « لن أراهم بعد الآن أبداً ! » ، فقد أردت أن أموت . . ثم لما اشتد بى المرض ، وجاءت أمى لتأخذنى ، ودعت جميع الآباء المعلمين ، ماخلاه ، فلم أقرئه السلام . . وعندما نكون فى الجنة ، ويكون هو فى النار ، سأطلب إلى الله ، بعد ذلك ، لا قبل ذلك ، أن يغفر له . . .

وهو يعد أخته الصغيرة ، لأنه يحبها ، بأن تكون فى الصف الأول ، يوم تكريمه حين يصير عظيما ! . . .

وسمعا صوت المدموازيل يدعوهما إلى العشاء . وكانت مدام بلزاك ، تنتظر ، بلا حراك ، فى صحن السلم . فنظرت إلى أونوريه بعينها الزرقاء المثلجة .

فلزم الصمت ، ودخل قاعة الطعام هادئاً . . وكانت القاعة من طراز لويس الخامس عشر ، بوفيهاتها العالية من خشب السنديان ، تعبر نقوشها عن يد صناع يحب : الفن ، والنساء ، والدقة ، والصفاء . . وكانت تلمع كأرضية القاعة . . وكان كل ما فيها يفوح بعبق الطعام الشهى ، والحديث الشجى . .

ووجه الأب سؤالا :

— لماذا ترتدى هذه الطفلة دائماً هذه القلنسوة العالية ؟

وكان السؤال مقصوداً به لور ، فاحمرت . . وجازف أونوريه بقوله :

— إنى أرى الصغيرة ظريفة بهذه الريشة المرفوعة فوق رأسها . .

فصاحت أمه : « صه ! »

وقالت جدته : « إننا لا نسألك رأيك ! »

وقرنت لومها بنظرة الاستياء ، إرضاءً لبنتها . ثم قبلت أونوريه فجأة فى عنقه !

وجلسوا إلى الطعام ، وكانت مدام بلزاك قد صففت شعرها بعناية فائقة ، وعقدت حول جيدها شريطاً رفيعاً من الحرير الأصفر ، تدلت ربطته فوق نحرها ، منسجمة مع حزامها . وكانت جميلة اليدين ، تشرب الحساء بحركة عصبية ، وتضع أنفها الدقيق فى صحنها . . وكان المسيو بلزاك يبسم كما لو كان يحلم ، ويأكل ببطء ، ثم يلتهم ، فجأة ، ما أمامه مغتبطاً . وكان ينظر دائماً نحو النافذة ، ولا ينظر قط نحو حماته . وكان شيخاً مدهشاً فى السابعة والستين ، يحكم من يراه بأنه لايزيد على الخمسين ، إلى جانبه زوجته الشابة فى زهرة سنيها الثلاثين . . وكانت قوته موروثة عن أب فلاح صلب كخشب السنديان . وكانت للمسيو بلزاك متانة عضلاته ، ورخامة لهجته ، وشمس مخيلته . وكان إذ يزعم ذووه أنه يتعشى بينهم ، يكون فى الحقيقة قد سافر إلى عوالم خياله ، يشيدها على أسس جديدة .

وصاحت الأم فى الولد :

— أفلا تكف يا أونوريه عن التدحرج تحت المائدة كالجحش فى البرية ؟ .

إن رأيتك تكرر ذلك أبعدتك إلى فراشك بالخبز القفار !

وهكذا أقسمت الأم التي لاتعرف كيف تخلق الهناء من حولها ، ولا ترى أن وجه صغيرها يشرق بطبيعة غنية حيوية . وكذلك الأب لم يكن يتبين ذلك ، فهو بدل أن يلحظ عياله يضرب في بيداء خياله . وكانت تتكرر هذه المشاحنات بين زوجين هما على طرفي نقيض . . عمرك الله كيف يلتقيان ؟ ! فلم يلحظا ـ لا هي بلبسها الحقائق ، ولا هو من عالم الهواجس ـ أنهما قد أنجبا معاً ولداً فتاناً ، تدب قدماه في الأرض ويرتفع رأسه نحو السماء . إنه ولدهما ، عقلهما ولحمهما . . ومع ذلك بدوا ثلاثتهم كما لو كانوا أبعد مايكونون بعضهم عن بعض ، كما لو كان ثلاثتهم من الأجانب الغرباء .

وتخرج الأم من غرفتها حيث كانت تقرأ فلسفة « سويدنبورج » . . والأب في مكتبه يدرس في التوراة طول الحياة البشرية . . والجدة الشهمة تقضي ساعة في المطبخ تعنف الطاهية المسكينة . . ولا يدور على المائدة حديث . فإذا قال الأطفال لأبيهم إن الناس في الشوارع يعلنون نبأ انتصار حربي ، تنهدت مدام بلزاك قائلة إن هذا النبأ يدل على ألوف الجنود القتلى ! . . فيؤكد زوجها أن بين القتلى جرحى سوف يشفون ! . . أما القتلى فسيورّثون أحذيتهم للذين هم بلا أحذية . . ويضفون على العراة سترهم ! . . فتتأفف الحماة من قول صهرها الذي يشبه ما يقوله القسس الحمق : « أليس بعدد هؤلاء القتلى سيكون الشهداء السعداء عند الله ؟ ! » . فظل لا ينظر إليها ، ويبسم ، وينقر على المائدة ، وأبى أن يتناول اللحم ، قائلا : « إن أكله ليلا يسبب الأرق ويسمم الأنسجة » . . فتتمرمر زوجته قائلة :

ـــ اسمعوا الخبر الأول من نوعه ! . . إنك كنت تقول بعكس ذلك تماما منذ شهرين . . لله ما أعجب نزواتك ! . .

ـــ ذلك لأنني قد تربيت على لبن المعز ! . .

ويسمع نباح كلب . فتقول الصغيرة لورانس :

ـــ إنه الكلب الكبير الذى يثب دائماً علىّ !

فينذرها أبوها : « لقد حذرتك مئة مرة من الدنو من الكلاب ! . . فالكلاب حيوانات خطرة لا يؤمن جانبها » .

فتسأل الجدة بنتها بلهجة المتهكم : « ترى كم نسخة بيعت من « تاريخ الكَلْب » الذى وضعه زوجك منذ ثلاث سنوات » !

فيقول مسيو بلزاك : « مليون ونصف مليون ! » . .

وينهض ضاحكا ، مما خيل معه لأونوريه أنه يستطيع الاشتراك فى الضحك . . فتنهره جدته : « يا قليل الأدب ! . . اذهب إلى فراشك »

ففكر أونوريه : « رباه ! . رباه ! . . أين من يحبنى ؟ ومن علىّ أن أحب ؟ »

وشعر بحزن يشق عليه ، وأنه بحاجة إلى من يبثه ما فى نفسه ! . . أب وأم ! . لقد طالما قرأ فى الكتب أنه ليس فى هذه الدنيا أقدس من الوالدين . فلماذا إذن يخشى جانب تلك التى يدعوها « أماه » ؟ ولماذا تراه ، وأبوه على ما هو عليه من معرفة ، ومن إحاطة ومن فصاحة ، وأبوه عنده أجل من عرف من الرجال ، لماذا لا يجرؤ على أن يروى له ما أصاب كتيبه « فى الإرادة » ؟ . . ولماذا يارب فى بلاد يجرى فيها نهر عظيم ، وتقوم فيها كنيسة رائعة ، وفيها كل هذه الآيات والصور البينات ، ويحكمها عاهل جليل القدر ، لماذا لا يسعد الناس جميعاً ؟

ونادت « المدموازيل » الأطفال ، لتغسل لهم وجوههم وأيديهم . وبعد الصلاة يدخل أونوريه غرفته ، وتلحق به أخته جرياً ، فيتحدثان ، فتظهر أمهما على العتبة تنذر أونوريه بالضرب إذا ظل يتكلم . . . ونفخت المربية الشمعة ، فساد الظلام ، وانصرفت . . وأونوريه لا يأتيه النوم ، فهو : يتثاءب ، ويتضجر . . يريد : أن يجرى ، وأن يعمل ، وأن يقرأ ، وأن يكتب ، وأن يتشاجر ، وأن ينتصر ، وأن يحب ، وأن يبكى ، وأن يفعل أشياء عدة جليلة وجميلة ،

كالأبطال أو القديسين . . ويظل يتقلب فى فراشه ، ويتقلب . . وتقول لور :

— أو . . نو . . ريه ! . .

— ماذا تريدين ؟

فتضحك الصغيرة ضحكا عالياً ، وتقول :

— أما زلت تطمح إلى أن تكون عظيما

فيفتح الباب كهبة الريح . وتبدو أمهما وفى يدها شمعة . وتسأل غاضبة :

— من الذى صاح ؟

فيجلس فى سريره ، وقد انتفش شعره كالأدغال ، ويحدق فى لهب الشمعة بعينيه النجلاوين ، ويجيب : « أنا » ! . .

فتصفعه أمه صفعتين ، وتخرج . . فتتأثر لور ، وتكاد تبكى من أجله ، وتزفر . . وتعض غطاء فراشها تخلصاً من نحيبها . . وتسأله :

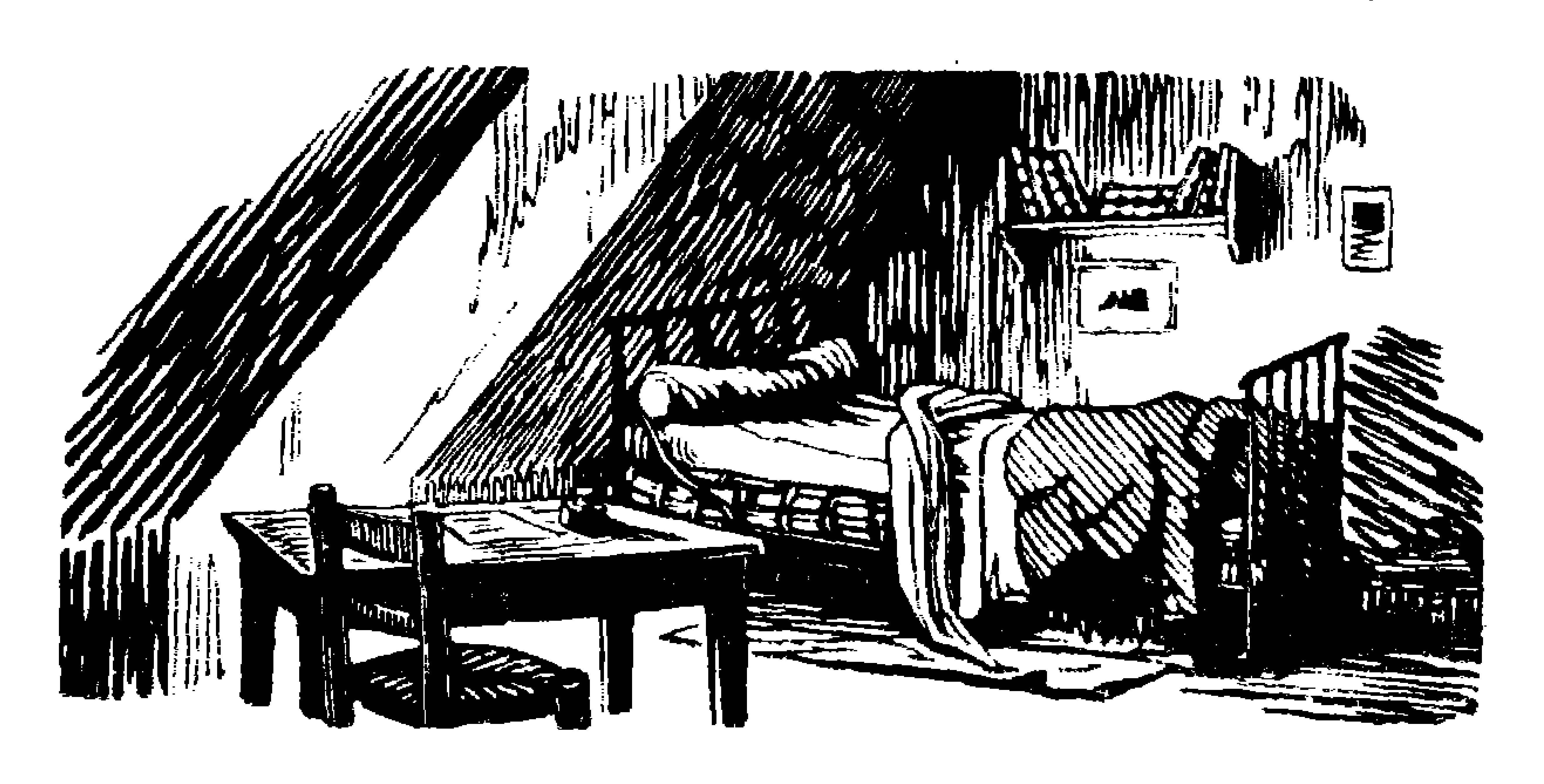
— لماذا قلت ذلك ، مادمت . . . ؟ . . وهل أحسست بألم شديد ؟

فيرد عليها أونوريه مباهياً :

— لم أحس شيئاً !

وعندئذ يمتلىء قلب الصغيرة : ألماً ، وإعجاباً . . وتقول بصوت لا نظير له ، فى رجفة وحنان ، يتجلى فيهما كل نقاء سنيها الإحدى عشرة :

— إننى ، كذلك ، واثقة من أنك ستكون رجلا عظيما ! . .



٢

بعد عام مما مر بنا ، عين المسيو بلزاك بإدارة المهمات الحربية فى باريس . وفى عشية السفر راح أونوريه يمثل لإخوته ، بطريقته التى لا تجارى ، مهزلة يستعرض فيها كل الوجوه التى عرفوها فى مدينة تور ، ويودعها وداعاً ساخراً . .

وعرف الأولاد لذة الانتقال ، والسفر ، وسكنى بيت جديد فى تلك المدينة التى كانوا يجهلونها ، المدينة العظيمة ذات الاسم الرنان ! . . وشعر أونوريه بالفخر والكبرياء إذ أصبح من ساكنى تلك المدينة الساحرة . .

ومع ذلك كان الطريق لا يزال أمامه طويلا حتى يصبح باريسياً عريقاً . فأدخلته أمه ، غداة وصولهم ، مدرسة داخلية ، بشارع سان لويس . فظل ثمانية أيام عاجزاً عن الإصغاء إلى شيء غير مخيلته . وكان رأسه يشتعل شوقاً لرؤية : نوتردام ، واللوفر ، والتويلرى ، وأين يسكن الأمبراطور ؟ وأين فصلوا رأس الملك على المقصلة (الجيوتين) ؟ . . لقد بدأ عهداً جديداً ، كله : حماسة ، وثوران ، وكله : انجذاب ، وافتتان . . .

الحلفاء فى العاصمة . عودة لويس الثالث عشر . المئة يوم . ووترلو .

الرِّدة . . يالها من ساعات مثيرة ، تلك التى ستعيشها تلك النفس الفتية ، الباحثة عن معنى الحياة ومصير الوطن ! عهد قلق وتزعزع ، ينشد فيه كل امرىء استعادة توازنه . نخطر لأونوريه أن لديهم فاتحاً عظيماً ، فلا بد لهم الآن من مفكرين عظام ، من عقول تعطى الشعب أفكاراً وقوانين . . وسلك نفسه فى عداد هؤلاء « الموعودين » ! . .

وكان أونوريه ملكياً ، على شاكلة ناظر مدرسته المسيو لبيتر . ولكنه كان يرى رأى أبيه القائل بأنه منذ الثورة يحق لكل إنسان أن يطمح إلى المجد ، بتكريس نفسه لخدمة بلاده ، مهما يكن وضيع المنبت ، رقيق الحال ! .

وقضى عاماً فى مدرسة المسيو لبيتر ، وعاماً مثله فى مدرسة أخرى ، ثم عامين عجيبين ، سريعين كأنهما ربيع ، التحق فيهما بمدرسة الحقوق ، متظاهراً بأنه يعمل كاتباً فى مكتب الأستاذ « جيونيه دى برقيل » . . وكان يذرع فيهما باريس الشاسعة من أقصاها إلى أقصاها ، وتعلم خلالها الرقص ، وتابع بشغف دروس السوربون . . .

هذا هو تاريخه حتى سن العشرين . وكان يتملكه ويسيطر عليه قلق ملح ، ورغبة جائحة : « حذار حذار أن تضيع الوقت ! »

وعند مازعموا أنه يتنزه ، وأنه يتجول ، وأنه يعبث ، وأنه يحلم ، كان يؤدى ما ينبغى له : ينظر ، ويدرك ، وينظم حياته . وإذا كان يجلس ساهياً فى محاضرات الحقوق ، فذلك لتمييزه ما لا ينفع قصده ، ويخدم غرضه ، الذى كان جليلا لا ضئيلا . . . فلما كان يضرب فى أنحاء باريس ، مدفوعاً بإعجابه بما يراه ، كان يبحث عن الأمس ، عن الماضى الغابر ، ويعجب به ، ويمجده ، ويحييه ، لأنه هو الذى سيلهمه المجد فى المستقبل . ولكن ، هل كان يتثاءب فى الدرس ؟ هل كان يهرب منه بلا عذر ؟ ذلك أن مهنة « كاتب محام » الصغيرة ، التى فيها ينسخ ، ويسجل ، ويرتب الملفات والأضابير ، تقتل فيه ذلك الميل

العظيم للخلق والإبداع ! فهو يخشى على روحه التلف . وباريس هى مهبط الوحى، ومصدر الإلهام ، الحوادث فيها هى ذروة التاريخ ، وحاضرها هو أجمل ما فى الحضارة ، ونساؤها هن أجمل نساء الأرض وأشدهن فتنة ، ورجالها هم أشهر الرجال . . . وكان إذا ما نظر بعين نهمة إلى المركبات تمر فى الشانزليزيه ، حاملة أشتاتاً من كل الطبقات ، ناقش أحوال الحياة الاجتماعية ، وقارن أوضاعها وأحكامها بعضها ببعض ، فيسأل الترف عن أسبابه : « هؤلاء النسوة الجميلات ، الشائقات ، الفاتنات كل هذه الفتنة ، لمن هن ؟ من الذى يستحقهن ؟ » . . ولم تكن الأفكار الخسيسة لتخطر له فى بال . . فكان إذا ما رأى نفسه ، سلفاً ، بعين الخيال ، فى إحدى المركبات إلى جانب واحدة من هؤلاء الحسان ، فذلك لن يكون ، أو يبذل جهداً نبيلا ، يهيء له الشهرة ، ثم يتيح له الحب ، جزاء وفاقا . .

يا نساء باريس ، ما أشبهكن بالشهب فى العينين العاشقتين ، عينى هذا الريفى الصغير ، المهتز حرارة وحيوية ! . . إنه يعجب بكن إعجاباً مقدساً . إنكن تلهبنه بشعلة من الشعر . فلا يخاف ، ولا يحزن ، إلا إذا ما عاد إلى البيت أدراجه ، لأنه لا يلبث أن يلقى أخواته الظريفات ، أولئك الريفيات اللواتى كن يمثلن عنده ـ منذ بضعة شهور سلفت ـ شباب الدنيا وجمالها ، وقد أصبحن ، الآن ، فى نظره غشيمات ، قليلات الخبرة بفن الطهى ، قديمات الزى ! فالقدم ، واليد ، والحركة ، والزينة فيهن ، لم يعد لها عند أونوريه تلك الحميّا الشعرية ، التى تحوط بالفتنة المرأة الباريسية الأنيقة ، الرشيقة ، الطليقة . . . وهو قاس عند ما تتهافت أخواته الصغيرات على رؤيته ، مبهورات ، إذ يلبس جواربه الحريرية ، وينتعل حذاءه اللامع ، ليذهب ليرقص فى حفلة الأوديون . . فيقول :

ـــ وربى إنكن لم ترين من الحياة شيئاً ، قط !

وكان من حسن طالعه أنهن لم يرينه ، بعد ذلك بساعة ، وهو يسقط أرضاً ، مع راقصته ! فما كان ليغفر لهن قط رؤيته على تلك الحال . . ومع ذلك ، أتراهن

كن يضحكن منه ذلك الضحك الخبيث الذى أرسلته الباريسيات الساخرات؟ لقد أحس حمرة الخجل، وحملته الأنفة، وازدهاه الكبر، فأقسم لنفسه فى الطريق، وهو يلوح لأعمدة التياترو بقبضته: «تالله لأسودن الدنيا بشىء آخر غير الرقص!»

وفى اليوم التالى، يقضى ثلاث ساعات على رصفة السين، ورأسه فى صناديق الكتب المعروضة. لقد عاد فأصيب بسعار المطالعة. وبدت له الدنيا شريرة، فى حين أن الكتب هى الخيرة الكريمة. فما إن يفتح كتاباً قديما حتى يحن قلبه. ولا يقفله حتى يحس أنه أغنى مما كان، ولا سيما على شاطىء السين، أمام اللوفر ونوتردام!.. ويخفق فؤاده لهذه الصحبة!.. وعند ما يكون الكتاب ضخم الحجم، رخيص الثمن، يشتريه... وهكذا لم يعد فى غرفته موضع لقدم!.. ويئست أمه من تنظيفها. ولكنه لا يستطيع دفع رغبته فى التعلم.. وكل ما يقرأه يثيره: التاريخ، والآداب، والعلوم. وكان مفتونا بمحاضرات السوربون، يذهب إليها من تلقاء نفسه!.. فيا للساعات الشائقة! إنه يعجب ويغبط بمجامع قلبه أولئك الرجال الذين يلقون ـ فى قاعات دافئة بمن تغص بهم من نساء وطلاب ـ بأصوات ملهبة، دروساً ممتعة فى العباقرة وأعمالهم. وها هو ذا يصغى إلى الأستاذ «كوزان» إذ يتحدث إلى طلاب الحى اللاتينى فى الحق، وفى الجمال، وفى الخير... ويفتن بسماع «ڤيلمان» ـ الذى أعطوه فى الثامنة والعشرين كرسى الفصاحة الفرنسية، فى السن التى تتدفق فيها الفصاحة.. وهو فخور، سعيد بكرسيه، يرسم القرن الثامن عشر ـ وأونوريه يصغى، ويرى، ويؤمن.. إلى حد أنه، بعد ما انتهى الدرس يوماً، ورن التصفيق، خيل إليه أنه المقصود بهذا التصفيق!. وتصور نفسه على مقعد التدريس، وأنه هو الذى خطب خطبة عصماء.. وبينا كان يصفق كالآخرين لهذا الأستاذ الساحر، تابع حلمه، وابتسم، وأحنى رأسه للحاضرين شاكراً!..

هذه التأثرات العميقة فى نفسه الصبية قد احتفظ بها سراً.. فلن يفضى

بها ؟ . . إنه ساذج ، ولكن ليس إلى هذا الحد . . ولو فعل لكان أبوه أول من يسخر منه ، وأمه تعده مجنوناً ، وأخواته لايفهمن ، وأخوه فى أذيال أمه . . وليس غير الآنسة « دى رودجمون » العانس ، التى هى من طراز عتيق ، عتيق ، تلبس ما خلعه الناس من زمن ، وتستند إلى « عصا - مظلة » مثل « مارى أنتوانيت » فى قصر التريانون ، وتتنشق فى أنفها المدبب سعوطاً من علبة ذهبية . . وكانت كثيرة التردد على مدام بلزاك ، فلا تكاد ترى أونوريه ، حتى تقول :

ـــ آه ! . . إنى أرى فى عينى هذا الفتى أنه سيسألنى عما إذا كنت قد عرفت الكاتب « بومارشيه » . . لقد عرفته قليلا . . .

فيسألها أونوريه : « وهل كان وقحاً مثل بطل قصته (فيجارو) ؟ »

ـــ إنه فيجارو نفسه ! . . فقد رسم فى تلك القصة ذاته . إن الكاتب العظيم يرسم نفسه دائماً !

ـــ ما أدق ما تقولين ، أيتها الآنسة ، وما أرقه ! . .

فاحمر وجه الآنسة دى رودجمون سروراً بثناء أونوريه عليها . . وقالت :

ـــ لا أدرى إذا ما كان فيما أقول دقة أو رقة ، وإنما أدرى أن صنعة الكتابة تتطلب من صاحبها أن يكون أغنى من الآخرين . . لابد له من أن يطوى تحت جناحيه الآخرين جميعاً . . .

فهز رأسه موافقاً : « هذا حق . . هذا حق » . . وبصوت منخفض قال : « سأكون أغنى منهم » !

وكان من أشد المعجبين بالكاتب « بومارشيه » . . ياله من رجل ! . يلابس الشيطان ! ويصنع كل شىء . . حتى الروائع يكتبها وهو يمزح ، ويلتى بالكلمات كما تلتى السماء بالبرق . . وهو ساعاتى ، وموسيقار ، وبائع بنادق ، ومحام ، ومؤلف مسرحى ! . . ذلك أن الفن التمثيلى هو من أشد ما يجذب فتى يريد أن يسود بالفكر . أى سلطان على الجماهير ، ذاك الذى يجعل القصة تضحكهم وتبكيهم ؟ !

وكان كثير التردد على « التياترو الفرنسى » (الكوميدى) ، وهو المسرح الوحيد الذى يعرض آيات التمثيل . وليس وراءه وقت يضيعه فى سواه . فهو يقف فى الصف الطويل المنتظر أمام شباك التذاكر مصغياً إلى أحاديث هواة « أعلى التياترو » ، فيتعلم ما يحبه الشعب فى بساطته واستقامته . ويعود دامع العينين . وأصوات الهتاف فى الصالة ما زالت تدوّى فى أذنيه . الحق أنه ما من شىء يؤثر فيه مثل هذا المجد المسرحى . فالثراء الذى يراه فى الشانزليزيه ، ونبالة الكتب التى تلهب رأسه بنار المعرفة ، عند ما يأوى ليلا إلى غرفته ، ويشعل سراً شمعته ، ودروس السوربون الممتعة ، التى تغذيه وتطربه ، لا شىء من هذا كله يمنح روحه جناحين ، لا شىء فى باريس يجتذبه ويغريه مثل فكرة التأليف المسرحى . سوفوكليس ، شكسبير ، موليير ، الأمجاد العظمى ! . . كورنيل ، سيد الكتاب ! . . وهو يضيف إلى هذه الأسماء الكبرى اسم : « أونوريه بلزاك » ، يراه يتبعها ويلاحقها ، مسجلا اسمه ورسمه على شرفات تياترو باريس ، العاصمة ، أى : الرأس ، والفكر . . باريس التى تحدد رغباته ، وتعبر عنها ، وتصنع منه رجلا معتزماً أن يصبح مشرّف أسرته .

وحملته هذه الفكرة الأخيرة على أجنحتها ، وحلقت به . وانتهز بقلق الظافرين فرصة سعيدة يقضى فيها لأبيه بقوله : « سأجعلك يا أبت العزيز عظيما ! » . ولكن المسيو بلزاك كان فى الوقت نفسه يعد لولده مركزاً من طراز آخر ، مركزاً حراً يكسب فيه أونوريه حياته كسباً مكفولا ، موفور الرزق . فإن هذا الرجل الغريب الطباع ، بعد ما كان مستقل الرأى ، قد قضى ثلاثين عاماً فى وظائف الحكومة ، فأحب التهاون وعدم المبالاة اللذين تضفيهما الإدارة الحكومية على النفوس . فالموظف ، فى غير دائرة مكتبه ، يستطيع أن يفكر ويتأمل ويبتكر . ولكن من سوء طالعه أنه مضطر فى الصباح التالى إلى العودة إلى وظيفته ، أى إلى « الروتين » والخضوع لأشخاص تافهين . . فرأى مسيو بلزاك « أن هذا لا يطاق

ولايحتمل » ، ومع ذلك تحمله دهراً طويلا . . وهذا هو ما حمله على إعداد مكتب خاص لولده ، ليكون « مسجلا للعقود » ! فقد طالما أحب ذلك : أن يكون أستاذاً ، سيد نفسه ، يقف كتبته بين يديه ، وبأيديهم الملفات ، يقرأون له ، ويكتبون بإملائه . وقصارى القول أنه يريد لولده المسرات التى حرم هو منها ، وتوقع من أونوريه أن يقر بهذا المشروع عيناً ، ويعترف بجميل أبيه .

وهكذا نجد كلا منهما يعد من جانبه العدة لهناء الآخر ، وكلاهما يألم أن هذا الهناء ليس قاب قوسين أو أدنى . . ثم سنحت الفرصة فجأة ، ولم تكن منتظرة . فقد وجد مسيو بلزاك ولده يقرأ « رابليه » ، فقال له :

— يا له من عقل كبير ! أليس كذلك ؟ يالها من حرية عظيمة يا أونوريه !

كانت هذه الكلمات كافية لربط قلبيهما . . وأضاف أبوه :

— لا شىء أشهى من ذلك . . .

— أليس كذلك يا أبت ؟ . .

— ولى فى هذا الشأن كلام معك . . فها أنت ذا قد بلغت طور الرجال . .

وسمع أونوريه ما اعتزمه له أبوه ، كارهاً مستنكراً . . وبثه ما فى نفسه من رجاء فى الكتابة والشهرة عن طريق القلم . . فلما عارضه الشيخ غاضباً ، نطق أونوريه بهذه الكلمة السامية : « أتريدنى مسجلا للعقود ؟ ! . . شىء لا أفهمه ! . . أعرف أنه فى الإمكان أن يكون المرء قائداً عظيماً ، أو شاعراً عظيماً ، أوسياسياً عظيماً . . وإنى لراغب فى مثل هذه المهن . . ولكننى لا أرى مسجلين للعقود عظاماً ! . . أبداً ! . . وإنى لأحتقر صناعة لايمكن للمرء أن يكون فيها عظيما » . .

— آه ! . . إذن فالسيد الشاب يريد أن يكون ڤولتير أو روسو ؟ !

— وهل كان أبواهما أوفر منك يا أبى ذكاءً ؟ !

وسمع هنرى ، شقيق أونوريه ، هذا النقاش مصادفة ، فحمله إلى أمه . فزادت هذه فيما بين الوالد وولده من الضيق والحرج . فهل ينوى أونوريه أن

يقتلها من الحزن ؟ أم تبادر هى فتقتله خشية الخيبة والفشل ؟ وحدث ، فى فورة من فورات غضبها ، أن وقعت ، وأصيبت ركبتها ، فعاد السلام المؤقت إلى البيت . وأونوريه فى بحران من الصمت الأليم .

كثيراً ما تكون الأمهات على غير هدى . ولكنهن بهذا الضلال من تصورهن يؤثرن فى أولادهن وينفعنهم . فقلوبهن لا تعرف السلام ولا عدم الاهتمام . وهن من شدة غيرتهن وهياجهن يزدن النار استعاراً . . وهذا الاستعار خير من جمود الصمت وجدب الاصطبار . وسيحدث أن حياة بلزاك تتغير تغيراً تاماً . فإذا كان الأب يتعجل اشتغال ولده الكبير ، فذلك لأنه لا يلبث أن يحال إلى المعاش . وهذه الإحالة معناها خسارة فادحة لدخل الأسرة ، إذ تنقص ميزانيتها ألوف الفرنكات . فضلا عن أنه لابد من تزويج البنات ودفع مهورهن . وهو ما يقلب النفقات والعادات رأساً على عقب . واستطاع الأب أن يجد بيتاً فى « ڤيلباريزيس » على ستة فراسخ من باريس . وإلى هناك تنقل الأسرة أثاثها مستغنية عن خادم ، مقترة على نفسها فى الإنفاق ، بعد ما كانت لا تحسب للبس والطعام حساباً . . فقد كانت الأم وبناتها ـ رغم رأى أونوريه ـ من المتأنقات المتحذلقات . وكان الأب من المشغوفين بألوان الطعام النيئة الغنية بالڤيتامينات وألوان الطعام الناضجة . . وقد آن الوقت لاختزال هذا كله . ولن يشعر أحد منهم بهذا كما شعر الولد ، أونوريه ، الذى هو عندهم متعصب ، عنيد ، راكب رأسه ! لأنه لن يرضخ للذهاب إلى ڤيلباريزيس ، فيسبب بذلك خراب الأسرة . . إذ ماذا يفعل فى باريس غير إنفاق المال ؟ . .

هذه هى أقوال الأم . أما الأب فلزم الصمت . فهو يحب الحرية ، بل ويحب الأدب ، بحيث لن يقابل بالعنف رغبة ولده ، وإن كان لا يخفى ضيقه منه ، وانصرافه عنه . . وظل يتحرى حلا حتى وجده على مضض ، وعهد به إلى الأم الساخطة التى حملته إلى أونوريه كعقاب له . . ولكن أونوريه يعيش ، كوالده ، بالمخيلة :

غرفة سطح فى باريس ! ألف وخمسمائة فرنك (٦٠ جنيهاً سنوياً) للعيش ! . . هذا هو الخلاص ! . . هذا هو الهناء ! . . ولو أنه كان ـ عند والدته ـ هو الاستشهاد ، فأونوريه لايخشى الاستشهاد . فهو يكاد يحب البؤس ، ضريبة المجد . . فإن للعظمة أيضاً إتاوتها ! . . فأجاب أمه بجفاء بأنه يقبل . . مع اعترافه بالجميل ! . . والويل له إذا ندم على كلمته الأخيرة هذه . . فهو فى ذروة أحلامه ! . . وهو يتعجل العيش وحده . . عشرون عاماً ، سن القوة ! . . سيبدأ حياته ككاتب : شجاعة ، وجرأة ، وعبقرية . . هذا ما ينبغى له . وفى باريس ، سيلقى هذا كله .

وكانت ساعة مشهودة ، من أغسطس ١٨١٩ ، فى حمّارة القيظ ، تلك التى سكن فيها عشة سطح بشارع « لديجيير » ، على خطوتين من فوبور سانت أنطوان ، بعد ما حملوا إليه ، على عربة يد ، أثاثاً رخيصاً ، وحقيبة ملابس ، ورزماً من الورق والكتب .!. وقد عانقته أمه ، فى جو من التراب ، عناقاً أخيراً ، قائلة له ، وكأنما تتحداه : « ها أنت ذا يا صاحبى ! . . فاكتب آيات بينات ! . . ولا تنس أنه فى هذه الصناعة لايوجد بين بين . . فإما أن تكون ملكاً متوجاً ، وإما أن تكون صعلوكا ذليلا ! » . .

وبدا الاضطراب على لور ، فالتفت أونوريه نحوها ، وقال متبسطاً :

ــ لا تضطربى ياحبيبتى لور . . سأكون ملكا ! . .

ثم غالب نفسه وسأل : « أين أبى ؟ . . » . . اختفى . . . لم يره أحد . . فمضى أونوريه لطيته . . كليم القلب . غير أن حركة المارة فى الشارع قد ألهته . فأحس بغتة بقوة الأسد الرئبال ، إذ دخل غرفته . وأعد بنفسه منضدته ، ليكتب عليها ، ويكون شهيراً وإياها ! . . وجعلها قبالة الكوة التى ينحدر منها شعاع الشمس الذهبى ، الشعاع النارى . . وخلع سترته ، وألقاها أرضاً ، وفتح قميصه ، وشمر عن ساعديه ، وضحك وهو يخبط على المنضدة :

ــ إليك ! . . أنت وأنا ! . . والأيام بينهم وبيننا ! . .

ويذكر فجأة أن هذه الجملة، قد سبق له أن قالها وهو صبي في مدرسة فندوم، عندما سخر منه رفاقه. إذن فهو لم يتغير. وهي فكرة قديمة يحققها. فصدرت منه صيحات الفرح. ورآه الحمال هكذا، فقال: «ها هو ذا فتى سعيد!».

— بل سعيد بجنون!.. ضع هذه الرزم هناك!.. موليير، وكورنيل!.. حسناً!. وهذه عدة القهوة!.. حسناً جداً!.. سنضع كل شيء مكانه. وأكون مركز كل شيء!.. أتفهم أنت معنى لأن يكون للناس بيوت فسيحة وقصور منيفة؟!. هنا كل شيء في متناول اليد: المائدة، والسرير، والكرسي، ورف الكتب!.. حياة إنسانية متراكمة، مركزة، مبسوطة إلى الحد الواجب، لا أكثر ولا أقل!.. وإن «كوزان»، مسيو كوزان، الأستاذ بالسوربون، سوف يدخل هنا، ويرى، ويقول: «إني أتنبأ بما سوف تتمخض عنه هذه الحجرة»!..

ووقف الحمال مبهوتاً.. فصاح به أونوريه: «انزل ياصديقي وأحضر الباقي!»

ورتب غرفته، وهو يرقص ويغني. وكانت غرفة حقيرة، في بيت عمال، رآه في الشمس، فطاب له، وصادف هوى من نفسه. وكانت الغرفة مجردة، ضيقة، معوجة. وها هو ذا فيها مع أوراقه وإرادته. وبدت له الحياة جميلة.

وكان قد حمل كل ما سوده منذ طفولته من شعر ونثر. فأعاد قراءته، وابتسم، ورتبه. وعلق الصور على الحيطان، وملأ دواته حبراً، وأعد ريشتين جديدتين، وأحس أنه يبدأ شيئاً فريداً.

ترى، أهناك شاب سواه قدير هكذا على أن يعتزل الدنيا بأفراحها، وينقطع لعمل عظيم؟ آه!.. إنه يعرف الشبان!.. إنهم جميعاً عشاق مسرات وملذات.. وكأني بهذه الشبيبة ليست إلا رماداً تذروه الرياح بعد هذا العصر الناري الذي عاشوه.. الله له! هو الذي يحس كل هذه الرغبات والأماني!..

وبدأ يكتب خطاباً إلى أخته يعبر لها فيه عن أفراحه جميعاً. ولم يكن يقدّر أنه قد بدأ نضالا عنيفاً هو مأساة الشباب عند ما يكونون مترفعين، طموحين،

متعجلين . . وكان يتعجل إقامة الدليل لأسرته على كفايته . ولكن الشباب يريد ولا يقدر . يحس لنفسه جناحين ، ولكنهما ليسا من القوة بحيث يطير بهما . . إنه يحلق ، فيسقط . وهاهو ذا أونوريه يعلن : « أريد أن أكتب ! » . . ويحتل غرفته . . ويزعم نفسه سعيداً . . ويمسك بريشته . . ولا يدرى مايفعل بها . . ذلك أن الإرادة وحدها ، فى سن العشرين ، تكون غنية ، والقلب وحده يفيض بدم كريم . . بيد أن العقل فقير ، إذ لايمكن أن تغنيه إلا الحياة ، بما فيها من ثقافة ، وتجربة ، وخبرة . . .

وعاد أونوريه فاستغرق فى المطالعة : بومارشيه ، موليير ، ڤولتير ، روسو . . فيا للأفكار التى تتطاير كالشرر فى رأسه ! . . لكن الشرر قصير العمر . فتوهم أن النار ناره . وكانت نار رجال عباقرة . فلم يستطع الاحتفاظ بها . ومع ذلك كهربته . فوضع فى ثلاثة أيام تصميم قصة عنوانها: « Coqsigrue » ، أوبرا كوميك شعرية فى فصل واحد . . ثم عاد فانطوى تحت كتبه . وعادت إليه الأفكار خفافاً سراعاً ، قصيرة المدى دائماً ، وإن كانت دائماً براقة . . وكذلك عاش بضعة أيام فى حميّا الأوهام . . .

وكان قد انتهى من قراءة مجلدين بقلم ڤيلمان عن « كروموبل » ، فأوحيا إليه كتابة درامة نبيلة ، أى شعرية . ورآها بعين خياله وآماله تمثل على مسرح الكوميدى فرانسيز . . وظل يضع لها تصميماً بعد تصميم . . مصغياً إلى لغط البيت ، وإلى ضجيج المدينة البعيد . . كيف كان كروموبل ؟ أو شارل الأول ؟ كيف كان يفكر هؤلاء الرجال ؟ وكيف كانوا يعملون ؟ . . لقد أغمض أونوريه عينيه ، وراح ينادى أرواح أبطاله . ثم لما شعر بأن فى رأسه دخاناً كثيراً ، ولهباً قليلا ، كتب إلى أخته لور خطاباً فياضاً بالحياة ، والفكر ، والطيبة ، وكل تلك المواهب التى تكفل كتابة آية من الروائع ، والتى مع ذلك تهرب منه ، كما يهرب الماء من بين الأصابع ، كلما أراد أن يسخّرها فى كتابة مأساته الشعرية . .

وضاق ذرعاً بقصته التى لاتكتب على مكتبه . لقد كان بحاجة إلى تحليل الألم . فأين يدرسه ؟ قال لنفسه : « سأجد ذلك فى مقبرة پير لاشيز ! » . . وحمل قبعته . وهرب من حجرته . وخرج على أمل . . وعاد على مضض . فما أكثر ما رأى فى تلك المقبرة الباريسية من مهازل ! لشد ما يفسد الناس أنبل ما فى الحياة ، وهو جلال الموت ! : « إذا نحن صدقنا الأحجار ، وشواهد القبور ، كانت كل النساء مخلصات ، وكل الأمهات معبودات ، وكل الأبناء أولاداً حلالا ! . . ثم لا يكون هناك إلا قصابون أمناء ، ومحامون شرفاء ، وجنود بسلاء ! » .

وعاد إلى غرفته . وعاد إلى « كرومويل» . وعادت باريس تجتذبه إليها . فهل كان على حق فى اختيار درامة تجرى فى انجلترا ، فى القرن السابع عشر ؟ أليس آمن له أن يروى قصة باريسية ؟ ! . . لا ! . . فلا بد له أولا من أن يدهش العائلة . . ثم ينسج على منوال كورنيل وراسين ، ويسير على دربهما عن قرب . . ففتح قصصهما ليجد نموذجاً ووحياً . وترنم بأشعاره وهو يتمشى فى بولڤار « التامپل » . . ورأى أهل الأناقة ، من كل زوجين اثنين ، يدخلون مطعم « الكادران بلو » ، الذى لايقل مايتكلفه الفرد فيه عن جنيهين فى وجبة العشاء ! . فقارن جهده بهذا البذخ ، وقاس مايلزمه من أعمال مهولة ليحصل من شق قلمه على مركز اجتماعى يمكنه من مثل هذا الترف الذى لا تستغنى عن ألوانه نفس تريد أن تلحظ وأن تعرف . .

ولما عاد وجد بيته بشعاً ، وغرفته مثلجة ، وسريره قذراً . . فالتمس الرقاد ، وعلى لسانه طعم الرماد . ولما استيقظ قرأ ما كتب . وكان بدنه هادئاً ، وكان روحه بارداً . فأدرك أنه ، بدلا من تقليد راسين ، كتب مسخاً ممجوجاً . . فأحس ، مع الشتاء ، بأن نوعاً من اليأس الثابت قد حل فيه ، وليس لديه سلاح للمقاومة غير إرادته . وما دام قد اعتزم كتابة « كرومويل » رغم كل شىء ، فسيكتب « كرومويل » غير أنه لم يعد يحس أنه ملهم . . كان قد انصرف الوحى وانقضى

الإلهام . . وبقى لعزاء نفسه شعوره بأن النبوغ قد يكون هو الصبر الجميل .
فوصف تقاعسه بالجبن . فهل هو هنا فى باريس لينفق مال أبيه ولا يبدع شيئا ؟ . .
إن كل بداية صعبة ، ولكن لابد من البداية ، وليس حتماً عليه أن يبلغ شأو راسين من القصة الأولى . إن أول قصة لراسين ليست بذات شأن يذكر ، وهى مع ذلك لم تحرق ، ولم تذر فى الهواء حروفاً ! . . وقال لنفسه : « إن المأساة لن تقتلنى ، بل أنا الذى سيأخذ بتلابيبها ويخنقها » ! . .

وظل على ذلك نحو الشهرين بلا حراك تقريباً . وكاد البرد يجمد أطرافه من قلة الحركة والخروج . وظل صامداً خامداً أمام قصته . لايكاد يمر من كرسيه إلى سريره ، الذى حدث أن قضى فيه أياماً برمتها ، ينظم فيه الشعر ، ملقياً بالحبر على أغطيته . ولا يكاد يختم مشهداً حتى يتنفس الصعداء ، ويفرك يديه ، ويضرب كتفيه ، ليجرى الدم فى عروقه ، وليعبر عن رضاه . .

وكان يشكو من البرد الذى سبب له الورم و « القشف » كما فى أيام المدرسة ، ثم من ألم شديد فى أسنانه . ولكنه بلع كل هذه الآلام ، وظل ينظم شعراً ! . .
فأكسبه التقشف صلابة ، وبرد منه القلب ، وغلظ العقل . وفقد فى وحدته عادة الكلام . . وهو يجر بلا انقطاع أذيال أفكاره الصادقة والزائفة ، تائهاً ، كما لو كان فى صحراء ، وسط باريس هذه الغاصة بالناس ، فأصبح « ڤولتيرياً » جافاً ، فريسة النظريات الأنانية ، التى تحرقه بنارها ، دون أن تدفئه بحرارتها . . وتجعله يسخط على المجتمع وعلى الدين . . أفلا يعرف سادتنا القسس معنى النضال من أجل الخير العام ؟ أفلم يروا إذن باريس ، هذه المدينة الشنيعة ، حيث الشقاء والترف ، يتحدى أحدهما الآخر ويتصادمان ؟ .. لقد تزعزع إيمان أونوريه ، وكان قبل ذلك وطيداً . . ذلك أنه قد ساء غذاؤه ، واتسخت ثيابه . . وكان غنياً بالمطالعة ، فقيراً بالتجاريب ، متشككا فى أعز معتقداته وأمانيه ! . . .

وظلت غرفته ، خلال شهور ، هدفاً للشمس والتراب ، فأفسدا كل ما فيها ،

فاسودت الحيطان، واصفرت الكتب، وأوحلت الأرضية، ولطخت المنضدة، وانتثرت بقع الحبر فى كل مكان، وامتلأت أدراجه بقمصان وفانلات، تكدست فى انتظار غسّالة لم تحضر قط، واختلطت عشرة أزواج من الجوارب وامتلأت بالخروق، وتكورت مناديله كما لو كان قد مسح بها سقفاً. وأخيراً، لم يعد غير الليل يلقى سدوله فيخفى بؤس هذا الجحر. ولكن أونوريه كان شقياً بائساً بجحره. وكان روحه مظلماً كسلم البيت.. وربما كان يكفى لإضاءته أن يعلم بزيارة أبيه لبواب البيت.. ولكنه لم يعلم.. فمنذ وقت الفرقة بينهما حرم المسيو بلزاك على نفسه وعلى أهله ذكر أونوريه. وكان قلبه يفيض حناناً على ولده الغائب، ولكن كبرياءه كانت تحول بينه وبين إظهار هذا الضعف. فحدث يوماً، إذ مرّ بباريس، أن جاء شارع «لديجيير»، كما لو كان غريباً، يسأل البواب وزوجه، فوجد الرجل أبله أبكم، ووجد زوجته ثرثارة: «آه ياسيدى!.. إنه ولد مستقيم، أشبه بالبنت! فهو خجول، لايفكر فى غير أن يختبىء ويكتب!.. يكتب ماذا؟ الله أعلم!.. ولا نعرف عن أسرته شيئاً، ولكن عندى أن أباه رجل معتوه، بلا شك».. فقال: «ولماذا تحكمين على أبيه بالعته؟» قالت: «ذلك أنه يترك ولده هكذا فى سجنه الاختيارى، ولا يسأل عنه!.. إن هناك قتلة ليسوا أشد منه حبساً!»

وعاد المسيو بلزاك يفكر فى ولده، ويقول: «إن هذا الصغير، وقد حكم على نفسه بحياة موحشة كهذه، خاضع، بغير شك، لاستعداد شديد القوى. فلماذا لاأتغلب على نزعة الكرامة المزعومة، وأصعد الطبقات الست لأعانق صغيرى؟»

وجاءته لور بعد العشاء فى ذلك اليوم نفسه تبشره بأن أونوريه قد أنبأها فى رسالة منه بأنه أتم مأساة تمثيلية شعرية.. فتهلل الأب لهذا النبأ.. وطلب لبنته أن تدعوه ليجىء فيقرأ لهم روايته. فبعثت إليه فى الصباح التالى رسالة حارة هاتفة، لا يقدر على كتابتها إلا الأخت الحنون. فاغرورقت عيناه لدى

قراءتها ، وأجاب : « إنى قادم ! » وبعد خمسة عشر يوماً ، وصل ، يوم أحد ، إلى ڤيلباريزيس . وكان منفعلا ، ولم يك سعيداً . .

آخر أبريل ١٨٢٠ . ريح شمالية ، عاتية ، تهز أشجار الفاكهة المزدهرة ، وما يزال الريف كئيباً ، رغم تلك الزينة البيضاء الوردية . . حزينة ، تلك الطرق الواسعة المرصوفة ، المغروسة بالأشجار القاتمة . . حزينة ، تلك البرّية المصبوغة بلون الطين . . حزينة ، تلك القرية ، بمبانيها الكبيرة ، المسطحة ، المصفوفة . . حزينة ، دار بلزاك ، بين حوش لا معنى له ، وبستان لاطابع له . . وحزين ، ولا ريب ، ذلك الاستقبال المعد له ؟ . . لا ، لقد كان الاستقبال حاراً ، كريماً ، مؤثراً . . قبلته لور ، ولورانس . . وربتتا عليه ، وعانقتاه . . وقالت الأولى منهما :

— إننى أدخر لك مفاجأة لم أرد أن أكتب إليك بها . . ذلك أننى يا أخى الكبير مخطوبة ! . .

وتقدمت إليه أمه ، وقبل أن تضع على خده قبلتين صاحت : « أواه ياولدى ! . لشد ما نحفت وذبلت ! . . ولا بد من أن نعيد بناءك ! . . صباح الخير يا أونوريه ! . » وها هوذا مسيو بلزاك يسأله : « ماوراءك من أخبار السياسة ؟. ماذا يقولون فى باريس ؟ . . وهل هم مرتاحون إلى الدوق دى ريشليو ؟ » .

ويدخل المسيو سرڤيل ، خطيب لور ، وهو مهندس بالطرق والكبارى ، فيقدمان لبعضهما . ويعم الفرح . ويجلس الجميع إلى المائدة . . الغداء شهى : بط وحشى ، ونبيذ ڤوڤراى الأبيض ، لم يكد يشرب منه أونوريه ثلاث كئوس حتى دفئ قلبه ، وطاب حديثه . . وأخواته شائقات . . وخيل لأونوريه أن أباه قد صب لحماته نبيذاً قبل أن تسأل شراباً ! . .

وطلعت الشمس ، وشربوا القهوة ، ودقوا ثلاث دقات ، كعلامة المسرح ، منصتين إلى « كرومويل . . بقلم أونوريه بلزاك » ! . . وبدأ فتانا يقرأ . . ولكن الثمار الموعودة ، وياللأسف ، لم تكن بعد قد نضجت . حتى جو المحبة ،

والمرح، والطعام اللذيذ، والشراب الزكى، والرضا، والصفاء الشامل، حتى هذا كله لم يحل دون فتور الجو من حول أونوريه، وسقوط ملحمته عند بيتها الثلاثين. واضطرب لدى ذلك صوته وانخفض.. فلماذا ؟.. إنه هو نفسه قد فقد فجأة إيمانه!.. إنها إذن قصة رديئة، ولا ريب!.. فشعر بجناحه يهاض، وانقطعت أنفاسه، واحمر وجهه!. وقال غاصاً بريقه: « إنها لم تخلق للقراءة.. بل للتمثيل ».

ثم بعد صفحتين قال: « لعلى أحسن صنعاً بإعطائكم إياها لتقرأوها على مهل ».

ثم بعد صفحة أخرى: « إنى لا أريد أن أحول بينكم وبين التنزه ».

وساد الجميع الخجل. وأرادت أخته لور أن تحمله على المضى فى القراءة، ورجاه خطيبها، فأبى.. وأصر على الخروج.. فخرجوا.. وكان بلزاك وزوجه لا يستطيعان الحكم صراحة على القصة، فاكتفى الأب بأن قال ممتعضاً: « هل الملحمة كلها من قافية واحدة ؟ ».. فأجابه أونوريه محزوناً: « نعم يا أبت! »

ولما خرجوا إلى الحديقة، كان صوت خفى لا ينفك يقول لأونوريه: « أسأت.. أسأت يا صديقى.. أسأت حقاً »..

وطفقت البنات يتكلمن فى الزواج القادم: ثياب وحلوى، وأكاليل كنسية.. وكان أونوريه يصغى، ولا يسمع. وأصبح « كرومويل » نسياً منسياً.

رباه!.. إن أحداً فى الأسرة لن يعود فيذكر ذلك قط!. ورأى اليوم الذى كان يحلم به منذ خمسة عشر شهراً ينهار!.. وإنه لانهيار مروع.. ولو كان فى مكانه شخص آخر لبحث عن أسباب للحقد والاتهام. أما هو فإن خيبته قد جعلته يشعر بالحقيقة الجارحة، ويتقبلها.. وكان من الأمانة بحيث لا يتهم سوى نفسه.. وعلى ذلك، بينما كانوا يجتازون حديقة القسيس الصغيرة، تحت شمس الربيع الباكرة، ظل هو فى المؤخرة، شاعراً بالضعة، معترفاً لنفسه، فى شجاعة، بأنه قد أراد أن يعمل عملاً عظيما، فخاب فأله، وطاش سهمه...



٣

تزوجت لور ورحلت ، وحل الهدوء محل الضجيج . واعتكف أونوريه فى غرفته يستعرض ماله وما عليه . فرأى مما له : حسن استقبال أسرته الذى لاينكر ، وعطف المسيو سرڤيل ، زوج أخته ، الذى حمل « مأساة كرومويل » إلى أحد أساتذته الجامعيين ، وإن كان الحكم عليها قدجاء قاسياً . وجعلت الأم تقضى ثلاث ساعات فى اليوم فى نسخ الدرامة ، لتحمل صورة منها إلى صديق للأسرة له علاقات وثيقة بالكوميدى فرانسيز . . زد على هذا رغد الحياة المادية فى ڤيلباريزيس : فالفراش وثير ، والطعام شهى ، والثياب نظيفة . وكذلك انتفع أونوريه بجو الربيع ، وتفتح الزهر ، وتغريد الطير . . هذا من ناحية الأرباح .. أما من ناحية الخسائر ، فقد رأى مما عليه : اضطراره إلى البعد عن باريس منذ ثلاثة أسابيع . ولم يكن يأسف على غرفة السطح ، ذلك القبر الجوى ، وإنما على الشوارع ، لاسيما فى المساء ، عند مايضفى عليها الظلام سره ، ويصطبغ المارة ، أغنياء كانوا أم فقراء ، بألوان الشعر والخيال . . . وخيل إليه أنه كان سيجنى من ملاحظتهم معلومات مجدية . ثم مقبرة پيرلاشيز ! إن ما هو مكتوب على أضرحتها أشد

حزناً من الموت . . بيد أنها جميلة ، تلك المقبرة ، التى يشرف منها المرء على المدينة ، فيحس برغبة غريبة ، وقد وضع قدميه على رفات الموتى ، وأطل على مساكن ثمانمئة ألف من الأحياء ، يحس بأنه لا يريد أن يموت قبل أن يحيا حياة أجدى وأمجد من حياة الآخرين . . أما فى ضاحية ڤيلباريزيس ، فالحياة خامدة خاملة ، والأرض تخرج ثمراتها فى بطء ، حتى الحيوانات إذا كانت جميلة تكون حزينة !

ماذا فى طوقه الآن ؟ إنه أمام أمرين لا ثالث لهما : إما أن يكتب أيضاً للكتابة ، وإما أن ينتظر حتى يعيش . . ولكن يعيش . . كيف ؟ . إنه لم يعد يستطيع العيش بغير كتابة . ولقد قال للدكتور « ناكار » ، طبيب الأسرة المكلف من أهله بأن يجد « شيئاً ما لأونوريه » :

ـــ يا دكتور ، إننى لن أقبل شيئاً ! أقسم لك على ذلك برأسك ، ورأسى ، وبالعلم ، وبالأدب ! . . إننى لا أريد ، بأى ثمن كان ، ذلك الشىء الممقوت الذى يسمونه « وظيفة » . . إننى لست ، ولن أكون أبداً ، حصاناً يعلق فى عربة !..

وهكذا حكم على نفسه بنفسه بأن يستأنف امتشاق القلم . فكل الناس فى البلد يعملون . وما دام هو لا يريد أن يربى الدجاج ، ولا أن يفلح الأرض ، فلا مندوحة له عن الانكباب على مؤلف جديد . . وخطرت له القصة ، فالقصص الآن ذائعة يتداولها الناس ، ولا سيما ترجمة روايات ولتر سكوت . . وقد حاول أن يحمل أباه على قراءة ما يكتب ، من دون طائل ، لأن المسيو بلزاك قال له :

ـــ إن القصة هى أفيون شعوب الغرب .

وقال له فيما بينه وبينه :

ـــ إن القصص تطيب للنساء . . . اللواتى ربما كن فى حاجة إليها ! . . أما أننى لو كنت مكانك لوضعت كتاباً عن الزواج ، لا قصة ، بل كتاب تجربة ! . .

ـــ ولكن يا أبت ليست لى فى هذا تجارب !

ـــ أحقا ؟ . . وهل ليست لأجدادك تجارب تنفعك ؟ . . وماذا فعلت

إذن بالوراثة ؟ . . استمع إليهم . . إلى أسلافك ! . . لو أنك أرهفت أذنك إليهم ليلا لسمعتهم يخاطبونك فى صميمك قائلين : إن المرأة أشبه بالبرغوث ، تقفز ولا تستقر على قرار . . ولا سبيل إلى فهمها أو إدراكها ، فلا بد من أحد أمرين : إما أن ندوسها ، أو ندعها تلتهمنا ! . .

ثم ضحك من قلب خلى . . ففكر أونوريه فى شذوذ حياة أهله ، من أمه المتمرمرة ، إلى جدته الشرسة ، إلى أبيه البطاش . . ذلك الأب الذى فاجأه أونوريه يوماً وهو يطارد صبية من صبايا الحقل . . ثم فى تلك النظرية الكبرى ، نظرية المرأة التى يقف أمامها الرجال عاجزين ، وهم يزعمون أنفسهم أقوياء قادرين . .

خليلة ؟ ! يا للكلمة الأخاذة ! . . أتكون له يوماً ما خليلة ؟ أيستحق يوماً امرأة جميلة جديرة بأن يعبدها قلبه الكريم ؟ : « أواه ! . . أليست فى هذه الدنيا كلها امرأة لى ؟ » . وتذكر وجوهاً جميلة ، قد أحبها فى فصول السوربون ، وقامات رشيقة ، فى المسارح ، لفتته ، وفتنته ، واستهوته . . باريس ، باريس دائماً ! . . إنها باريس التى يرجو أن يقدر له الحب فيها ، ما دامت تنضم على كل ما هو جميل ، وخليق بالحب ! . . ولكن الأيام تمضى ، ويكتمل عام ، لم يعد خلاله إلى مدينة أحلامه ، إلا لماماً ، ليبتاع كتباً ، وليجدد صلاته بشبان التحقوا بالصحف ، وعاد منها حاملا الرجاء فى الحب ، دون الحب .

ثم حدث فى أوائل يونيه ١٨٢١ أن تعرفت مدام بلزاك بسيدة من جيرانها تدعى : «مدام لور دى برنى » ، وأعلنت أنها دعتها هى وزوجها وبنتيها الكبيرتين « فتاتين فاتنتين » لتناول الشاى يوم الأحد القادم . . . فتضايق أونوريه ، بلا موجب ، إذ زعم أن أمه أرادت لفت نظره إلى « فتنة » تينك الفتاتين ، ونوه بأنه : فى اليوم الموعود سيذهب ليتنزه ، وأنه لا يحب الفتيات ، فكلهن تافهات - (فقالت أخته لورانس : « شكراً » ! . .) - فضلا عن أنهما كريمتا قاض ، وهو لايطيق الموظفين - (فقال أبوه : « شكراً » ! .) - وقالت أمه : « ولكن

هناك الأم ، وهى جد شائقة ! » . . فسألها أونوريه : « وما عمرها ؟ » . فقالت : « إنها تكبرنى بثلاث سنوات » . . فقال أونوريه : « إذن أى حديث تريدين أن يجرى بينى وبينها ؟ » . . فقالت أمه : « شكراً ! » . .

وفى الساعة الثانية من مساء ١١ يونيه ، كان أونوريه يتثاءب فى الصالون ، بين أهله ، فى انتظار أسرة برنى ، اختياراً لا اضطراراً . . فإن أحداً لم يرغمه على البقاء ، ولكنه بقى ، متظاهرا بعدم الاكتراث . . معتزماً ألا يتحدث إلى الرجال ، إلا قليلا ، مهملا النساء ، لأنهن إما فوق السن التى تروق له ، أو دونها . . ناشئات فى جو ضاحية ڤيلباريزيس ، الذى لا يطيب له . . على أنه لم يلبث أن رأى فجأة ثلاثة أثواب بيضاء ، نقية ، ناصعة ، جميلة ، ساحرة ، مثيرة . . ورأى الأعين الصافية ، والثغور النضرة . . ورأى الأم ، التى كانت أسمن قليلا من بنتيها ، تبدو كأخت لها . . وكانت بسيطة ، طيبة ، لطيفة ، تفيض مشاعرها رقة وإحساساً ! . . وكم كانت شديدة التأثر وهى تعلن للحاضرين نبأ مؤلماً عرفه زوجها : « إن الأمبراطور قد مات منذ شهر فى جزيرة سانت هيلانه ! » .

مات ! . نابليون ! . أعظم العظماء ؟ ! . يا إلهى ! . . متى ؟ . . كيف ؟ . .

واقترب أونوريه منها ، وبادرها بعشرين سؤالا . . ثم هاهو ذا قد أحس بقلبه يشق . ويهنأ ، لأنه اكتشف امرأة بدت له رائعة الحسن ، وأنه من فمها الفيّاض بالطيبة والرحمة قد عرف الخاتمة القاسية للرجل الذى يحوز من دون الرجال جميعاً ، على مدى العصور ، أشد إعجابه .

— آه يا سيدتى ! . . أنت أيضاً تحبينه . . أليس كذلك ؟

— من ذا الفرنسى الصميم يا سيدى الذى لا يحبه ؟

ما أحسن نطقها بهذا القول الجميل ! . . وما أجمل ثغرها إذ يبتدر منه اللفظ كأنه شهد ، وكله حنان ، وكله شفقة ! . وما أثبت نظرتها المطمئنة ! . وما أبدع خصرها فى ذلك الحزام الحريرى المنسجمة زرقته مع زرقة عينيها ! . .

— سيدتي ... قولي لنا كل التفاصيل التي وقفت عليها .. أأوصى بأن يدفن على ضفاف السين ! .. وهل كان برتران ومونتلون معه ؟ وماذا قال وهو يقضي نحبه ؟

ونسي أونوريه الزوج ، والفتاتين ، وأهله .. وحاصرها ، وجعلها تتكلم ، وراح ينظر إليها ، ويصغي .. وراح هو نفسه يتكلم ، والنار تتلظى في فؤاده ، ويتطاير شررها ! إن روحه قد أصبحت قبساً من نور ، أو شعلة من نار ! . فكان مدهشاً ! .. لقد أدهشها ! .. فراحت تصغي إليه ، وتحلم ، بغتة ، إزاء هذا الفتى الذي في العشرين ، الذي يحب ، بكل هذه الحرارة ، وكل هذا الشوق ، عظماء الرجال .. والنساء بلاشك ! .. فأخذت ، واضطربت .. ولكنها كانت أشد منه حيطة ، فالتفتت نحو مدام بلزاك تروي ذكرياتها عن موت لويس السادس عشر ، مليكها المعزز ، وقصت متأثرة : كيف أن جلاده كان يضع قبعته على رأسه وهو يعدم الملك ، ثم ألقى بسترته الجميلة إلى الشعب ، فمزقتها ألوف الأيدي ! .. وكان هذا يكفي أونوريه بلزاك ليدرك : أية امرأة هي ، فهي نبيلة . وتاريخها مجيد ، ما دامت أعظم الأسماء قد امتزجت بحياتها . وهي تمثل عهد الملكية العاثرة الخليقة بالإشفاق . دع أنها تسكن ، في أقصى الضاحية ، قصراً يمثل خير ما في العهد القديم . أو ليست هي نفسها ، بما طبعت عليه من رقة ودمائة ، قديرة على أن تحيي آية الشعر في موات القلوب ؟ .. ولقد يبدو أنها تعذبت . إنها لاريب غير سعيدة . ولا يلوح على زوجها التألق .. فلعلها لم تحب قط .. أتراها تنتظر الحب ؟!

وما كاد يتساءل عن هذا ، حتى غمره الخجل ، وتباعد ، وتحدث إلى الفتاتين .. ولكنه لم يكد يبعد عنها ، حتى استرد إرادته ، وبعث إليها من روحه ، ووجه لأول مرة في حياته قوى الجاذبية التي كان يؤمن منذ صباه بأنها فيه .. آه ! لقد نظرت إليه ! .. ثم نظرت .. ثم نظرت ! .. فلم يعد يتمالك . فاتجه إليها : يحدثها ، وينصت إليها ، ويحكم من كل كلمة تفوه بها بأنها امرأة شائقة ، لا تنطق إلا عن

النبالة . . وها هو ذا يحس أن القدر يقوده ، بله العناية . . أجل . إنها إرادة الله تهيمن علينا ، و تنظم حياتنا ، وتهيء لكل امرىء سبيله ، وليس لنا إزاءها من حيلة !.

وإذا كان أونوريه يفنى منذ عام فى ڤيلباريزيس ، فليس ذلك ليخمد ، وينام ، وينتهى . . وإنما ليحب ! . . وها هى ذى امرأة أحلامه ، فى ريعان الشباب ، رغم عمرها . . ما عمرها ؟ . إنه الآن يسخر من السن ! فهى موهوبة من كل جانب : من الطبيعة ، ومن المجتمع . إنها هى التى يبحث عنها ، وهى التى سيكرس لها حياته ، حياة فروسية ، ملؤها : الشجاعة ، والإقدام !

ولم يكن لديه أية حجة إطلاقاً للذهاب فى اليوم التالى إلى بيتها ، ومع ذلك ذهب . قال إنه كان يتنزه ، فمر صدفة بالبيت . . فدخل ! . . فصاحت :

ــ أوه ! . . إن زوجى سيأسف . . لأنه فى باريس .

فانتعش وأشرق . ثم دخل ثلاثة أطفال ، فعبس . . ثم جلس .. وقال متنهداً :

ــ آه ! . . يا سيدتى ، لا شك فى أن زوجك وبناتك يحبونك الحب كله ! لقد بدأ عهد التنهدات .

وكانت مدام دى برنى ، بادىء ذى بدء ، دمثة ، متلطفة ، ولكن شديدة الاعتزاز بالكرامة ، متحفظة ، متظاهرة بعدم إدراك ما به ! . . وبدلا من أن تتصابى ابتدرته بالحديث عن أولادها الكبار ، وعن بنتها المتزوجة ، وعن زوج بنتها.. وخاطبت أونوريه بلهجة أموية . . . وكان لذلك خطره ! . . فإن أونوريه لم يحس قط عطف أمه عليه ، وكان يختنق بالحاجة إلى من يبثه نجواه . فحدثها بصوت متهدج عن الشباب الممتلىء بالرغبات ، عن الحياة المفتقرة إلى الحرارة ، عن المجتمع الذى ينكر قواه الفياضة . وبدا تأثره لإصغائها إليه . وكان قبل قدومه قد أعد جملا وعبارات : « إن كل ما تفوهين به يا سيدتى له عندى وزنه !.. إن أصغر لفظ منك له رنينه فى قلبى ! » . . ولكنه اضطرب ، وأرتج عليه ، ولاحظ فى خديها ، ونحرها ، تلك البشرة الحريرية الناعمة . وكانت فى ثوب من

الكشمير الأبيض ، ذى رسوم فارسية ، ودّ لو لمسه بأصبعه ، أو ربت عليه بيده . . وكانت فيه رائعة فتانة ، تتلألأ بهجة وهناء . .

ثم مضى وهو أشق ما يكون بالعود إلى بيته .

وبعد أربع وعشرين ساعة حمل إليها كتباً . ثم عاد بعد ذلك ليسترد الكتب . واقترح أن يعطى دروساً لأصغر أبنائها . وكان يجىء غالباً فى الصباح ، ماشياً فى ندى المروج . فيفاجئها فى غرفتها ، وقد وضعت على رأسها قلنسوة (بونيه) من الموسلين ذات خلايا ، زادتها « غندرة » ودلالا . . .

وبدأ الخدم يتهامسون . . وكانوا يرونه فى المساء قادماً بخطوته السريعة المضطربة ، فى الساعة التى تشتد فيها بالمرضى الحمى ، وتبدأ فيها قلوب العاشقين بالخفقان وتضليل العقول . . وكان قد أتم قراءة « روسو » . فتأجج حيوية وحرارة واندفاعاً . .

واضطرت أخيراً إلى أن تقول له بصوت مرتجف متأثر :

ـــ يا صديقى ، رجاءً ! . . أتقدر الأمر ؟ !

ـــ أمر ماذا . . يا إلهى ؟

ـــ لم يعد فى وسعى ، بعد ، أن أدعك تجىء هكذا . .

ـــ أنا ؟ . . وماذا فعلت ؟

ـــ أيها الطفل ! . . سبحان الله ! . . إننى امرأة . . وأنت رجل . . .

فلشد ما ألهبته هذه الكلمات ! وكأنها قد اختارتها اختياراً . . . والحق أنه ليس غير الله تعالى يرى ما يجرى فى قلوب البشر ، حينما يطلق عليها الحب سحبه ، ويقلب فيها كل شىء رأساً على عقب ! . . لعلها كانت تفكر مخلصة فى الذود عن نفسها ، ولكنها انقادت إلى حنانها ، إزاء هذا الطبع الصريح الكريم المستسلم . . فأرادت أن تحذّره ، فكشفت عن سر اضطرابها ، واعترفت بذات ضعفها . . وإن مجرد لفتها نظره إلى الخطر لكفيل بأن يجعله يتذوقه ويتمناه . .

ثم . . . يالعينى° هذه المرأة ! . . عينان شاحبتان ، لا يلبث انفعالها أن يصبغهما بالذهب ! . . وهذا الصوت ! . . إن أنفاس روحها تمر فيه ! . . ثم ما السبب ؟ . . نعم ما السبب فى أنها ، عند ما أراد فى ذلك اليوم الانصراف ، قد أخذت يده لتضعها على قلبها ؟ ! . . يالله ! . . لقد أحس بحنان صدرها ! . . وخرج كالنار الآكلة ، لا تسعه الدنيا . . وتسمعه الكائنات من أعشاب وأحجار يردد : « أنت ! . . أنت ! . . يا حبيبتى ! . . . »

ومن ذلك الحين أراد أن تَشغل كل حياته . فسألها لقاء فى الحقول والغابات . . وتحدث بحرارة وإصرار عن الصداقة ، الصداقة النقية ، البريئة ، الطاهرة ، وعن تآلف الأرواح . . وكان ذلك لديها برهان وجوب التسليم .

وفى الواقع أنهما ، كليهما ، كانا لا يدريان إلى أين المسير ، أو المصير . . .

ولما أرهقته إلى حد اليأس برفض معقول ، صاح :

— حسناً ! . . إذن لم يبق أمامى إلا الرحيل إلى الهند أو أمريكا ! . .

ولكنه ببقائه كان يجهل ما سوف يحصل . وكان ذلك أشد ما أثر فيهما . ولم يكن لديه عن النساء أية فكرة . ولم يكن واثقاً مطلقاً من أنها ستصير له خليلة . وكان أشد ما يكون شوقاً إلى ذلك . بيد أنه لم يكن يظن أن هذا يتوقف عليه وحده . فقد كانت لها حقوقها على نفسها ، وكانت لها الكلمة الأخيرة . فإذا لم تكن الكلمة كما يشتهى ، إنه إذن سيمضى على رأسه ضالا يائساً . وكان شبابه الباكر لا يحمله على إقناعها ، بقدر ما كان يجعله يتأوه أمامها ، ويتألم : « إنى أسألك أن ترحمى قليلا وتتبسطى . . بعضَ الإبانة عن السرائر ! . . فإنى أقول لك كل شىء . . أنا . . فقولى لى شيئاً . . أنت ! » ثم يفاجئها : « أعلم جيداً بأنك لست سعيدة . . فاسمعى ! . . إنى أمقت زوجك ! » . . ولم تكن ترد عليه قط رداً مباشراً . . كانت تهدئه : « ما دمت تظهر نحوى كل هذا الود ، فاعمل من أجلى . . اكتب لى كتاباً جميلا ! »

وفى اليوم التالى بعث إليها بخطاب ، سوّده وبيضه عشر مرات ، وضمنه أشعاراً ساذجة . . يحن لها فؤادها . .

وكان أحيانا يدخل عندها وقد تكبر وتجبر :

— سلاماً سيدتى ! . إنه الشاعر الفرنسى ، والكاتب الشعبي «أونوريه بلزاك» !

وكانت مرغمة على أن تلقى ماء على ناره ، وتحتاط من سعاره :

— أتعرف أنى أصبحت أخشى بناتى ؟ . أظن أنهن يرتبن فى شىء . . .

— فيم الارتياب إذن ؟ ياله من خبر ! . . إذن فهناك شىء بيننا ؟ ! . . بالله قولى . . أى شىء هو ؟ !

وبعد ما زمجر هكذا ظل مكتئباً . . فحاولت أن تغير مجرى الحديث ، وإن كانت تعلم استحالة الكلام بعد ذلك فى شىء ما . . فعرضت لزواج أخته الصغرى لورانس ، وأنها رأت أم خطيبها : امرأة نارية ! . . فبدلا من أن يضحك أونوريه سخط قائلا :

— الزواج له ما له وعليه ما عليه . . وليس الذين يلتقون فيه دائماً بالذين كان ينبغى أن يلتقوا . . خذينا نحن مثلا . . أفلم يكن . . .

فتأخذ بيده قائلة : « أيها المجنون الكبير ! » . .

فيتضايق ، ويشتد ، وينفعل : « آه لو كنت امرأة ! . . ولو كنت أدعى لور ! . . » . فتقول : « أرجوك أن تدعونى باسمى ! »

— هذا ما أفعله ! . لور . . لور دى برنى . . . إذن لكان مسلكى يكون شيئاً آخر . . والآن وداعاً . هذه آخر مرة أراك فيها ، لأننى أموت من رؤيتك . . لم أعد أستطيع أن أراك . . إننى لا أكاد أتمالك من أن أقول لك أشياء جنونية ! . . وأن أخاطبك بلا كلفة . . أوّاه منك ! . .

— أونوريه . . إليك عنى . . ابتعد ! .

— كلا ! إنى باق ! . . وإنى سأعود ! . . إنك أنت حياتى ! وإنى لأحس

القدرة على عمل أشياء عظيمة من أجلك . . يا لور !

ـــ اجلس بربك !

ـــ لله ما أروع محاسنك ! ثلاثون عاماً ، لا أكثر ! كيف بالله يمكنك أن ترفضى قطف التفاحة التى أضاعت أبويك الأولين[1] ! . .

ـــ أأنت مخبول ! ماذا تقول ! . . اذهب عنى ! . إنك تخجلنى ! . . ياللجرأة ! . . إنك لم تحدثنى قط هكذا ! . . إنى لا أريد أن تأتى بعد الآن . . أسامع أنت . . . ولا تأت غداً على أى حال ، فلن أستقبلك غداً !

ـــ غداً سأذهب إلى باريس . . فتأتين إليها!

ـــ كلا !

ـــ سأنتظرك عند التياترو الفرنسى !

ـــ كلا ، مطلقاً ! إنك تميتنى من الخوف . . إن زوجى لا يلبث أن يدخل !

ـــ ياحبذا ! . . إنى أكرهه ! وسأقول له ذلك . . هاتى يدك . . .

ـــ دعنى ، سألتك بالله ! . . إن بناتى لا يلبثن أن يسمعنك ! . .

ـــ إنى أحب بناتك ! . . ولكنهن بحاجة إلى ظهير فى الحياة . وأنت تعلمين أننى سأكون ذلك الظهير والسند . . عند ما تصبحين لى ! . .

ـــ ماذا يقول ؟ ! ماذا أصابه ؟ !

ـــ إلى غد ! . . عند التياترو الفرنسى !

ـــ دعنى ! . .

ـــ لور . . يا حبيبتى لور . . أنت علوية ! وكما يقول روسو عن عشيقته العزيزة : « إن لك فماً على مقياس فمى ! . » . . .

ولقد قاومت مدام دى برنى الجنون أكثر مما قاومت مدام دى ڤارنس صاحبة چان چاك روسو . فليشهد لها الخلف بأنها جاهدت طويلا وقاومت هذا

---

(١) يقصد آدم وحواء وخروجهما من الجنة بعد أكل التفاحة المحرمة !

الحب المستعر ! غير أن الحب له قوانين ثلاثة : إما أن نمنح ونستسلم ، وإما أن نهرب من اليوم الأول ، وإما أن نموت به . . . وهذه المرأة كانت قد أضاعت حياتها . وكان يتضوّع منها إغراء خريف جميل . وأحست الزهو بعاشق كهذا فى ريق الشباب . فلتحكم عليها السماء وحدها ، فهذا شأنها ، وليس شأن الأرض وأهلها .

وأسلمت نفسها ، ذات مساء ، فى فصل الربيع ، بعد موعدين جنونيين ، فى حديقتها ، بعد وعود حارة متهورة ، بعد قبلات مسعورة مخبولة . . فى صيحة مدهشة : « إنى سعيدة . . إنى أعبدك ! . . والآن أستطيع أن أموت : فقد منحت أخيراً الهناء » ! . .

وسيكتب أونوريه فيما بعد ، هذه العبارة : « ليس مثل الحب الأخير لامرأة ، حب يرضى الرجل ويكفيه ، أول عهده بالحب ! . » . . .

وها أنت ذا ، يا أونوريه ، قد تلقيت ، فى ذلك المساء ، من لور دى برنى ، العهد الشائق بأن تكون لك ! . . وبعد أسبوع تحزم ثيابك وكتبك فى كيس سفر ، وتستقل عند الفجر عربة البريد إلى باريس ، ومنها إلى بلدة « بايو » ، حيث تسكن أختك المتزوجة ! . . وكان عذرك تافهاً : « العمل الكثير . . فقر الدم . . الحاجة إلى هواء النورماندى » . . .

ولو أن شؤون الحب تهم رجلا مثل مسيو بلزاك الوالد ، لساوره الشك عند ما رأى ، فى غياب ولده ، مدام دى برنى تمشى وحيدة ، شاحبة ، مستوحشة ، فى ثوب مهمل ، تبكى بدموع من دم ! . .

ولكن لعل هذا ما جعل العاطفة بعد ذلك يتأجج لهيبها ويزداد سعيرها . . فعاد أونوريه من « بايو » يتفزز صحة ، وصفاء ، وحرارة قلب ، كله للحب . . فهرع ، دون حيطة ، إلى بيتها . . فصاحت به دون موجدة عليه :

ـــ ماذا ؟ . . ماذا فعلت لك ؟ وماذا جرى ؟

فقبلها فى جبينها ، وفى شفتيها ، وفى صدرها العزيز ، وقبّل يديها وركبتيها :

ــ إننا عشيقان مدى الحياة !

فلم تعد بحاجة إلى تفسير لغيابه عنها وهجره إياها منذ أسبوع الحب الأول..

أما هو فلما بعد عنها فكر فيها ، ورأى أنه يملك خليلة فريدة ، تعبده عبادة . ولما عاد إليها زاد بذلك اقتناعاً . وأراد ـ اعترافاً بجميلها ـ أن يرقى ذروة المجد ، ليشكرها ويغمرها بالآلاء . ولا بد له من وضع كتاب جميل . وسوف يضعه . وقد أحس أنه الآن غنى غنى طائلا بالتأثرات والعواطف الجامحات ! . .

وإذا كانت هى شديدة الهوى ، فقد كان هواه هو بغير حساب . . .

ــ يا حبيبتى . . لو أنك مضيت فى مقاومة الهناء لربما قضيتِ فعلا من الحرمان ! . . أما أنا ، فلم أكن بعد قد عشت ! . . وقد رددت عن قلبى دائماً نزعاته الكريمة . حتى جئت أنت فأنقذتنى . والآن كل إرادتى مسخرة لعاطفتى . وقد نضجت ، وكبرت . وأريد أن أعمل عملا قيما . . فهل قرأت كتابى « كرومويل » ؟ . . وهل أحببته ؟

ــ لا ، لا أظن .. إنه أنت الذى أحب ! وأنت لست فى قصتك « كروموبل » .

ــ أنت ملك ! . . لقد وجدت الكلمة التى لم يعرف أحد كيف يقولها لى ! . . إننى لم أخلق لأضع مآسى تمثيلية ، وإنما روايات وقصصاً . سأكون « ولترسكوت » فرنسا . وإليك يرجع نجاح حياتى الأدبية . فقد بعت قصتى الأولى بثمانمئة فرنك (٣٢ جنيهاً) ، والثانية بألف وثلاثمئة . فهل تدرين كم بعت الثالثة ؟

ــ قل وأسرع !

ــ ألفان ! . .

ــ إنى أعبدك !

ــ ولا ألبث أن أعود من باريس رافع الرأس ، ممتلىء الوفاض ! . . لا يلبث ذلك الفتى أونوريه أن يصبح أعظم المؤلفين إنتاجاً وأشهرهم طراً ! . .

ثم هنأ نفسه بأنه لم يقبل أبداً « وظيفة » ! الوظيفة الصغيرة المروعة التى تقتل صاحبها ، فى ستة أشهر ، جسما وروحاً ! . . وكم من موتى على هذه الشاكلة يغص بهم المجتمع !

فوافقته مدام دى برنى ، وأبدت إعجابها به . ثم راحت تطمئنه من جهة بناتها وزوجها وخدمها ، لأن الأدوار قد انعكست ! . . قالت :

— لا ، لا ، لا أحد يشك أو يرتاب . . إنها مخيلتك التى تشتغل ! . . ثم . . إذا شك أحد ، فلابد من تجريده من سلاحه بما نظهره من ثبات واطمئنان . . فتعال متى شئت . ولا تفكر وأنت قادم إلا فىّ . . ولتطمئن قلباً ، ولتقرّ عيناً ! . .

وقد بذلت ما فى طاقتها لتبعد « العذال » ، وتمنع الشبهات ، وترد بعطف لاحد له على تلميحات مدام بلزاك ، التى أظهرت وقوفها على علاقة ابنها بمدام دى برنى . . ولكن هل هى نفسها امرأة متبتلة ، قانتة ، صالحة ؟ . . إن هنرى ـ شقيق أونوريه ـ لايشبه أباه عن قرب أو بعد . . دع أن الزواج فى ذلك العصر كان لايقوم إلا على المصلحة والمنفعة . .

وكأنى بمدام دى برنى فى نظرتها إلى مدام بلزاك تقول لها : « احكمى علىّ إذا شئت ، ولكن احكمى كذلك على نفسك ! » . .

ولم تكن أمه فى امتعاضها من هذه العلاقة إلا متمشية مع طبيعتها النفور ، تلك الطبيعة التى جعلتها تتشكك فى مقدرة أونوريه على الكتابة ، فى حين كانت مدام دى برنى تعيش به ، وتمنحه من روحها ، وهو الذى أحيا موات هذا الروح ، فكيف تضن عليه بالحب ؟ . . إنها الآن قد جعلته يحب فيها حتى ما فى جسمها من عيوب ! . . وهو أيضاً ، بعد ما هرب منها ، غداة عهد الغرام بينهما ، قد عاد يهيم بروحها النقية ، الوضاءة ، الفتية ، التى ليست فيها تجاعيد ، كتلك التجاعيد القليلة التى ارتسمت على جسدها الغض من أثر الأيام المضنية . وقد أحب فيها أونوريه حتى آثار هذا الضنى القدسى عنده ، فجثا أمامه : يتعبد ، ويتهجد ! . .

وكانت فعلا امرأة على سجيتها ، لا أثر للصنعة فيها أو التحذلق ، ولا النفعية ، لاتصغى لغير حساسيتها الرشيدة . . وكان عقلها نيراً ، فقادته ، وسددت خطاه ، وجعلته يتقبل الآيات من فمها الذى كان جميلا ، لاينطق إلا بالحق ، وكان الحق منه مقبولا . . كانت امرأة على طبيعتها الشائقة التى تجعلها تمزج له المديح الحار بالنقد الحنون :

ــ إنك أشبه ماتكون ببيضة النسر التى فقست تحت الإوز ! . . آه ! إنى أعرف أسرتك . . وأستثنى أباك . . أما أمك فلم تفهمك . . . فضلا عن أنها لا ترى قط نحائف الأشياء الرفيعة التى تكوّنك . . وهى منقوعة فى أنانيتها وكبريائها ونفورها ، ولو أسرفت فى هذا قليلا لقتلتك . . وأما أخواتك . . .

ــ لاتذكرى لور بالشر ! . .

ــ إنها بنت أمها ! . . وسوف ترى فى خلال عشرين عاماً ! . . وقصارى القول أن أسرتك قد مسختك . وقد جهلت مافيك من أنغام الخير ، تلك التى تنظم شعر الحياة الصميمة فى مجامع القلب . . وتكوّن عادات عريقة من اللياقة وأدب المجتمع . . فإذا سمحت لى ياحبيبى ، أنت يامن أحبه وأريده كاملا ، أظهرتك على أشياء صغيرة . . .

ــ آه ! . . رجاءً إليك ! . . أتوسل إليك ! . . إنكِ أنتِ أمى . . أماه ! . .

ولم يجرحه أى نقد من نقداتها . فقد كان يعوزه ذلك الصقل ، كان متعطشاً إليه ، ليجمل به حياته .

ورأى جلياً الفرق بين خليلته وبين أسرته . . هذه أمه ، التى مع ذلك يحبها وتحبه ، تنزل إلى باريس ، وتعود منها ببكرة خيط ! . . وهذا أبوه يغلق على نفسه غرفته ، فلا يُرى ، ولا يَرى ، ليلتهم تاريخ الصين فى ثلاثة عشر مجلداً ! . .

وهذه خليلته تثقفه وتعلمه كيف يكون هو نفسه ، على حقيقته ، وإنما من طراز رفيع :

ــ إن الرجل المتعلم لايختلف عن غير المتعلم إلا بفروق قد تكون طفيفة ، ولكنها جوهرية فى الحياة . انظر إلى امرأة من الطبقة الراقية فى مرقص . فهى معتادة ماحولها ، لا تشهد على محياها ذلك الفرح الساذج الذى تبديه بائعة أو مستخدمة يندر غشيانها الحفلات الكبرى . . وهذه توافه ، ولكنها لاتحول دون الهناء ، بل تكسبه رقة ، وتضفى عليه أناقة .

وهكذا كانت تصقله ، وتروضه ، وتلطف من حديثه ، وتغرس فيه الأفكار الرقيقة ، التى سوف تتنضر ، فيما بعد ، وتتحول زهوراً عجيبة . فأحس بالغنى الروحى الذى تغدقه عليه ، وعرف فضلها ، وشكر جميلها بزيادة التعلق بها . .

وحين يحس الظمأ إلى مثل أعلى ، تتحول هذه المرأة ، التى حرمت مدى أربعين عاماً من السعادة ، إلى متصوفة نقية :

ــ ياحبيبى الكبير ! إنى واثقة من أن علاقتنا قد نسجت على أيدى القديسين!

فيؤمن على كلامها ، وينظر إلى محياها بقداسة كما لو كان محرابه .

على أن الزمن هو القاتل الأعظم ، يبلى العواطف كما يبلى الأبدان . وكانت أسرة بلزاك قد عادت لتقضى عاماً فى باريس . . وهنالك ربطت أونوريه صلات ببعض الشبان النجباء ، وتعلق خاصة بأحدهم « توماسى » ، وكان من المتصوفين المتعلقين بالآخرة ، الباحثين عن إنسانية كاملة ، فكان لا يكف عن صرف بلزاك عن كتابة القصص ، دالا إياه بصوت محموم على خطورة الحياة ورهبتها ، وأن القلب لايخصب ويثمر إلا بالخلق والدين :

ــ صدقنى ، يا صديق العزيز ، صدقنى ! . . عد إلى إيمانك ! وأحبب معتقداتك ، وقوّها ، ودعمها تدعيما ، لأنها هى وحدها التى تكفل لك مستقبلا سامياً!

فأحس أونوريه ، وهو يسمع هذا الوعظ والإرشاد ، أنه يعود إلى أفكاره الصالحة ، التى كانت أثيرة عنده فى سنه الخامسة عشرة ، عندما كان يتردد على رغمه على مدرسة مسيولبيتر . فباح لمدام دى برنى بما يخالجه ، فسخرت منه ، لأنها

كانت من سلالة لويس السادس عشر ومارى أنطوانيت ، متحررة على مثالها من تعاليم الرهبنة ، ساخطة على ذلك المذهب الذى أراد التحكم فى الجامعة ، والاستبداد بدروس السوربون ، وجعل السيادة العليا للكنيسة كما كان فى القرون الوسطى ! وأضافت :

ــ ياللشناعة ! . . لشدما أشعر بالاشمئزاز من هؤلاء الناس ! . . سأذهب هذا المساء لأشهد رواية « طرطوف » (١) ، وسأصفق حتى أبلى قفازى ! . .

ــ إنى أدرك ما ترمين إليه ، ولكن الحريات تذهب بنا وتضيعنا . إن المجتمع بحاجة إلى إطار ، فلا بد لنا من نظام ، وقادة ، ودرجات . . . وليست المسألة مسألة أذواق شخصية وأهواء . . بل إن هذه ينبغى تضحيتها لننظر إلى أبعد ، وننظر إلى أعلى .

ونشر فى هذا الرأى ، سراً ، كتيباً لم يوقعه باسمه . وهكذا لم تعد خليلته العزيزة الحاكمة عليه بأمرها ، المستبدة بعقله على هواها . إن خلافاً واحداً قد يجرح الهناءة . إنها عاصفة القلب تهب ، كما فى الجو الصحو عندما تنذر بانقلابه سحابة سوداء . .

ولما عادت أسرة بلزاك إلى ڤيلباريزيس ، استأجر أونوريه غرفة على خطوتين من حديقة اللكسمبورج فى ركن شارع « تورنون » . . وكانت مدام دى برنى الحنون تجىء ، مااستطاعت ، من قريتها ، فى مركبة صغيرة ، لتراه ، و « تعطيه الحب » ، كما كانت تقول وهى تدلله بنظراتها . .

وكان ما زال سعيداً إلى حد الهوس باستقبالها وسماعها تحدثه عن كفايته ومستقبله حديثاً جذاباً ، غير أنه كان يتألم من حقارة غرفته ، ومن عجزه عن أخذها فى مركبة إلى التياترو ، وأنه لا يستطيع أن ينفق عليها مائتى فرنك فى ليلة . . واأسفا ! . . إن الكتب التى نشرها لم تنجح ! . . لم ينجح أى من كتبه

---

(١) هى قصة موليير الخالدة التى ترجمها صاحب هذا الكتاب منذ بضع سنوات إلى العربية بطلب من وزارة المعارف العمومية التى نشرتها وقررتها لمدارسها ، ثم أخرجتها الفرقة القومية .

الثلاثة الأخيرة ، ولم تحمل إليه مالا ، وقد كان يؤكد أنه من دون المال لاهناء ولا حباً مقيما . وهكذا كان إذا ما رآها : آية فى الجمال ، والفتنة ، تتلألأ فى ثيابها ذات الذوق السليم ، ثم رأى نفسه فى بنطلون من الخاكى الأصفر وصديرية قصيرة جداً . . حاول عبثاً أن يوهم النفس بأن هذا كله نافلة . فقد نظر إلى المرآة وظل شقياً . . وهو شقاء فهمته ، وابتسمت منه ، وحاولت أن تعزيه ، وحملت إليه يوماً بنطلوناً أبيض أنيقاً من الباليه رويال . . فاحمر وجهه ، لاندرى أمن خجلٍ أم غبطة ؟ . . وبعد أن توسلت إليه ، لبسه ، وخرج معها . ولكنهما ، بعد عشرين خطوة ، قابلا شابين أنيقين ، فقال ساخطاً :

ـــ كيف يفعلون لتكون قمصانهم بهذا البياض الناصع ؟ !

ـــ ياعزيزى المسكين ، أونوريه الحبيب ، المتوحش ، العجيب ! . . ولماذا لا تسرح شعرك وتضفره ، أنت أيضا ، كهؤلاء الشبان ؟ . . إنك إذن تكون خلقاً شاذا ! . .

ثم وجهته نحو مصيره وغايته : أن يبلغ ذروة المجد بالكتب الجميلة :

ـــ إنك فذ لا شريك لك ! . . إنك تعرف أشياء لا يدرى أحد أين ومتى عرفتها ! . . فاعمل ! . اعمل ! . ولا تخش شيئاً . . إنك ستصبح أعظم أبناء جيلك !

وتتوالى الأحاديث المعسولة بغرفة شارع دى تورنون بعد القبلات الهائمة :

ـــ إذا أعطانى الله عمراً ، وإذا ظللت أنت أيتها المرأة الشائقة تؤيديننى بروح من حبك ، فإنى حقاً سأفعل ما ذكرت ، وأصور للدنيا الإنسان ألواناً فى عاداته ونفسه ، كما يفسره العالم بعرض القوانين الطبيعية وترتيب الأنواع الحيوانية ! .

وما كان أبدعه متكلما إذ ذاك ، بوجهه الذى كان لايزال نحيلا ، وإن كانت وجنتاه بلون الدم ، وشعره الأسود الغزير الملقى إلى الخلف ، كما لو كانت ريح العبقرية قد نفخت فيه . . فقالت متحمسة :

ـــ ما أجل ما تنطق به ، كأنه وحى يوحى ! . . وبرغم بنطلونك المصنوع من

قطن أصفر ، وقميصك البفتة ، وحذائك الضخم ، فإنى أعبدك ، ياحبيبى أونوريه !..
وإنى أحزر ما تريد أن تعمل . وسوف تشغل المرأة فى عملك مكاناً لاحد له ، مكاناً علياً ! . وستكون أعظم من ولترسكوت الذى تتشابه بطلاته جميعاً فى أداء الواجب ، دون الهوى !.. مسكينات !.. يا للنفاق !.. ونحن نعانى مثل هذا فى فرنسا . (أتعرف أنى أمس صفقت لرواية طرطوف ؟) . وفى وسعك أن ترسم لوحة لكل تاريخنا .. دراسة أخلاق ، كما تقول ، ودراسة نساء ، جيلا بعد جيل !

وهو فى هذه المرة يجدها قد أوحت إليه بآية مستقبله الفكرى .. فيمجدها.. فتقبله قبلات مجنونة ، ألواناً ، وأشكالا : « إنك تعرف المرأة .. والفضل لحبيبتك لور .. ولعلك ستكون عظيما على يدى .. من يدرى ؟ ! » .. فيقول : « سأكون عظيماً من أجلك .. أتريدين ؟ ... »

وجْدٌ ، وولع .. ولكن أونوريه ما زال ضيق الصدر ، فارغ الصبر .. لا مجد ولا مال ! .. لا شىء غير ذلك المطعم الصغير عند « الأم چيرار » حيث يتناول وجبة البطاطس التى لا تتغير .. فيحس اليأس والقنوط ، هو الذى بدأ حياته بوضع كتاب « فى الإرادة » .. وينظر من بعيد إلى قصر أعضاء مجلس فرنسا الأعلى ، ويتساءل : « أفلا يكون استعدادى سياسياً ؟ » .. ثم يجول فى الصحف الصغيرة التى يبعث لها بمقالات قصيرة فيها لمحات فكره الخاطف كسنا البرق ..

وفى موسم ارتباكه هذا يتعرف فى ڤرساى بامرأة خطرة ، أخطر النساء على سلام قلب شاب : « مدام دابرانتيس » ، عقيلة المارشال « چونو » . وقد أوتيت كل مايهيج بلابله ويثير ثائره : كان سحر ماضيها أكثر من سحر حاضرها . يالها من هرة غاوية عندما تروى له بعينيها البراقتين : « لقد قبلنى الأمبراطور فى الجبين » ! .. إن الشيطان كان مرتدياً جسدها ، منطوياً فى روحها . وكانت تتلون ألواناً ، فهى أحياناً سوداوية المزاج ، متألمة ، حزينة ، ساهمة .. وأحياناً شديدة الاندفاع ، متغطرسة ، ساحرة ، آمرة .. تبدى استسلاما يبعث الهوس

بها .. وكان أونوريه يعلم أن نابليون قد اشتهاها . فهل نالها ؟ .. آه !. إنها لم تبذل جهداً كبيراً لتداهنه وتطريه .. فقد أعجبها .. كان فعلا يتفجر حيوية وحرارة وطموحاً .. قالت له : « إن مجرد نظرتى إليك تثيرنى ! » .. وحدثته عن « رأسه السماوى » .. وسمعها ذات مساء تقول له كلمات ستعود بعد سنوات إلى أذنيه كلما تصادم الحب بالفضيلة وتعثر بالنبل :

— إننى صديقتك على مدى الأيام ، و .. خليلتك .. متى شئت ! ..

ولما عرفت لور دى برنى أنه يلقاها ، قلقت ، وسألت : « أتبدو عليها سنوها الأربعون ؟ » .. ثم تضبط غلافاً ، وتقول فى قلق : « ماذا عساها تكتب إليك ؟ » .. فيرفض أونوريه أن يطلعها على الخطاب .. وتعتريه رجفة وألم .. ولكن المخيلة تسعفه برد مقبول :

— إنها هى التى لم تسمح لى ! ..

وعندما تتمالك مدام دى برنى تعود مرة أخرى إلى رحمة العقل وكرامة القلب :

— حسناً .. وإنى أحترم ما فى شبابك من رقة ومداراة .. ولكنها لا تلبث أن تذوى وتفنى .. ولا يبقى لك سواى ..

فكيف لم يكن يرد على مثل هذه الأقوال بالندم والكفارة ؟ .. ذلك أن تلك المغامرة القصيرة ، مع امرأة ثانية لم تكن أيضاً شابة ، لم تزده إلا اضطراباً وتبلبلا .. حتى إنه عندما اجتمع بعد ذلك بمدام دى برنى فى غرفته ، وألفاها قد نسيت ، واغتفرت ، وعطفت ، وتفانت فيه ، وفنيت ، بكى .. وما كان بكاؤه لمجرد خيانته إياها .. كان شاعراً بتفاهة مغامرته مع مدام دابرانتيس ، متألماً مما أحاط بها من فقر ودس .. كم من رغبات كظيمة مستحيلة تتخبط بين ضلوعه ! كم من أحلام ذهبية تبددت ! .. إنه فى سنه الباكرة هذه كان يعيش بين أطلال بالية ! أسرعان ماتقص أجنحة روحه الشعرية وتطوى فى أحضان عجائز قبلما تحلق فى حب فتى سحرى ؟ ! .. ومع ذلك فهو يلتقى ، فى المقهى ، وفى دور التمثيل ،

وفى إدارات الصحف ، على أذرع رفقائه الشبان ، نساء فى زهوة العشرين ، نضرات ، صافيات كسماء الربيع .. وشهد ، وفؤاده يتمزق ، بأن « أصفى النفوس وأغناها لاتكفى لإرضاء رغباتنا العديدة الدانية » . . وتلك التى أحبها قد فقدت هذه النضارة ، وأضاعت شباب الجسد الذى لايعوض . فيا للأسف الدامى الدائم ! ويا للهوى الذى لايهب إلا لذات أليمة ! . . وها هى ذى تناديه :

ــ أنت ينبوع حياتى ! فهى مستمدة منك ! .

ويحاول عبثاً أن ينادى أشباحه وأوهامه لتسعفه بمثل صيحتها .

وحين تنصرف من عنده داعية إياه للمرة العاشرة أن يزيد وداعه حناناً ، تلحظ اكتئابه ، وتتنهد قائلة :

ــ إنى أثقل عليك ! . إنى أحس ذلك ! . . وأعرفه ! . . ولكن حبى لك فوق الطاقة ! . فابحث عن واحدة أخرى ، وعندئذ أخلى لها مكانى . وأصبح لك أماً ، بكل تفانى الأم ، وكل تسليم الأم ، وكل محبة الأم ! . .

وكان فعلا قد دعاها : « أماه » ، فى انفعالات لوعته الأولى .

يالها من مخلوقة ، معبودة ، خليقة بالعبادة . . كان يمكن أن يكون ولدها !.. واشقوتاه ! . .

إن الحب هو حاجة مضنية تمتزج فيها نداءات الروح واحتياجات البدن . وليست البقية إلا سفسطة . وعلى الرغم من نعمى هذا اللقاء بامرأة تفتحت على يديها أنضج أفكاره ، فقد ظل شاعراً بأنه تمنى الحب العظيم ، الحب المعجز ، العجيب ، الكامل ، الذى يخيل لصاحبه أنه يلامس الرفيق الأعلى . . .

وقد ظل مضنوناً عليه بهذا الحب ، وظل من هذا الحب محروماً . . .



٤

فى ذات صباح اتخذ قراراً خطيراً : اعتزم ، لكى ينسى شقوة الحب ، أن يصير غنيا . وأحس بفكره يصفو ، وأخذ يقول لنفسه : « إن الثراء لمن أوتى من النبوغ حظاً قليلا يمكن كسبه بجرة قلم ! والإرادة تكفى . وحتى الآن قد رغبت فيه ، ولم أرده . أما الآن فإنى أريده ، وعلى ذلك سيكون لى ، وسيكون سريعاً ، لأن ورائى بعد ذلك مشاغل أخرى . . أريد أن أدخل ميدان الأعمال ، دخولا رناناً ، ولست أريد صغائر الأمور ، بل كبائرها . والأعمال فى حاجة إلى الشعر ، كالآداب والفنون سواء بسواء . ولا بد من الابتكار والخلق ، وسوف أبتكر وأخلق . وقبل مرور عامين ، سأكون ثرياً » ! . .

ولما أعلن مدام دى برنى بعزمه على اقتحام ميدان الأعمال ، سألته :

ــ ولكن أى نوع منها تنوى أن تزاول ؟

ــ لست أدرى بعد . . فى ميدان الإبداع متسع للجميع !

ــ وكتبك ؟

ــ إنها تكتب فى باطنى . . وتكتب من دون عكوفى عليها ، أو تفكيرى

فيها . قد يلوح عليّ أنني أضيع وقتي ، في حين أني أكسبه . فلابد من أن نبدأ فنحيا ، قبل أن نكتسب الحياة . ولم يبدأ موليير آياته إلا في سن الأربعين . فقد شغل بادئاً بأن يكون رجلا . وفي سعيي إلى الغنى في وقت قصير سأحشو جعبتي بالملاحظات التي تنفعني في كتبي . ولما كنت لا أظن أني سأموت فتياً ، فأمامي سنون طيبة طويلة لأفوز في الأدب فوزي في التجارة !

وكانت له طريقة لاتخيب في تجميل كل ما يعرض له . وكانت هي تحب الجمال ، فصدقت كل ماقال . . والمدهش أنه بعد ذلك بقليل وفق إلى تجارة ، ولم يلبث أن حصل على موافقة أسرته التي سرها منه أن يتخلى عن صناعة الأدب غير المجدية . . اللهم إلا أخته الصغرى لورانس ، فهي التي تشككت :

ـــ إني لا أراك تبيع ، وتشرى . . .

فسألها غاضباً :

ـــ ولماذا ؟

ـــ ذلك أنك طيب القلب . . موفور الاستقامة . .

فهز كتفيه . لم تكن له تلك الفطرة الدقيقة التي آتاها الله النساء الكريمات المنبت ، اللواتي يعرفن أنه لا بد في الحياة من أسلحة الدفاع دواماً . . وألقى بنفسه في غمار عملية طبع ونشر بدت له سليمة مثمرة . .

أن يطبع « موليير » و « لافونتين » ، وأن يطبع كلا منهما في مجلد مصوّر ، سهل التناول . . أليس هذا ديناً واجب الوفاء نحو عظماء الرجال هؤلاء ؟ . . فأقرضه المال صديق يدعى مسيو « داسونفيليه » ، وحذت حذوه مدام دى برنى . ومضت ستة أشهر في : عمل ، وجرى في باريس ، ورحلات إلى بلدة آلنسون حيث كان يسكن الحفار . ثم خرجت آخر الأمر الكتب . وكان ثمن النسخة منها « بنتو » (نحو الجنيه) . .

بيد أن أحداً من الناس لم يتأثر بهذه الهدية ! فبيعت عشر نسخ . وتمخضت

العملية عن خسارة مروعة ، هى ضياع خمسمائة وألف فرنك ! . .

فبدلا من أن تسخط مدام دى برنى ، وتأسف على مالها ، زعمت أنها وجدت حلا . فقد علمت بأن مطبعة مطروحة للبيع بشارع « ماريه سان چرمان » . . قالت :

ـ اشترها ! . . فلا تبق تحت رحمة الغير . إنهم هم الذين يقتلونك ، ويمسحون بك الأرض ! . فلا بد من أن تكون سيد نفسك ، وولى أمرك . . وعند ذلك تبسط سلطانك ، وتنجح ، أما الخسارة الأليمة التى خسرتها . . .

ـ آه ! . . أتظنين أنها تشغل بالى ؟ . . ضعى يدك هنا ، على قلبى ، لتحسى إرادتى وعزمى . . إنى واثق بنفسى . . ونصيحتك قيمة . . وها أنت ذى ، مرة أخرى ، تنقذيننى ! . .

وكانت المطبعة المعروضة للبيع على خطوتين من السين ، وراء المجمع العلمى ، فى حارة مظلمة ، مثلجة ، تقبض الصدر جدرانها العالية الخالية من النوافذ ، وإن كانت تتصاعد منها ـ كما لو كانت قبراً ـ ذكريات مثيرة ! . . الشاعر راسين مات هنا . . وأدريين لكوڤرير الممثلة التراجيدية العظيمة ، أجمل غوانى عصرها ، عاشت هنا . . لشد ما نرى بلزاك راضياً عن العمل فى هذا المكان . . . فالعمل هنا ـ فى عينيه ـ هو بمثابة السير فى أثر التاريخ . .

أما الصنعة ، فيالها من صنعة ! . . لسوف يحذقها . . ثم يالها من فكرة : أن يطبع كتبه بنفسه ، ياله من حلم قد تحقق بعد بضعة عشر عاماً . . يا لذلك المصير الأسنى ! . . إنه سيثرى وهو فى خدمة الفكر ! . .

ولكن لا بد قبل التحصيل والاختزان من الدفع وشراء الكنز ! . . وكان المسيو بلزاك ، الأب ، ما زال يجرى على ولده أونوريه مرتب الألف وخمسمائة فرنك سنوياً ، فرضى بأن يعطيه كل نصيبه فى تركة المستقبل ويقطع المرتب . ولكن المبلغ لم يكف . فدفعت الباقى مدام دى برنى . . فبلغ منه الانفعال

والتأثر بوفاتها حد البكاء ، وقال لنفسه : « لشد ما تحبنى ! . . ما هذه امرأة ، إن هى إلا ملك كريم ! . . وإنى أحياناً لتخالجنى من نحوها أفكار مروعة . . كيف يارب أفعل لطرد هذه الفكر ؟ ! »

وكذلك ساعدته فى الحصول على رخصة طابع . . وذلك بفضل زوجها المسيو دى برنى ، المستشار الملكى ، الذى وصفه أونوريه بأنه « قاض ، وموظف ، ورجل ممقوت » . . وخرجت الرخصة بعد ثلاثة أشهر ، وهو يكفر ، ويأكل بعضه ، من نفادصبره . . وأخيراً ، دخل ميدان الأعمال ، كمن يجرد تجريدة !

وفى ٤ يونيه ١٨٢٧ تسلم مطبعته كالغازى الفاتح . ومع ذلك لم تكن هذه خاتمة النضال . إنها بداية المعركة الكبرى فى سبيل المال !

ولم يكن وحده فى ذلك الشوط إلى الثروة . فقد اتخذ شريكا ، ولكنه سجل فى العقد : « يحتفظ المسيو بلزاك لنفسه بالحسابات » . . وربط نفسه كالثور فى الطاحون . .

وفى حجرتين حقيرتين ، ضيقتين ، شنيعتين ، ستبدأ حياته منذ الآن ، على مكتب مغطى بالكرتون الأخضر ، وغرفة ذات خدر ، حجب بنسيج رقيق أزرق . . وظل فى المكتب يعمل ، ويدرس ، ويحتقن دمه ويفور . . وخدع النفس وخانها فى وقت واحد بثلاثة عوامل : أولها الكبرياء ، وثانيها السذاجة ، وثالثها الخيال . . . وقد ضاق صدره من التوصيات الأولى . . أو لم يبدأ بطبع نشرة عن « حبوب القوة وإطالة العمر - صيدلى ٧٧ شارع سانت أنطوان » ؟ فكان يسخط ويلعن لضياع الوقت فى مثل هذا ! . . وكان شريكه ينظر إليه ولا يفهم ! . .

وعرض له بعد ذلك أن يطبع قصة Cinq - Mars التاريخية للشاعر الشهير دى فينى . وكانت هذه القصة لا تعجبه . . فتجهم للمؤلف الذى سخط عليه بدوره ، ورآه رجلا لا كياسة فيه ، ورآه ثرثاراً ! . . فى حين كان بلزاك

ينحنى على جامعى الحروف ويوصيهم :

— لنخلص من هذا الكتاب الردىء ! ولننصرف عنه إلى شىء آخر ! إنه قصة سخيفة يؤيد فيها المؤلف رجلا خائناً ضد السلطات العامة . . ومن غير السلطات لا تكون هناك دولة ! . .

وكانت له فى الدولة نظرياته ، أما فى المطبعة فلا . . كان يبتكر . لم يكن يعرف شيئاً عن الأحوال التى تحيط بعمله . ولم يلبث العملاء أن تبينوا ذلك . كما فطنوا إلى أنه كذلك شاب حساس طيب القلب . فأذاعوا ذلك فيما بينهم وتناقلوه ، وهرعوا كالقطط الجائعة ليستغلوه ، جماعات وفرادى . . وكان ذلك سهلا ، فقد كانت له نفس نبيلة غير أهل لأية تجارة . وكان عاجزاً عن النزول بقلبه ليتجرد للحساب الدقيق ، وبدلا من أن يتكلم بجفاء ، ويقدّر الصغائر ، ويحسب حساب النافلة ، وينظر إلى المليم والدانق ، كان يلبى نداء العواطف الكريمة الفياضة . . فإذا اكتشف سارقاً نهره قبل أن يدفع له أجره . . ثم لايلبث أن يقول : « لقد أذللته . . وهذا يكفى ! . » . . لم يكن يناضل بقبضتيه . كان يحكم بروحه ، وكان شفيقاً . وكانت من ورائه عصبة من الفجرة ، لا تتحرج من استغلاله ونهبه تحت ستار أنهم « عملاء شرفاء » ! . . وكان نبيهاً جداً ، والنباهة الفائقة شر محتوم فى الأشغال . كان يفهم الرذائل كالفضائل . وكان يعالجها كما يعالج الطبيب الداء . ولم يكن يحمل قط حقداً . كان عالماً اشتعل رأسه وطاح فى معمل المطبعة . . ولم يكن طابعاً . لم يكن يعرف كيف يناقش ويساوم . لم يكن يعرف كيف يحسب ليكسب . . وبدا هذا المركز مجدباً لا يدر عليه رزقاً ، إلا الرزق الأدبى الذى يحصله من المناقشات فى الذمة والأمانة ! . . ولم يكن ذلك كله ليكسبه مالا ، فما بالك بالغنى الذى زعم أنه أقرب إليه من حبل الوريد ؟

وكانت مدام دى برنى تجىء منذ عام كل يوم لزيارته فى الغرفة الزرقاء ،

وسرعان ما أدركت أنه لن يكون رجل أعمال قوياً قديراً إلا فى الخيـال .. ولـكنها كانت هى نفسها لا تفهم فى الحياة شيئا من تلك الإحصائيات الصغيرة الخسيسة ، فأى نصح يمكنها أن تسديه إليه ؟ .. لقد وجدت أن الأسهل لها والأولى بها أن تقف عند حد دور العاشقة . وكانت كالنار التى تخمد ولـكنها تزداد بريقا ، ولم تعد تذكر غير الحنان والدلال والحب والعواطف .. كانت صفاء القلب بعد اكفهرار الظلمات التى غرق فيها بلزاك لأذنيه ، ضائعاً ، فريسة الأرقام : الإيرادات ، والمصروفات ، والميزانيات ، والفواتير ..

قالت له :

ــ إنى أعلم أنك فرغ صبرك ! فوراءك ألف شاغل ، وألف كراهية ، وألف اشمئزاز ، وألف ندامة ! .. إذن فدعنا من هذا كله ، فلا نذكره ، يا حبيبي الحبيب .. واهدأ ، واسترح ، وضع هنـا رأسك .. فقد كنت تحب الاستناد إلى كتفى . وإنى هنا لكى تنسى ... فدعنى أنظر فى عينيك . إننى لا أمل النظر فيهما أبداً ، يامعبودى ، أترى أمك الغريبة قد حملت بك إذن فوق فوهة بركان ڤيزوف لتجعل لك عينين بهذه السخونة الآكلة ؟ ! فهما عينان تريدان .. وتداعبان .. وتعطفان .. وتحبان .. عيناك ! .. إنهما من الروح ، روحك ! .. وهما جميلتان كزهر الربيع ، عميقتان كطبقات السماء ! ..

ــ يا ملكى ، يا ملكى العزيز الحـارس ، إنى بخير ، وإنى سعيد .. وأنت تردين إلىّ الروح ! .. إنى أنسى العمال ، والعمل الفاسد ، والزبائن .. آه ! .. إنك لا تعلمين ماعملوا اليوم .. فاسمعى ! ..

وفى لحظة النسيان ، تتزاحم عليه أسوء الذكريات وتتراكم حوله ، وتحاصره . وعندئذ تضع يديها الجميلتين على فمه . فتتلاشى فظائع البشر التى أصابته فى يومه ، ولا يعود ثمة من أثر إلا لنشوة الحب . وما كان أجملها فى شتاء ٢٧ - ٢٨ ! .. وما أشـد ما راقت فى عينيه ، فى ثوبها الأسود ، المحبوك على خصرها بشريط ،

ولاسيما تلك الطرحة الشفافة التى تضعها كالشال ، وتلق بطرفيها فى حزام وسطها! وها هو ذا يجدد إعزازها وتدليلها ، لسنها ، ولحنانها ، ولإحسانها الذى لم يكن ليصدر إلا عنها ، تلك الفضيلة التى لاتصدر إلا عن القلب ، على مضى الأيام . . وكانت تـكرر له ، بلا ملل :

ـــ إنى أعبدك ، أعبدك على الرغم من ألوان غضبك ، ونزواتك ، وغلظة طبعك ، و . . ذلك من أجل . . « روحك الجميل » ! . .

وكانت تصـل مخبولة حباً ، آتية على قدميها من شارع دنفيرسان ميشل ، حيث كانت ، حينذاك ، تسكن فى باريس خلف حديقة اللـكسمبورج الغناء العريقة ! فتنزل فى شارع دى تورنون ، مرسلة بالفـكر ألف قبلة نحو الغرفة التى شهدت حبهما الشهور الطوال ، ثم تعرج على شارع السين ، حيث تشترى له أرغفة الخبز الصغيرة والفاكهة ، لأنه لم يعد يجد متسعاً من الوقت للغداء ، وتصل ، تكاد تـكون مقطوعة الأنفاس من الوجد والتفانى والهيـام ! . . وتقول ، من خلال العناق والقبل :

ـــ آه ياصديق ! . ألسنا جبلنا من طينة واحدة ؟ . . إنى نخور ، نخور ! . . لقد شاركتك كل السنين العجاف . . وستأتى سنوات المجد . . ثم تمضى بلا شك عنى مع امرأة أخرى . . ولـكن لاسبيل لك قط إلى نسيانى ، لأننى قد وضعت الهناء فى آلامك ، بينما سيضع غيرى الآلام فى هنائك ! . . يا حبيبى ، يا حبيبى ، لو أن كل الأزواج كانوا على مثالنا لما بقى على ظهر الأرض عزّاب !

ثم تجىء ، كـكل مسـاء ، لحظات الوداع الموجعـة . . ويـكون العمال قد انصرفوا ، فيقودها إلى الشارع ، مجتازين المطبعة ، فيريها ما على الرخام من صفحات مجموعة ، وصور مطبوعة ، ويحذرها من أن يلوث الحبر ثوبها . . ثم يحين موعد الرحيل :

ـــ هات منقارك ياسيدى ! . . إلى اللقاء ياديدى ! . . هل ترانى سأعود ؟..

إنى خائفة . . إنى من دونك تنقطع أنفاسى ! . . أعطنى مرة أخرى هـذه اليد الحنون التى أحب أن تظل فى يدى . . . والآن أدعك لأربع وعشرين ساعة، ياسيدى . . أى لقرن من الزمان ! . .

وكانت المطبعة فى تلك الأثناء تسـير إلى الخراب . فعلى التاجر أن يضع قناعاً على وجهـه لا ينزعه أبداً . . فى حين كانت هذه المرأة لاتساعده إلا على نزعه ، لأنها كانت مثله لا تنتشى إلا من تذوق الحق . ولم تـكن لديها ـ كما لم تـكن لديه ـ أسلحة للدفاع ضد الشر والشره المحيطين بنا . ولم تـكن توجهه إلا إلى الأفكار النبيلة : وما حيلة التجارة فى هذه الأفكار؟! إنها كانت ، فى حبها إياه ، تجره إلى الخراب . . وكانت تعبده ، على رغم الخرائب ، وفوق الأطلال ، لأنها فى وسط المشاغل والمشاكل التى لا تستطيـع وقايته منها ، وبين ضروب الفشل العـديدة هذه ، لا تجد ما تقوله له غير : « لو كنت مكانك ما فعلت إلا مثلك ! . » . .

وكان يحس أنه على الأقل مدين لهذا النبوغ النسوى السخى برجولته ، وبهيامه بالجمال ، وتحمسه للشرف ، وكل ما يجعل لهذه الحياة قيمة . وعلى ذلك ، ففى العراك التجارى ، وإن كان قد هزمته شراذم الموردين والعملاء ، فالفضل لها فى أن قلبه تشدد وتجدد ، وازدهر كشجرة جميلة . . ولما كان القلب هو الذى يمنح العقل النبوغ ، فقد ظل شعاع من الأمل بين جوانحه ، انتظاراً لليوم المشهود الذى يعود فيـه إلى حمل قلبه ، إذا ثبت قطعاً أن الأشغال والأعمال لن تغنيه فتيلا .

وكان مع ذلك لايزال قوى الرجاء فى الأعمال ، وفى المـال . فزعم أن آية الغنى فى تحويل المطبعة إلى مسبك للحروف ! . . فاندفع فى نفقات باهظة . وبقيت مسألة المشتريات ، وإيجاد النقود . .

أما شريكه « باربييه » فلم يصدقه ، وأبى أن يتبعه . . بيد أنها هى . . هى

دائماً . . هى المخبولة ، الهائمة ، المشوقة ، قد حصلت من زوجها الأعمى على تفويض بدخوله باسمه ، فى الشركة الجديدة ! . . وكان ذلك بمثابة أعباء جديدة ، ضغثاً على إبالة !

ثم وقعت الواقعة ، وكانت الطامة ، عندما حل دفع كمبيالة ضخمة ، وكانت الخزانة خاوية . وحمل إلى الخدر دفاتر الحساب ، وراح مع خليلته يجمعان ويطرحان ، ولا يجدان مخرجا . . فما العمل ، ياربا ه؟! . . إن التجار الموردين قدموا بلطف فواتيرهم .

فقالت له مدام دى برنى :

ـــ إذن فعليك أن تحذو حذوهم مع عملائك . فأرسل جميع فواتيرك ! .

فأمر بذلك متنهداً :

ـــ يا للأخلاق ! . . يالهـا من حياة ! . . إنى أوثر لو قطعوا رأسى ! . .

ولم ينتج عن إرسال الفواتير شىء . وعلى الضد من ذلك نفد صبر الموردين ، وطالبوا بحسابهم . وتلا الإلحاح منهم تهديد ووعيد بالتقاضى . فصاحت مدام دى برنى :

ـــ فليقاضوك ما شاءوا ! . . أيمكن لهذا أن يقضى على حبنا ؟ ! أيها الحبيب المعبود . . إنك لا يمكن أن تعرف منزلتك عندى ، ومكانتك منى !

وفى الغداة طاف على المصارف . فقابله رجالها بالبرود ،أو الشفقة الممزوجة بالاحتقار . فوجدته لور دى برنى ، فى المساء ، مخضل العينين بالدموع :

ـــ يا صديقتى ! . لمـاذا يقسو علىّ الله هكذا ؟ . . إنك تعلمين ، أنت ، أننى لا أريد بأحد سوءا . . . وموقفى شنيع . . . إنه غداً الـ « ١٣ » ! . .

ورأى المرابين ، أولئك الذئاب ، يظهرون فى ثياب المحسنين ، يقدمون إليه نصف ماله ! . . فأحس بدماغه يلتهب . . وبعد أشواط مضنية ، بذل فيها روحه لهؤلاء الناس الذين لا روح لهم ، تجلت بصيرته ، فقال :

— ياللزمن الضائع ! . يا للجهود الذكية بلا طائل !

جهود متوالية ، مرهقة ، على الضد من طبيعته . فإذا لقى صديقاً ، لزم الصمت ، وأخفى عنه ما به . وأمام أسرته ، كذب ، ولا سيما على مدام بلزاك ، أمه ، المتشائمة دائماً ، التى تتنبأ بالشقاء فى الهناء . . وكانت ترى أن الريح غير مؤاتية ، وأنه لاسبيل إلى خلاص التاجر من مآزق التجارة حتى يصفى تجارته !.. وهو الآن قد صار من رأيها .

ولكن لم تكن المسألة مسألة انسحاب من الأعمال بقدر ما هى إنقاذ مايمكن إنقاذه من الأثاث . وكتب كمبيالات لم يقبلها أحد . فهلع ، وهرع إلى القمار ! . . فعاد كاسف البال ، شقى الحال . . فقالت له صاحبته :

— لقد ذهبت إلى الباليه رويال . . ولعبت وخسرت ! . .

— أجل . . ولكنى لم أفجع فى المئة فرنك التى خسرتها ، وكانت آخر ما معى ، بل فيما شهدت ، إذ وجدت قاعة من جهنم ، أحاطتنى فيها ثلاثون عيناً مخيفة ، ترسل شرراً ، وتضرب نطاقاً من النار من حولى ، وتفتشنى ، وتجردنى ، وتريد أن تعرف ما إذا كنت سأذهب فألقى فى السين بنفسى ! . .

— آه ياملكى ! . . اسكت ! . . وتعال إلى صدرى . . . إنى سأنقذك ! . .

وجثت على ركبتيها أمامه تقدم له المال :

— خذ ! خذ كل شىء ! . . إنى أحبك أكثر من حياتى ! . .

وسمعا لغطاً فى المطبعة . وكان العمال يطالبون بأجورهم . فأسرع بلزاك إليهم ، فشتموه ، قائلين : « إنك تلهو وتستمتع ، فى حين أننا نموت جوعاً ! . . »

— أأنا ألهو وأسخر من العامل؟ . إننى على استعداد لأن أكون غداً عاملا . ثم إننى سأدفع لكم أجركم غير منقوص ! وليس التأخير إلا عارضاً ، يسبب لى من الألم أضعاف ما يسبب لكم ! وأنا أيضاً لم أعد آكل ! . . وسأبرىء ذمتى مما أنا مدين لكم به . . أقسم على ذلك . . فإن لى ذمة وشرفاً !

فى هذا النوع من العذاب الذى يحرق الدم ، دم رجل مسوق رغم أنفه إلى الإفلاس واليأس ، يتيح النضال المستعر للعاطفة أن تنجو ، وهو بهذا يعد نعمة من السماء ، مثله مثل الدموع التى تغرق القلب وتروح عنه . . .

وفى ١٦ أبريل ١٨٢٨ أرسل إليه العمال إنذاراً رسمياً ، ثم أطبق على المطبعة الدائنون ، وانضم إليهم البقال ، وصانع القمصان ، وصانع الأحذية ، وكانت فاتورة هذا الأخير بثلاثمئة فرنك . . فصاح بلزاك :

— ثلاثمئة فرنك ! . هذه سرقة ! . .

فأجابه الحذّاء ببرود :

— لا ياسيدى ! . . هذا مجموع ما أنفقته على قدميك من أحذية ! . .

وعندئذ هرول أونوريه كالمجنون إلى أمه ، لتستنجد بابن عم لها تاجر ، يدعى مسيو « سيديو » :

— فليأت إلىّ ! . . ولينظر ! . وليحسب ! وليقرر ما يراه ! . وليضعونى فى السجن ياأماه إذا قضى بذلك المجتمع ! . . أجل ! ربما كنت قد خربتكم ! . . أجل ! إنى مدين بعشرين ألف فرنك لمدام دى برنى ! . . أجل ! إننى بلا شك شقى منحوس ! . . ولكن هناك رحمة إلهية ، وإنى لواثق من الغفران يوماً ما ! . . وها هو ذا الحول قد حال علىّ وأنا فى جحيم !.. لم أعرف فيه غير رأسى يحترق ، وقلبى ينقبض من ألوان القنوط ! . . ولم يكن يمضى يوم إلا وتنقضّ صاعقة على رأسى ! . . ولم أكن أشهد إلا وجوهاً عابسة ، عليها غبرة ، ترهقها قترَة ، يؤلمنى تذكارها ، وغير عيون رجال غارت منها كل مبادىء الإنسانية ، ولم أعش إلا فى وسط مشاهد مروعة ، كما لو كنت فى حومة الوغى . . أواه ياأماه ، ياأماه ! . . إذا أردت النجاة فى ظل شيخوخة طيبة هانئة ، فاهربى من أهل الحساب ، وإياك من أرباب المال والأعمال ! . . وانصرفى بكل قواك إلى المتصوفين والشعراء . . فهم رجال من العلو والسمو بحيث لم يضعوا قدماً

فى أوحال الحياة ! . .

فزفرت مدام بلزاك ، وقد ضمت يديها ابتهالا :

— يا ولدى ! . . بربك لا تصح ، لئلا يسمعك أبوك ! . . فليس له أن يعرف ، فى مثل سنه ، بهذا ، وإلا مات ! . .

وطفق بلزاك ينشج نشيجاً محزناً ! . . ثم هوى فوق سرير أمه ! . . وخيل إليه أنه أخذ من يديه بقوة وحنق ، وداروا به ، ثم داروا . . حتى سقط منكباً على وجهه أرضاً ، منقطع الأنفاس ! . . ورقص كل شىء فى رأسه ، ورقص كل شىء حوله !

لقد انتابته الحمى ، إذ أدرك أنه خرج من صناعة الطبع والنشر مديناً ، فوق كل ما أنفق ، بثلاثة آلاف جنيه . لقد أقسم أن يكون غنياً ، غنى طائلا ، غنى سريعاً . . وها هو ذا أفقر منه فى كل وقت مضى ، أفقر من كل إنسان ، وقد اجتمعت عليه ضروب الفقر المدقع جميعاً . . .



٥

إن نجاح امرىء فى الحياة ، إذا أوتى كافة عناصر النجاح ، إنما يتوقف فجأة على لا شيء ، وهذا اللاشيء يكفل له الاتزان . إن مثله مثل الطفل فى شهوره الأولى ، عندما تتخبط قدماه الصغيرتان ، ويعترى أمه القنوط فتقول : « إنه لن يمشى ! . سيصاب بالكساح ! . . » . . ثم إذا به ذات صباح ، يمشى ، ويمشى قدماً لا يلوى على شيء . . ويصبح كغيره من الأطفال ، اتخذ مكانه ، وطيداً ، على الأرض .

وكذلك كان شأن أونوريه بلزاك . فما إن ثاب إلى رشده من صدمته ، بفضل المسيو « سيديو » ، الذى أخرجه من ورطته ، ولا غبار على شرفه ، بينا كانوا يصفون مركزه دون أن يدرك من الأمر شيئاً كثيراً ، حتى لاحظ ـ كالمريض عقب الحمى ـ أن قلبه وعقله قد خلصا ، وراقا ، وصفوا . . لقد خرج من ليل ذى كابوس فظيع ، فما كاد يطلع النهار حتى عاد إليه صباه . . وكان من الآثار غير المنتظرة لمصيبته الحرّى أنه عاد فاسترد مزاج الحياة ! . .

وفاتحه المسيو سيديو بهذه النتيجة :

ـــ خمسة وسبعون ألف فرنك دينا ! . . (٣٠٠٠ جنيه)

ـــ لا بأس ! إنى فى التاسعة والعشرين ، وصحتى جيدة ، ومطامعى واسعة . . فسأدفع ، سأدفع الدين كله حتى الدانق الأخير ! . .

وكان لابد لذلك من وضع كتب تباع بأكثر مما بيعت الكتب الأولى . وقد دلته الحياة بجلاء على أن الكتب الأولى كانت رديئة . وكم كان ملهماً إذ لم يضع عليها غير اسم مستعار ! فقد حفظ بذلك اسمه ، ليضعه على ثمرات المجد ! لقد لمس حقائق الوجود . وعانى تجاريبه ، وذاق كيف أن المجتمع يشوه النفس البشرية ويشقيها . . وهذه الحقائق أروع ما يمكن للمؤلف أن يبتكره . وهذه المشاعر الإنسانية هى التى يريد تصويرها ووضعها فى إطارها . فلا يتوه فى مغانى الفردوس المفقود ، ولا يسيح فى القمر . حتى ولا يذهب إلى القرون الوسطى ! إنه سيرسم ما حوله ، فى عصره ، من ظروف الحياة ، وملابساتها ، وأخلاقها . . وسيكون فى رسمه مثيرا ! . .

واستأجر تحت اسم مسيو « سرڤيل » ـ زوج أخته ـ شقة صغيرة فى شارع كاسينى رقم « ١ » على ثلاثين متراً من شارع فوبور سان چاك ، بين سقوف الأديرة وقباب المرصد (الأوبسرڤتوار) .. أشبه شىء بجمال الريف : سكون ، وراحة ، واستجمام . . . وهناك يستطيع العمل كالرهبان . . بل إنه أوصى لنفسه بثوب راهب . . وقصارى القول أنه اندفع فى جذله ، واشترى ـ دون أن يدفع ـ أثاثاً . . فرفعت أمه ذراعيها إلى السماء : « هل عاد إليه جنونه ؟ . . إنه يزيد فى ديونه ! . . » . . وكان من رأيه أن المظهر لا غنى عنه للكاتب . . فإذا جلس إلى منضدة مكسورة على قارعة الطريق لم يجد له ناشراً يدفع فى كتبه قرشاً ! . .

ولم يكد يزخرف عشه المكوّن من ثلاث غرف ، المطل على حديقة . . ولم يبق له إلا الجلوس ليكتب . . حتى سافر فجأة إلى « فوچير » ! . . ذلك أن موضوع كتابه الأول كان قد تحدد فى ذهنه ، وكانت تنقصه الوثائق فى جو مقاطعة

بريتانى . فأراد أن يعيش بين أهلها : يرى ، ويسمع ، ويسجل . . وكان يسكن فوچير صديق لوالده هو الجنرال الكونت دى بومرل ، فاستضافه . ووصل ضاحكا ، جذلا ، مستبشراً بما سوف يملأ به وفاضه من آيات يصورها للأجيال . . فسألوه ، فى حياء وحيطة ، عن أخبار . . أشغاله . . فأجاب بقوة :

ـــ المسألة بسيطة . أردت أن أقوم بعمل جليل . ولم يطب لى إلا لأنه كذلك . فلم يفلح . فاتجهت وجهة أخرى . وما أبدأه اليوم أعظم أثراً وأجل قدراً ! . إنى أنوى كتابة سلسلة قصص تاريخية لم يسبق لأحد أن كتبها فى هذه البلاد . .

فسألته مدام دى بومرل : « أولم تقرأ « Cinq - Mars » ؟ »

ـــ بلى يا سيدتى ! . . بل إننى قد طبعته ! . . وإنى أعرفه عن ظهر قلب ! . . قصة رديئة جداً ! . . كل ما فيها زيف . . وقد ولدت فى مقاطعة لاتورين ، وأعرف ما هى . .

فقال الجنرال : « وكذلك مؤلفها المسيو دى ڤينى » !

ـــ هذا محتمل . . وهو من دواعى الأسف ! . .

وراح يتكلم خمس ساعات متواصلة . . وكانت أسرة بومرل قد دعت بعض الجيران لقضاء السهرة . . فبهرهم جميعاً . روى لهم ـ لهؤلاء الناس المحدودين المحصورين بين بيوتهم وحقولهم ـ حياته المضطربة الشاقة ، ورسم عشرين لوحة باريسية ، وعالج : السياسة ، والمسرح ، والفن ، والحرب ، والكنيسة . . وكان زلقاً ، فياضاً ، متحمساً ، وكأن الكلمات كانت تزدهر على شفتيه المسعدتين ، وقد أحاطوا به فى دائرة . وظل الرجال مبهوتين صامتين . أما النساء فقد وجدنه ساحراً خلاباً . ، وتهامسن سروراً . . وقال قاض شيخ :

ـــ ياله من محام ! . .

وردت عليه عانس عجوز ، وهى تنتفض إعجاباً :

ــ آه يا سيدى ! . . هذا العقل ! وهذا الذهن ! . . وهذا الجبين ! . . أرأيت جبينه ؟ . .

ولـكنه كان قد جاء ينشد القَصص ، لا ليرويه . . ففى الأيام التالية أمسك لسانه ما استطاع ، وأرهف أذنه . وجاس خلال البلد ، يزور ، وينظر ، ويستجوب . وسجل كل ما حوله من رؤوس ، وحركات ، وحكايات . . ووضع هذا كله فى « تمليته » ، كما كان يدعو ذاكرته المؤاتية . وكان فى الصباح يكتب فى غرفته ، المطلة على الوادى ، الذى تشرف عليه البلدة والقصر . وكان يحصى بعينيه الآكلتين المشاهد ، باحثاً عن معنى جميع الأشياء ، عن وجه البلاد وروحها . وكأنه من نافذته هذه قد اعتزم أن يلقى الضوء على وطنه بأسره ، ويصوره !

وعند ما عاد إلى باريس ، مزوداً بالمذكرات والذكريات ، كان كالنحلة المتعجلة . كان يتعجل صنع شهده . وملأ أيامه بالعمل المضنى . إن إعداد كتاب ، والحلم به ، وترتيبه ، هو : الهناء الذى ما بعده هناء ! . إن امتلاك ناصية الموضوع هو : الاشتهاء ! . . أما الانقطاع بعد ذلك للـكتابة فهو عمل الحدّاد أمام كورة : يضرم النار ، ويضرب السندان . وهذا يتطلب الجهد ، والعناء ، والعرق . وما أطول كتابة كتاب ! . . وما أقصر مدى النهار ! . . إن ما يسوده من الصفحات فى اثنتى عشرة ساعة لقليل ، قليل ! . . فقدر بلزاك لـكتابه شهرين على الأقل ، وقرر أن يتمه فى شهر واحد . . وكان الشتاء كالحاً قاتماً ، بحيث لم يعد ينظم عمله على ضوء النهار أو سواد الليل . راح يكتب . حتى إذا أضناه التعب توقف ، ونام ، وأكل ، وسأل عن التاريخ . ثم قال : « إن الأيام تذيبنى بين يديها ، كما يذوب الثلج فى الشمس ! . . » . . وبدلا من أن يتم كتابه فى شهر استغرق ثلاثة أشهر ليضع « Dernier Chouan » أول كتاب شرّفه ومهره باسمه . . .

وكان فوزاً عظيما . .

ورأى أونوريه بلزاك اسمه على كتاب ، لأول مرة ، فخالجه الفخر فى هدوء .

وجاءه أصحابه مستبشرين . . وأحس بأعدائه يحدقون فيه مندهشين خجلين . . وكتبت إليه النساء . وتلقى دعوات إلى الغداء فى عالم الأدب ، وإلى العشاء فى عالم السياسة ، وإلى السهرات فى عالم المسرح والغناء . . وقالت له خليلته :

ـــ إنها لصفحة عظيمة من التاريخ ! . .

واعترفت أمه : « لقد قرأته فى نفس واحد . . ولا عجب إذا بعث منه الكثير . . بما يعوضنا شيئاً مما خسرنا » . .

ورضخ والده لقراءته ، ثم قال : « لا بأس بحديثك فى الحب . . ولكن . . فكر يا ولدى فيما اقترحت عليك : « كتاب عن الزواج » ! . . »

ففكر فعلا . وكان ، عند ما كان طابعاً ، قد وضع الصفحات الأولى منه ، وجمعت ، ثم أعاد قراءتها ، ولم ينشرها . فقال فى نفسه : « سأذهب لأتحدث إلى أبى فى هذا الموضوع . . فآراؤه عن النساء مدهشة . . ولكن فى الوقت متسعا . . . » . ولم يكن قد مضى على ظهور كتابه شهران ، حتى جاءه فى مساء يوم من شهر يونيه نعى أبيه . وكان الرجل شيخاً هرما فى الثمانين من عمره . فهو مصاب طبيعى . ولكن كذلك حزن الولد على والده طبيعى . وكان حزنه شديداً صامتاً ، رغم قلة ما تبودل بينهما من الحنان فى خلال الثلاثين عاماً . . وفى الساعة التى اختفى فيها أبوه عن سطح الأرض ، شعر بأن حكمة أبيه الضاحكة قد جاءت لتسكن فيه . ذلك أن الحداد العظيم الذى يجعلنا نتأمل فى مصيرنا يذكى فينا أعز ما ورثناه . . وهكذا أحس أونوريه فى جذوة حزنه جذوة أخرى عهد بها إليه أبوه ، تنتظم فيه ، وتخدمه ، وتعينه . . بحيث بدا له أن أسلافه القريبين والبعيدين قد احتشدوا فى ضميره ليساعدوه ، ويجعلوه يقول ، كما قال يوماً وهو صبى على ضفة اللوار : « سأكون رجلا عظيما ! . . » . وتبع نعش أبيه هامساً من خلال الدموع : « نم مطمئناً . ولا تخف ، ولا تحزن على مصير اسمك ! . . » . ولما عاد من المدفن ، جلس يكتب ، قبل أى كتاب آخر ، ذلك الكتاب الذى أوصاه به أبوه عن الزواج . .

ومر الصيف والخريف ، وهو يعيش خلالها على كثب من أفكار أبيه . وكان يرهف أذنه ، ظاناً أنه يسمع الشيخ يتكلم ضاحكا عن النساء ، وعن الزنا ، وعن الفضيلة . وكان لا يتم فصلا حتى يقرأه على صاحبته مدام دى برنى ، فتوجهه إلى حقائق نسوية أخرى تعرفها المرأة الحصيفة . وكانت النتيجة أن خرج هذا الكتاب ساخراً من الزواج ، أى من حياة الرجال التى تتنازعها النساء ، ويتقاسمنها ، أى أنه جعل الرجال مسئولين عن جميع أخطاء النساء .

وظهر كتاب الزواج : تأملات عن الهناء أو الشقاء الزوجى ، فى شهر ديسمبر . وكان ذلك هو الفوز العظيم الثانى . وجرت بذكر صاحبه الركبان . وكان موضع حديث الصالونات ، وفى كثير منها أرادوا أن يروه . فلماذا يتمنّع ويحتجب ؟ . . إنه لم يكن يرجو الإلحاح عليه فى الرجاء . غير أنه لم يكن لديه اللباس المناسب . وكان قد أوصى على ثوب راهب آخر يلبسه فى البيت ، ليعمل ، ولا يستطيع أن يرتديه للذهاب عند السيدة « صوفى جاى » . ومع ذلك ذهب . كما كان ملبياً ، شيئاً ما ، شيطان الزهو ، الذى وسوس له : « إن كساءك هو شهرتك . وهذا أولى بك وأخلق ! » . ولسوء الطالع ، كانت فى حذائه مسامير ، فتركت فى البساط أثراً . ولاحظ ذلك من ركن الصالون أديب يدعى « فيلاريت شاسل » ، وندّد بذلك . . ولكن مدام « دبورد ڤالمور » أعجبت بعينيه ، وسألت صاحبة البيت عما إذا كانت ثمة امرأة تشغل قلب هذا الفتى ! . .

وبعد ذلك بقليل ، زار مدام « دابرانتس » ، التى كانت تستجم أياما فى دير « آباى - أو - بوا » ، والتى كانت قد كتبت إليه بعد ظهور كتابه تقول : « إنك الشيطان شاخصاً فى رجل ! . وأنت تعرف أننى أحببت الشيطان دائماً . . فما أشد سرورى بلقائك ! . » . . فزارها . وسألها عن الذين يقضون مثلها فترة للراحة فى الدير ، فذكرت له اسم « مدام ركامييه » أجمل نساء عصرها . وكان ذلك الاسم من الأسماء التى يحلم بها بلزاك ، المفتون دائماً بالعظمة ، فقد كانت

أجمل النساء ، وكانت حياتها مأساة ، أي مأساة ! . . وسألته مدام دابرانتس :

ــ هل أرسلت إليها كتابك عن الزواج ؟ . .

ــ لا . . إننى ما كنت أجرؤ . .

ــ أسرع بإرساله . . وعد بعد ثمانية أيام ، فنجتاز هذه الحديقة ، ونصعد إليها ، فأقدمك . .

فقبل ، وفؤاده يخفق . . ولما عاد ، بعد أسبوع ، قالت له :

ــ لقد لمحت المسيو دى شاتوبريان ، صاحبها ! . .

ثم جهرت بالضحك من شعره المنكوش :

ــ هذه الذؤابة ! . . إنه حتى لم يقص شعره ليلقى الجميلة چولييت ! . . على أنه هكذا شبيه بالأسد ! . .

وكانت مدام ركامييه تسكن غرفتين جميلتين من غرف الدير . . فصعدا سلماً خشناً . . وبلزاك ملازم الصمت . . ودخلا غرفة صبغتها الشمس بالذهب . . وهناك بيانو ، وعود ، وصورة كبيرة للكاتبة مدام دى ستايل . . وكانت هناك تلك المعبودة ، فى ثوب رائق ، بكل ما فى ماضيها وحياتها من شعر وموسيقى ، جعلا لها شباباً أبدياً . . فانحنى بلزاك بارتباك . فكانت أول كلمة قالتها لمدام دابرانتس :

ــ لشد ما تفيض طيبة قلبه ! . .

فقال المسيو دى شاتوبريان ، الأديب العظيم ، فجأة :

ــ وليس هذا شأن أهل الأدب عادة . . أليس كذلك يا سيدتى ! . .

وكان بلزاك لم يره قط من قبل . فجعل ينظر إليه وهو يرد على الأسئلة الموجهة إليه من الحاضرين الذين التفوا حوله . وقال أحدهم ، مسيو بلانش :

ــ إن كتاب الزواج هو دفاع عن النساء . . وأعترف بأنى شككت فى جنس المؤلف ! . .

فقالت مدام ركاميبه بصوت رقيق :

ـــ إن النساء بحاجة شديدة إلى الدفاع عنهن . . وقد أحسنت يا سيدى عملا بكتابك القيم الممتع !

فقال بلزاك : « أحقاً أنك قرأته ياسيدتى ؟ » .

ـــ بالتأكيد قد فعلت ! . .

ثم التفتت إلى المسيو دى شاتوبريان ، قائلة له ، وكان يبدو عليه أنه لايسمع :

ـــ لابد من أن أعطيك الكتاب يا صديقى العزيز . .

وكانت يده فى صدريته ، كالأمبراطور . وكان وقوراً ، يبدو عليه الاستغراق فى عالم الأحلام . وكانت خصل شعره تتدلى على جبينه . .

وشعر بلزاك بالسعادة . فاتجه إلى النافذة . وكان الشتاء قد جرد الحديقة من أوراقها ، والهواء يهز أغصانها الرشيقة . . وتصاعدت إليه أصوات فتيات . . فضحك ، وحده ، بلا سبب . . وسمعوه . . فقال المسيو بلانش بصوت منخفض :

ـــ ما ذا أصابه ؟ . . إنه مجنون ، هذا المحامى عن النساء !

فاعترضت مدام ركاميبه قائلة وهى تخاطب شاتوبريان :

ـــ كلا كلا . . ثق بأنه موهوب . . يا صديق . .

ـــ ولكن ما أبشع منظر جواربه الزرقاء ! . . .

ـــ اسكت إذن ! . . وأنت ، يامسيو بلزاك ، تعال واجلس قليلا إلى جانبى . . ألديك مشروعات أدبية عظيمة ؟ . .

ـــ آه ! . أجل ياسيدتى !

ـــ هل من الفضول أن . . .

ـــ أوه ! . لا ياسيدتى ! إنى لا أريد أن أكون راوية فحسب . . بل . . مؤرخاً ، مؤرخ أخلاق وعادات . . . و . . . وكذلك فيلسوفاً يقود العقول . . لأننى . . .

فأصغت إليه بجد ، ملهمة إياه بمحياها الجميل ، المطبوع بطابع النبل والألم .
ولما خرج مع مدام دابرانتس قال بحمية :
ــ لله ما أطيبها ! . . وما أجملها ! . . وما أوجهها ! . . .

إن هذه الزيارة لامرأة تحمل اسماً من أعظم الأسماء فى الحياة الفرنسية قد زادته اطمئناناً على مصيره . إن النور يشع على هذا المصير من كل جانب ، ومع ذلك ، فإن الغنى لم يأت بعد . وإن كان لم يقنط من مجيئه يوماً ، رغم ديونه . بيد أن طبول الشهرة لم تدق بعد باسمه فى أربعة أركان المعمورة . . غير أنه كان يحس القوة على بلوغ الشهرة . ولكنه لم يتذوق بعد حب امرأة شابة تهبه جمالها ومستقبلها . على أن ملكا كريماً قد بسط عليه حمايته ، وساعده ، وسما به . . وإن كان لم يعرف الشباب حقاً لأنه عاش عشرين عاماً بغير هناء . . ولكنه لا يأسف على ذلك فى ساعة ازدهاره هذه . . إن كل ما لاحظه عليها أنها تأخرت ، ليس إلا . . وليس عدد السنين بالذى يستحق الذكر ما دمنا لاندرى متى نموت . وفكر فى أبيه الذى نام إلى الأبد ، دون داء عياء ، فى سن متقدمة . . وقال لنفسه : إن ذات المصير ينتظره ، فيكون لديه من الوقت ما يمكنه من وضع مؤلفات شائقة . .

ولما وصل إلى حديقة اللكسمبورج ليجتازها فى طريقه إلى بيته بشارع كاسينى سمع شخصاً ، يمر بعربته ، يهيب به ، وكان هو « جوسلان » ناشر كتبه . . فقال له بلزاك وعينه تلمع ووجنتاه متوردتان :
ــ لشد ما أنا مسرور برؤيتك ! . . إنى خارج الساعة من عند مدام ركامييه !
ــ آه ! آه !
ــ وهى لم تقرأ قط كتاباً أعجبها بمقدار كتابى « فى الزواج » ! . .
ــ مرحى ! مرحى !
ــ وبعد ، فهل تعرف أنى أعد لك قصة سأسميها La Peau de Chagrin ؟

ــ وهل تمت ؟

ــ كلا . . واعلم ـ واستخدم علمك كما تشاء لمصلحة البيع والشراء ـ أن مدام ركامييه قد وعدتني بالاستماع إلى المخطوط قبل طبعه . .

ــ زه ! زه ! .

وهنأه جوسلان . . وافترقا . .

ودخل بلزاك إلى اللكسمبورج ، ومر تحت الأشجار التي سمعته ، في فصول أخرى ، يضع مشروعات متحمسة متطرفة ، وقال لنفسه ، في مرح ، وهو يلوّح بعصاه ويدوّرها في الهواء :

ــ أرى يابني العزيز ، أونوريه ، أننا نسير الآن على الدرب ، ومن سار على الدرب وصل ! . . .



الجزء الثانى

انتصار العبقرية

١

أى شيء يؤثر فى النفس ، فى مدينة كبيرة ، مثل الشيء لم تعد تتوقعه : ركن من الريف ، يهب منه هواء الخلاء . . ففى مدينة كباريس يستغرق شراء عشرة أمتار من الأرض ما ادخرته أسرة متوسطة فى زمن طويل . . فكيف إذا وجد كاتب أو شاعر أو فنان ، فى صميم العاصمة ، واحة مزهرة ، يلقى عندها عصاه ، وتستقر به النوى ؟ . . أتراه على بعد مئة فرسخ من باريس ؟ كلا ، إنه فى صميمها . وهذا حى الأوبسرفتوار (المرصد) ، حيث كان يسكن بلزاك فى ربيع ١٨٣١ . وهو لا يتجه أبداً نحو بيته هذا ، فى شارع كاسينى ، إلا وتغمره موجة من الفكر . . فهو يدع : الجماهير ، والفراغ ، والغرور . . ويسترد وحدته الملأى بالذكريات ، الغنية بالدروس والعبر .

إنه يخرج من حديقة اللكسمبورج مستدبراً قصر المديسيس، حيث عز ملوك وذل ملوك، ويلمح قبة «الفال دى جراس» التى كالتاج، فيحيي من أعماق فؤاده ذكرى «حنه دوتريتش» ذات الذوق المصفى.. هناك، حيث الشيوخ المطمئنون المسالمون يلعبون بالمضارب والكرات الخشبية.. وهناك، على هذا الحائط الأغبر قد سقط المارشال «نى» أشجع شجعان فرنسا، الذى قتل بأيدى جنوده!.. وكان بلزاك مفتوناً بهذا البطل وماساته..

وهذا ركن متواضع من الحديقة، كفيل بأن يهذب من سعار الكبرياء والبذخ.. وهذا بناء ضخم عالى السقوف، هو بيت الأمومة ومستشفى الولادة.. وعلى الجانبين أديرة يتأملون فيها حكمة الموت..

وكان بلزاك يسمع من مكتبه أجراس الكنائس.. وكان هذا النداء يدفعه إلى كتابة أشياء نبيلة، حتى يكون: الرجل الذى يقود العقول، ويوجه النفوس، فى حين كان النساء يبتهلن إلى الله..

وهذا الحى هو حى الأطفال اللقطاء، ومعاهد الصبيان الصم البكم..

ما أبشع مدى الرذيلة، وما أشنع مدى الشقاء!.. ملاجىء تتزاحم بالعذابات، ومعابد تتجاوب بالتوسلات، ثم معاهد العلم والبحث، إلى جانب معابد الدين والرجاء.. فها هو ذا بلزاك بين: مسوح الرهبنة، وطيالس العلم، ومقاصل الإجرام.. ولم يكن بعيداً من ذلك أيضاً غياهب السجن التى تسقط بين جدرانها السوداء رؤوس المجرمين.

ولا مشاحة فى أنه كان فى ربيع عمره. كل شىء ينبت ويزدهر. وكانت الأفكار تغمره، كما لو كانت طوفاناً يغرقه.. وقد أحس بهذه الغزارة، وأشفق من هذا الغرق، من هذا الفيض الفكرى.. وكان كل شىء يذكى نار إلهامه، سواء أكان: حديثاً، أم مطالعة، أم شوطاً فى باريس.

ولم يكن يغريه قول صديق له: «عندى موضوع شائق لك!..»..

ولـكنه كان ينظر كيف يعيش الناس . . وكانت لمحة منه تبدى له عالما . . وكان ذلك بمثابة المصباح الذى يسلطه على أشد الحيوانات ظلمة ، فتتـكشف له ، وتقدم أمامه كل مآسيها الخفية ، وكل محاسنها المحتجبة . وفى تسع حالات من عشر كان ، وهو يبتـكر ذلك ، يكتشف . .

زد على هذا أن عقله قد رأى . وكان واثقاً . فلا حاجة به إلى انتظار ما تراه العينان ، أو تسمعه الأذنان ، على ما يتوقف على الرؤية من الحظ ، وعلى السمع من الاختلاس .. والشاعر الحق هو الذى يحزر ويلهم ، وعقله من القوة بحيث يبدع ما ينبغى إبداعه تماماً . وكان هو ذلك الشاعر . وكانت البيوت ، وكانت الشوارع ، تبدو له من الوضوح والجلاء كالوجوه سواء بسواء : فبعضها خير كريم ، وبعضها مقرف بشع كالرذيلة . فالأشياء لها ما للناس من أمراض . .

وكان يعبر باريس ، كما لو كان طبيباً ، يشخص ما فى الأحياء والجهات من أدواء . . وكانت مخيلته وحدها تسعفه بمعلومات أفضل مما يحصل عليه شرطى . وكان فى ذلك الحى من باريس ، حول بيته ، يرى ما يثير تطلعه ويجتذبه : يرى الشيوخ الذين ختموا حياتهم ، والطلاب الذين يبدأون الحيـاة . . والعمال يتـكدسون ، فى عائلات ، فى عناقيد ، بمساكن حقيرة . . فما أشبههم عنده بفصائل الحيوان المعروضة ، مصبرة فى المتحف ، أو جوالة فى الأقفاص ، وقد وضع على كل منها بطاقة بجنسه واسمه ! . .

وفـكر بلزاك ، قائلا فيما بينه وبين نفسه : « وهذه أيضاً فصائل بشرية ، يحسن أيضاً ترتيبها وتنظيم أنواعها ! . . . »

وفى ذات مساء عاد مهتاجاً . فقد اكتشف فى شارع سانت جنفياف بيتاً كئيباً موحشاً ، بدا له مسرح درامة انتظمت فصولها فى ذهنه . فدار من حوله ، مبهوراً . . . فهو منذ أكثر من شهر يبحث عن ذلك البنسيون العائلى المرذول ، الذى نرى فيه شخصية فى انحطاط خلقى مروع ، وهى مع ذلك فى الوقت نفسه

فريسة ضيق مادى ، مما يؤثر فى القارىء ، ويهزه هزاً ، كمشاهدة الدم يسيل فى الروايات التمثيلية على خشبة المسرح . . .

أجل ! . . لقد وجده ! وها هو ذا ماثل أمامه ! . . ولا ضير إذا لم يكن على واجهة هذا البيت يافطة : Pension de Famille « نزل عائلى » ! . . فهى غلطة من القدر سيصلحها هو . . فالتهم بعينيه : الشارع ، والحيطان ، والحديقة . . وسيكون اسم صاحب البيت : « الأب جوريو » ! . .

وتراجع وهو يتأمل اكتشافه . . فكاد يدوس بائعة ملابس قديمة (روبابيكيا) . . فأهابت به بلهجتها البلدية القحة :

ــ هولاّ ! . . على رسلك ! . . ولا تدس الناس ! . .

فالتفت إليها ، وضحك ، ضحكة العزم الرشيد . . فى سرعة البرق ، أسعفته مخيلته بكنز جديد . . فضحك سروراً ، وتمتم :

ــ إنها هى ! . .

أجل . . صاحبة البنسيون ! . . إنها هى أمامه ، سيصورها على نحو هذه الثرثارة ذات الشارب ، وبدأ فى الحال يحدثها ، حتى يلتقط من هذا الفم الشعبى لهجة الحديث ، وسياقه ، وأسلوبه ، بحيث لايعود أمامه إلا أن يتم خلق الشخصية المرسومة أمامه . . وكانت المرأة لا تترك مجالا لقـائل ، فتدفقت . . فنال منها فوق ماتمنى . .

ثم جاس بعد ذلك خلال الشوارع المحيطة ، ليرسم الخريطة . ووضع فى ذاكرته كل ما رآه من : أرصفة ، وبيوت ، وحوانيت ، وسكان . .

ثم تذكر أن الكاتبة «چورچ صاند » ستتعشى عنده مع بعض الصحاب . فأسرع ، والوقت صحو . وقد جف وحل الطريق . . وكان خفيف الخطا ، لأنه قد ملأ وطابه مما أغدقته عليه حساسيته الفنية . . إن نوراً خفياً داخلياً يضيئه الآن . إن شخصيات قصصه قد حفت به ، وسارت من حوله فى موكب

حافل . إنها الآن طوع بنانه ، تلبي رغباته ، وتجيب نداءه . . إنها تسير وتقف ثم تتحرك بإرادته . على جبين كل منها سمته ، وعلى لسانه كلمته ! . . إنه سيرسم الأب جوريو هذا ، رب البيت العائلي ، رجلا قد قتلته بناته ، وقتله جحود أولاده ، الذين أعطاهم حياتهم ، ثم يعطيهم حياته . . . إنه رجل من الشعب الفقير ، هذا الأب . . وبناته قد رفعهن جمالهن إلى الطبقات الراقية من المجتمع . . والأب الغبي ، له عقل حيوان ، ولكن قلبه يظل حتى موته فياضاً بالحب الأبوي . . أما الفتيات ، الفاتنات الأجسام ، المنمقات الأذهان ، فليس فيهن ظل نفس ، أو ظل حس وشعور . .

آه لو استطاع أن يبدأ منذ الغد هذه القصة الرائعة ! . .

ولكن ما زال أمامه على قصة La Peau de Chagrin خمسون صفحة . . فإذا كتب عشراً في اليوم ، خلص بعد خمسة أيام إلى صاحبه الأب جوريو ! . .

غير أن الأصحاب لايقدرون عمل الأديب ، فيجيئون إلى زيارته ليعطلوا إلهامه ، في حين أنه في غنى عن إلهامهم ! . . إنها لجريمة أن يوقف هذا الإلهام أو يعطل . . إنه ميراث تنتظره الإنسانية متلهفة ، لتضيفه إلى تراثها الخالد ! .

ووصل إلى بيت شارع كاسيني . وصعد إلى غرفته ، وفتح النافذة ، واتجه إلى دير الكارمليت ، وصاح في راهباته :

— أيتها النســـاء القديسات ، تضرعن إلى الله حتى يصبح أونوريه دي بلزاك عبقرياً ! . .

وكان قد احتر من شوطه الطويل ، ومن كل هذه الأفكار المثيرة التي هزته . فنزع سترته « الردنجوت » ، وارتدى مسوح راهب سوداء ، وربطها حول وسطه بزنار أحمر ! . . إعلان همة قعساء ! . .

ثم نادى خادمته « روز » . . وكانت فتاة بسيطة ، سليمة النية ، شديدة الجلد على العمل . . وقال :

ــ ماذا أعددت ياروز للعشاء ؟

ــ ماطلبه سيدى ! . .

ــ وما طلب سيدك ؟

ــ مرقاً ! . .

ــ مرق ؟ . . سبحان الله ! . . ثم ماذا ؟ . .

ــ وسلاطة ! . .

ــ يا للشيطان ! . وبعد ؟

ــ محار . .

ــ تقدمينه أولا ؟

ــ لا . . إن سيدى قال لى هذا الصباح أن أقدمه فى آخر الطعام ! . .

ــ ياروز ! . . أنت مدهشة ! . . هل عملت قهوة ثقيلة ؟ !

ــ أجل ياسيدى !

ــ قدميها إذن مع الحلوى . . ولكن اعملى أثقل منها كثيراً لى . . تضعينها على مكتبى ، فتنتظرنى ، لأننى بحاجة إليها هذه الليلة ، عندما ينصرف مدعوى . . والآن ، ها هو ذا الجرس يدق ، فاذهبى وافتحى . . ولا تدعيهم يدخلون ، فسأنزل إلى الحديقة . .

إنهـا كانت « إلـهة الشعر La Muse » كما كان يطلق عليها . كانت « چورچ صاند » . فجلت من لباسه ، وإن كانت قد رأته بديعاً . وكان بلزاك يراها للمرة الثالثة . وإن كانا ، فى المرتين الأوليين ، قد تخاصما وتصالحا ! . . وعلى رغم اعتزازه بنفسه وإظهار سلطانه ، فقد كان محيا هذه المرأة الشابة العاجى ، وعيناها اللتان بلون البرنز اللامع ، وفمها الأحمر الفتان ، تأسره إلى أبعد حد . . فكان مرتاحاً إلى استقبالها . ثم إنه كان يشعر بأنها تعبده ، أو أنها تحسده . وكانت تناديه بـ « يا أستاذى » !

وكان يهمه ألا ينقطع حبل أفكاره . . فلم يسألها عن قصتها « إنديانا » ، التى ظهرت حديثاً ، فهو لم يقرأها ، ولا يريد أن يقرأها . . (وهل عنده وقت ؟ !) . . ومضى يحلم بصوت مرتفع فى بنسيونه العائلى بشارع سانت جنفياف . . وراح يتخيل نزلاءه . . فتفكهت بذلك . . وقالت :

— وهل رأيت كل هؤلاء الناس ؟

فأجابها :

— وماذا تفضلين : أن أقول لك : « نعم » ، أم أن أقول لك : « لا » ؟ . . فإذا أجبت بالإيجاب قلت فى نفسك : « إنه ليست له القدرة على الخلق والابتكار ! » . . وإذا أجبت بالنفى قلت : « إنه يخدعنى » . .

فابتسمت ابتسامتها الحزينة ، الغامضة ، الساحرة ، وأقالته من الإجابة على سؤالها ، وطلبت إليه المضى فى حديثه . .

وأتى « توماس » ، صديقه الروحى ، الذى صار الآن قاضياً ، فعاد أونوريه يروى قصة الحى الذى فتنه ، والبيت الذليل الذى صار عنده البنسيون العائلى ، برجاله ونسائه جميعاً . .

وجلسوا إلى المائدة يأكلون ويشربون . . وهو مالك ناصية الحديث . . حتى فكتور هيجو لا يعجبه ! إنه يراه يخلط بين دواوين الشعر ، مثل : « ليزورينتال » Les Orientales ، ومسرحية « هرنانى » Hernani ، والروايات القصصية كقصة : « نوتردام دى بارى » Notre-Dame de Paris .

فقالت چورچ صاند :

— لعل هذه ليست إلا تعبيرات مختلفة عن فكر واحد ! . .

وهو يعارضها :

— إنها تعبيرات غامضة . حتى إن هيجو لم يصدر كتاباً واحداً إلا وله مقدمة توضيحاً لفكرته ! . . وإنه يبدأ بتوضيح الكتاب ، ووظيفة الكاتب

هى البساطة ليستنير الناس ! . . والزمان قلما يجود فى جيل واحد بأكثر من عشرة رجال ، إذا جاد ! . .

ولما سألوه عن أعظم شاعر فى عصره ، وتنازعوا على موسيه أو لامارتين أو هيجو ، قال :

ـــ بل هو كوفييه Cuvier ! . . فهو جبار القصيد ! وقد ملأ الدنيا ، وأعاد خلق عدة أجيال ! . . وهو الرجل العظيم الذى ينبغى شرب نخبه ! . .

ورفع كأسه . . وأجاب على سؤال من مدام چورچ صاند ، وجهته إليه بلطف ، رداً على ما قاله من أن البلاد بحاجة إلى زعيم ! . .

ـــ إذن فأنت ستدخل ميدان السياسة . . و . . . وتترك الأدب ؟ !

فهز كتفيه ، وفتح رقبة ثوبه الرهبانى :

ـــ الأدب ؟ ! . . ولكن الأدب يا سيدتى لا وجود له ! . . إن هناك الحياة التى تعد السياسة . والفن جزء منها . وأنا رجل يحيا . وهذا كل شىء ! . . رجل يصنع حياته ، ويكتبها ! . . وفى رأسى موضوعان أو ثلاثة مواضيع لكتب . . تصل إلى قلوب لا عداد لها ! . .

ـــ كالپنسيون العائلى الذى ذكرته لى بشارع سانت جنڤياڤ ؟ ! . .

ـــ كلا مطلقاً ! . . وإنما أريد أن أضع قصة اسمها « المعركة La Bataille » وستكون هائلة ! . . هى خلاصة جميع الحروب ! . . وستبدأ بدوى مدفع . . وسينتشر بارودها من السطر الأول . . ولا تنتهى إلا بصيحة النصر ! . . وسيؤخذ القارىء فى تضاعيف العراك كالجندى . . وإن كان الجندى يحارب ولا يرى شيئاً . أما القارىء فسوف يرى . وسيكون فيها الجهاد كله ، من : عناء ، وضنى ، ودم .. وسيكون فيها : الموتى ، والجرحى ، والقواد ، والأبطال ، والجبناء . . وستكون فيها : المهزلة فى المأساة ، والتفاصيل ، والنظرة الإجمالية . . وفوق هذا كله : نابليون يلوح بقبعته فى الأفق ، مشرق الطلعة فى الشمس

الساطعة ! . . ثم أضع بعد ذلك « ملهى المعركة » . . سأجعله عن الجندى الذى زعموه قد مات ، وتزوجت زوجته برجل آخر ، وهو يعود ، فلا يريد أحد أن يعرفه ، أو يعترف به [1] ! . .

وصاحت مدام چورچ صاند ، وقد نظرت إلى ساعتها على شعاع من القمر :

ــ رباه ! . . بقى على نصف الليل عشر دقائق ! . . ستفوتنى المركبة إلى الأوديون ! . .

ــ كلا ! لن تفوتك ! . . . يا روز ، هاتى الشمعدانات الفضية ! . . . وأنت يا سيدتى . . لقد تشرفت بزيارتك لى ، وبمحادثاتنا ، وما وصلنا إليه من نتائج . . إنك معى . . ألست معى فى أن المهمة كبيرة جداً ؟ . . فعلينا أن نحس بأن الله يظاهرنا ، وأن نستسلم لله . . تفضلى ! . . سأضىء لكم بعض الطريق . . .

ثم عاد ليعمل ، بعد أن استودعهم الله فى آخر الشارع . . وكانت الشموع قد سالت على كل ثوبه . . فخلعه ، وألقاه فى ركن ، قائلا :

ــ يا مسيو بروسون (الترزى) سترجى أن تزيل دهنه ! . .

ثم لبس ثوبا آخر ، أبيض ، بزنار أسود . . وشرب فنجاناً كبيراً من القهوة ، ونادى :

ــ روز ! . . إنها ليست قهوة قوية ! . . روز ! . . لقد نامت ، فهى تنام دائماً ! . . ولا يمكن للإنسانية أن تتقدم ما دام النوم حليفها . . وورائى عشر مقالات مطلوبة لهذا الأسبوع ! . . ثم واجب الذهاب لحضور قران . . يوم آخر ضائع ! . . لا بد لى من شراء عربة ! . . ستكون لى . . . فسأكسب فى الشهر القادم مبالغ طائلة . . وبعد عشرة أشهر قد أستطيع سداد أكبر جانب من ديونى . .

---

(١) لعل هذه الفكرة نفسها هى التى اقتبسها عن بلزاك ، بعد مئة عام ، الكاتبان المشهوران : « مارسيل بانيول » و « ب ، نيفوا » ، ووضعا فيها قصتهما التمثيلية الخالدة : « تجار المجد » ، التى نشرنا ملخصها فى كتابنا : « الموجة العذراء » ! . . « ص »

وصب فنجاناً آخر من القهوة :

ـــ لاطعم مطلقاً!.. لابد لى من أشترى البن ، وأن أصنع القهوة بنفسى ! . .

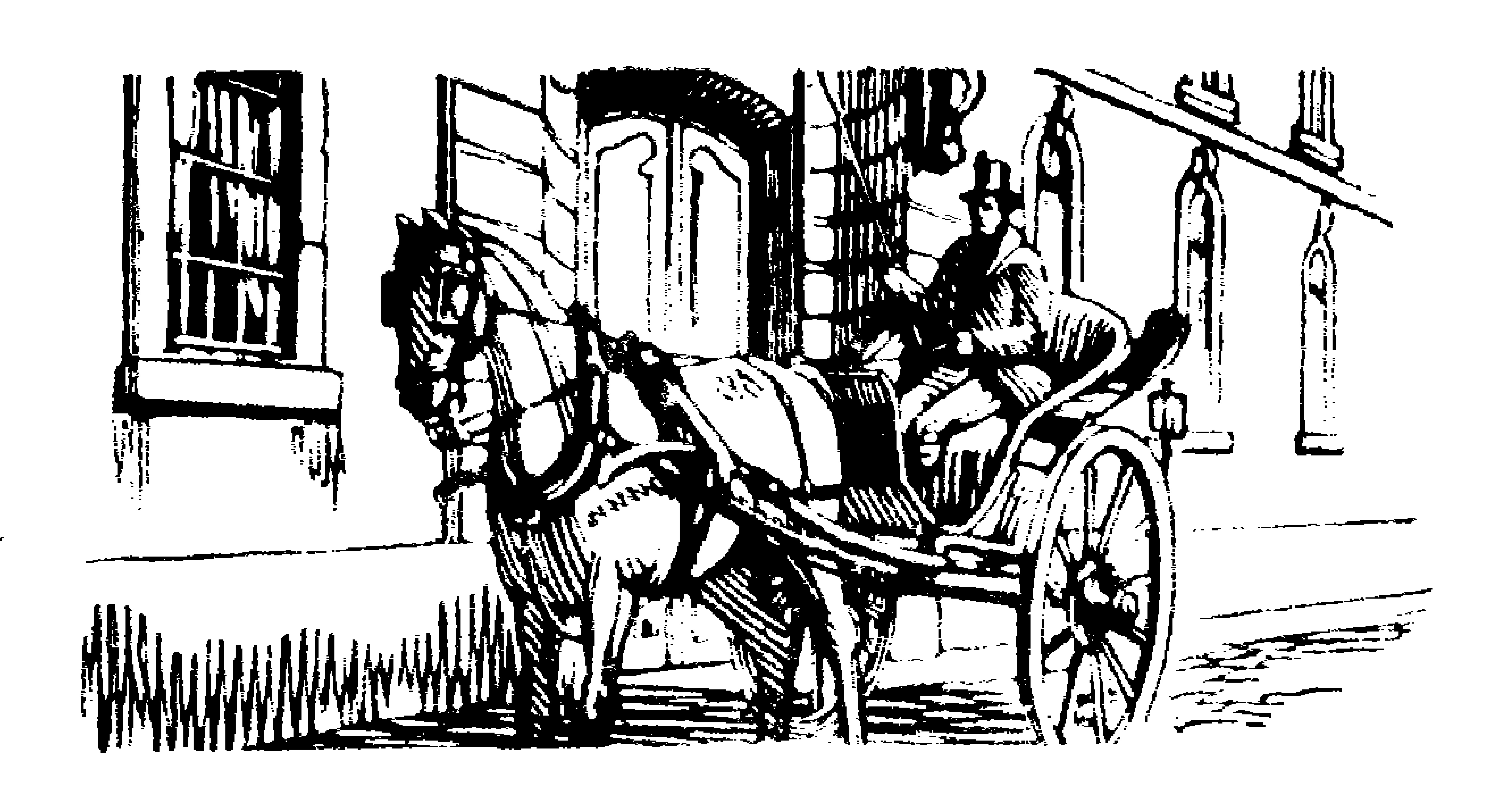
وأدنى المشعل من تمثال صغير لنابليون فوق المدفأة ، وتأمله ، كأنه يلتمس نظرته ، وكأنما يقيس نفسه به . . وقال :

ـــ يا له من رجل منيف فى الرجال ! . . لقد صنع كل شىء . . وما زالوا يمثلونه مكتوف الذراعين ! . .

ثم جلس إلى مكتبه ، وخط سطرين سريعين على قطعة من الكرتون الابيض ، وعلقها فى حمالة سيف الامبراطور . . ثم ضحك من صميم قلبه ، ضحكة الظافر .

لقد كتب على الورقة :

« ان مابدأه نابليون بحد السيف ، سأتمه ؛ أنا ، بسنان القلم ! . . »



٢

لم يدهشه ، وهو فى هذه الحالة من العبقرية المؤاتية والفكر الظافر ، أن يجد ، ذات يوم من أيام سبتمبر ، عند ناشره « جوسلان » ، خطاباً من سيدة عظيمة ، تعبر له فيه عن إعجابها . خطاباً غفلا من الإمضاء ، وإن كان الورق ، والخط ، والأسلوب ، كلها تدل على مصدر نبيل . ففكر : « هذا طبيعى . وكان حتماً حدوثه . أولا لأنى أستحقه . ثم إذا رعتنى العناية ، أفسحت لى إلى صالونات الطبقات الراقية سبيلا ! . . »

ولما كان لا يستطيب الهناء المنفرد الأخرس ، فقد تحدث عن هذا الخطاب إلى مدام دى برنى ، ملكه الحارس ! . . فقالت :

— آه ؟ . . أحقاً ؟ . . أرنى إياه !

— إننى لا أحمله معى لأتنزه به ! . .

فتنهدت ، وقالت :

— أوَ أنت تخفيه عنى ! . . لا تفعل ذلك يا حبيبى ! . . ولا تنس ما أنت مدين به لقلبى المعنَّى ! . . لماذا يا ربى حيل بيننا وبين أن نعيش معاً ، بعيدين

عن العالم؟ . . إن حنانى كان عندئذ يكفيك . . فلا تتهافت لتفتح فى السر خطابات هؤلاء النساء الفارغات . . .

ـــ ولماذا هن فارغات ؟ . . أذلك لأنهن يقرأن رواياتى ؟ . .

ـــ بل لأنهن يكتبن إليك ! . . آه لو رأيت هؤلاء النسوة ! . .

ـــ وعلى ذلك ، فأنت فى تسامحك أو فى غيرتك . . .

ـــ قل فى حبى ! . . واقنع بالكلمة الحقة . .

ـــ وعلى ذلك ، فأنت لا تسلمين بأن فيهن من تستحق النظر ! . .

ـــ وهل كتبت إليك أنا ؟ . . استمع إلى قلبك ، لا إلى غرورك . إن قلبك ، عند ما تريد ، هو أكبر وأعظم ! وإنى ، إذ أحدثك هكذا ، لا أدافع حتى عن حبنا . . وإنما أنظر إلى ما هو أسمى من ذلك . وأفكر فى مواهبك . فهن سيفسدنها عليك . وكلهن يردن الاتصال برجل شهير . فحذار ، إذا كنت تحب مجدك . . حذار من الفتنة بالنساء : متاع الغرور ! . .

فلما مضى عنها ، وقد اغرورقت عيناها بالدمع ، نظرت إلى مرآتها ، وقالت : « إن المستقبل لا يمكن أن يكون لى . فلم أعد إلا شيئاً قديماً ضعيفاً . . ولكننى قد تمكنت من مجامع قلبه ، ولن تمتد يد إلى اختلاس الماضى . . . » ! .

أما هو ، فى عودته إلى بيته بشارع كاسينى ، فكان يفكر هكذا : « إنها لا تذكر كيف نالت بالأمس كل شىء . . فهى تريد أن يكون الغد لها أيضاً . . يا للمغالاة ! . . » . . و « . . . ثم هى تتحدث عن كفايتى ومواهبى ! . . ولكننى فى حاجة إلى إنعاش هذه الكفاية ، وتغذية هذه المواهب ! . . فلا يجوز أن نحول الاحتياجات الفنية البسيطة إلى خيانة مؤلمة ! . . » . . ومع ذلك فقد ظل ضميره يحاسبه . فترك خطاب المرأة المجهولة بضعة أسابيع بلا جواب . . وبعد لأى كتب :

[سيدتى ، أتوسل إليك أن تذكرى لى اسمك ! . .]

لجاءه ردها :

[المركيزة دى كاسترى ـــ شارع دوباك]

فبهر : « صدق ما خمنته ! . . أهذا هو ما تطلق عليه لور : « امرأة فارغة » ؟ . . الأولى ألا أحدثها بعد فى هذا . . هذا الذى يقدمنى فى مجتمع باريس . . . ولكنها صدقت فى توصيتها لى بالحذر . . إن مركزى يقضى بذلك . . فإذا كانت سيدة كبيرة تعجب بى ، وتعطينى عنوانها ، فلن يكون ذلك سبباً للجرى إلى لقائها . . يجب أن أنتظر ، حتى تسألنى هى ماذا أنتظر » . .

وكان من القوة بحيث انتظر فعلا . صبر وظفر . . ولم يقصد قصر شارع دوباك إلا فى ٢٨ فبراير ١٨٣٢ ، بعد ما وجهت إليه الدعوة . على أنه كان يذوب شوقاً لرؤيتها . وقد سأل عشرين شخصاً عنها . وكان يعلم أنها سيدة عريقة ، تعيش منفصلة عن زوجها ، وأنها على جمال عظيم ، وأنها قد عرفت الحب عن غير طريق الزواج ، باتصالها بالأمير ڤيكتور دى ميترنخ ، ورزقت منه ولداً . . ولم يكن هذا كله إلا ليزيد نار بلزاك اشتعالا !

وفى الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم الثامن والعشرين ، كان قد استأجر مركبة لتوصله ، ولم تكن قد جاءت بعد ، فهو ساخط . . وسلموه خطاباً . . فاستعاذ بالله من أن يكون تغييراً للموعد ! . . ولكن طابع البريد كان من بولونيا . مدهش ! . . أتكون هناك معجبة بعيدة ؟ ! . كان الأمر كذلك فعلا ! وكان الخطاب من امرأة ، امرأة قرأته ، وقرأته بعناية ، وتحمست لكتبه الأولى ، ووقعت خطابها بإمضاء « الاُجنبية » . . وكان خطها أنيقاً ، دقيقاً . . وكان أسلوبها رقيقاً ، شاعرى اللهجة . . كانت فيه نفس تحس ، وتشعر . . فابتسم ، قائلا لنفسه : « إذن فأوربا كلها تقرأنى ! . . سأروى ذلك فى قصر شارع دوباك . . وكل محبوب يغار فيسهل ! . . »

وجاءت العربة أخيراً ، فألقى نظرة أخيرة على سترته الجديدة الخضراء ،

وصدريته الكشمير ، وأهاب بالسائق أن يسرع . . وصار يمنى النفس ، فى الطريق ، بعقد محالفة بين المجتمع الراقى الأرستقراطى وبين أفكار أونوريه دى بلزاك ! . فكلتا القوتين بحاجة إلى الأخرى ! . حتى إذا ما وصل ، راقه ذلك الحى ، الصامت ، النبيل . .

ثم دخل القصر متحدياً ! . . فأدخلوه إلى خدر المركيزة ، حيث كانت معتكفة ، متمددة على ديوان ، فى ثوب بيتى (بنوار) من الكشمير البنى . . فرأى ، من أول نظرة ، أن شعرها الأشقر يتألق كالذهب البندقى ، وأن محياها شبيه بوجه دمية صغيرة . . فانحنى . . فقالت :

ــ ما أشد سرورى بمعرفتك يا مسيو بلزاك ! . . ولكننى آسفة لأنك تجدنى اليوم مريضة ! . .

وكان أمامها ، على مقعد كبير ، سيد فى بذلة سوداء ، فقال بلزاك :

ــ سيدتى ، تجنبى الأطباء ، وأنت تشفين ! . .

فقالت المركيزة ، مخاطبة الرجل ذا البذلة السوداء :

ــ أسامع يا دكتور ؟ . .

فتمتم بلزاك محاولا أن يعتذر بأنها دعابة بريئة . . ولكن الرجل نهض ، وحيا المركيزة ، وانصرف ، دون أن يعير بلزاك نظرة . . . وكان كل ما حول المركيزة ينطق بالثراء الطائل ، والذوق المصفى : هذه التحف ، والتحائف ، والمراوح ، واللعب ، وقوارير العطر ، والطرف : لوازم المرأة الأنيقة التى تهيم بها ، وأثاث القرن الثامن عشر النادر ، وبساط هو متعة للعينين ، ولذة للقدمين . . وما إلى ذلك مما ينطق عن : اليسر الموفور ، والجاه العريض ، والعز الطويل . . . قالت المركيزة :

ــ والآن نخلو لنتحدث . . .

وعندئذ تجلى له حسنها العجيب ، ومحياها الوردى النضر ، وجبينها الفاتن ،

الذى كان لا ينقصه إلا التاج ! . . وكان شعرها مزيجاً من الذهب والحمرة ، فهى شقراء ، غير أن فى شقرتها ناراً تتلظى ! . وكان ثغرها بريئاً ، وعيناها فاجرتين ! . . قالت له :

— لقد كدت أيأس من رؤيتك ! . .

فأجاب بلهجة الصدق :

— سيدتى ، إن حياتى عمل شاق متواصل . . والعمل هو كل شىء عندى . فأنا لا أخرج أبداً !

— آه ! . . يا مسيو بلزاك ! . . بالله لاتبالغ ! . . فقد كنت منذ خمسة عشر يوماً عند البارون چيرار ، ويوم الثلاثاء عند صديقتى المركيزة دى لابوردونيه !..

— إننى لم أمكث إلا ساعة ! . .

— إننى لا أعتب عليك شيئاً . . ولكن . . لقد غرت ! . .

وحدثته عن بطلة إحدى قصصه ، وسألته : هل لها وجود فى حياته ؟ . . فتركها تفهم ، من طرف خفى ، أن لها فى حياته وجوداً ! . .

لقد كان للمركيزة ماضيها . . فحرصت على أن تشعره ، للوهلة الأولى ، بأن له ماضيه . . غير أنه كان من دونها الغيور ! . . وتساءل :

— ما أعظم فضلك بدعوتى إليك ! . . فأين لنا ، نحن الفنانين ، العماد المخلص ؟ . . أين الأصدقاء الحق ؟ . . . أنّى لمن كان مثلى أن يلقاهم ؟ فإنى أنام فى الساعة السادسة ، فى الوقت الذى تستعدون فيه للذهاب إلى المراقص ، والسهرات . . وقد حالت تلك المشاغل طويلا بينى وبين الحضور لرؤيتك . . فقد كنت منطوياً على ذات نفسى ، أتأمل ما يدور فى دماغى ، وأدوّنه ، وكأننى لم أعد إنساناً من هذا العالم ! . .

فبدا عليها الإصغاء له بشغف . فقد بدأ يتكلم ، ولا يتوقف . . ولما دقت الساعة الخامسة نهضت ، معتذرة إليه بأنها مضطرة إلى الخروج :

ـــ . . ولكننى سعيدة بزيارتك . واعلم أنك تجدنى دائماً فى المساء ، حتى العاشرة . . .

فخرج مفتوناً . وحدث نفسه ، وهو ينزل شارع دوباك ، متجهاً إلى طريق سيفر : « سوف أحبها ! . . سأحبها ! . . إنى أحبها ! . . أخيراً ، قد وجدت امرأة جميلة ، دونها أهوال ! . . هذه هى نشوة الحياة والحب ! . . إنى أذوب شوقاً إليها . . وإنى أريدها قبل أن تطلع شمس الغد ! . . وإنى ، ولا شك ، قد عرفت من قبل امرأة هى ملك . . امرأة فعلا . . ولكن هذه هى أنثى بكل معانى الأنوثة ! . . هذه امرأة ، ليست أماً ، وليست صديقة ، ولكنها خليلة ! . . »

وسار مسرعاً ، حتى تصبب عرقاً : « إنى أسمن . . وهذا فظيع ! » . . ونادى مركبة . . وبدل أن يعطى السائق المندهش عنوانه قال : « لا بد من خليلة ، آية فى الجمال ، تتحدى كل النساء والعذّال . . أما ما بقى من الحب فليس إلا خِبّاً » ! . .

وبعد يومين ، فى الساعة العاشرة مساء ، كان عندها . وكانت المركيزة فى ثوب الرقص ، وفى زهوة الحسن . وكانت واقفة أمام المصطلى ، تدفىء قدميها الصغيرتين . . فبادرها بقوله :

ـــ أنتِ ! . . إنك جديرة بالآلهة والأرباب . . ولشد ما أنا آسف ، لأننى لست إلَا بشراً ! . .

فابتسمت ابتسامة فاتنة ، وقالت :

ـــ إنى لا أرى بك بأساً كرجل . . أتعرف أن لى صديقة وافرة الجمال . . تحبك ؟

ـــ وافرحتا ! . . أسرعى فاذكرى لى اسمها ! . .

فتمنّعت :

ـــ يستحيل علىّ ذلك ! . .

وكان دلالها يزاحم جمالها . فكاد قلب بلزاك يقفز من ضلوعه ، وهتف به صوت داخلي : « يا ويلتا من ألا سبيل إلى القول على الفور لامرأة كهذه : إننا نحبها ، وإننا نعبدها ، وإننا نريد العيش دائماً معها ! فهكذا هكذا تكون الحياة جميلة ، ويطيب العيش ! . »

ولاحظ عليها أنها إن لم تكن مفتونة به ، فعلى الأقل بشهرته البادئة ، وأنها ، على الضد من كثيرات من النساء اللواتي يفتحن صالوناتهن فى باريس لمشاهير الرجال ، كانت تريده لنفسها ، لا لتعرضه على صاحباتها . . فيالها من امرأة عزيزة ! . . وراحت تقرأ عليه مقالا فى إحدى الصحف عن كتبه ، أنكر اطلاعه عليه ، فقالت :

— إذن فاسمع : « إن كتب بلزاك سببت الأرق والسهاد فى قصور الأغنياء ، وفى أكواخ الفقراء ، وصوامع الشعراء ، على السواء . . . »

وكان هو الذى كتبه ! . . فعادت تقول بحرارة :

— ليت شعرى ماذا يصيب النساء اللواتى يهمن بك ، لو أننى أخذتك معى فى الربيع إلى قصر من قصور ڤينيسيا (البندقية) . . وهناك ، نغلق على أنفسنا بابنا ، أنت وأنا ، فلا تكتب عندئذ إلا لى ! . .

ڤينيسيا ! . . قصر ! . . أنا وأنت ! . . لقد أصيب بالدوار من هذه الكلمات . . ماذا تعنى بها ؟ . . أهو منها غرور ؟ أم هو حب ؟ . . أم هو حلم ؟ . . أم هو حق ؟ . .

فلم يجبها . . وإنما ارتمى على كوفيتها ، وقبلها كالمخبول . . فقالت لجأة :

— رباه ! . . قد انتصف الليل ! . . إنى قد تأخرت إلى حد فظيع ! . . أتحب ساعة الحائط الصغيرة هذه ؟ إنها كانت للملكة مارى أنطوانيت . . وفى ڤرساى كانت تعد لها ساعات هنائها الأخيرة . .

فقال بلزاك : « رباه ! . . إنها لاتدلنى أنا إلا على الدقائق المؤلمة التى ينبغى

لى عندها الرحيل ! . . »

ويالها من ليلة قضاها ! . . ويا للأيام التى تبعتها ! . . إن الحب الآن يجيش فى صدره ، ويلعب برأسه ! . . ولما عاد إليها ، بادرها ، قبل التحية ، بقوله :

ــ إنى أعبدك ! . . إنى لا أستطيع العيش محروماً منك ! . . إننى لم أشعر قط بالحب قبلك ! . . إنك أنت التى تعلمنى الحب ! . . إنك امرأة هبطت علىّ من السماء ! . .

فنظرت إليه برعب ، وابتعدت ، وتشاغلت عنه . . ودقت الجرس لخادم لتكلفه بأى شىء . . وتغير الجو . . ثم قالت بصوتها الذى لا طابع فيه من التأثر ، قالت لذلك الرجل الذى عبر لها بغفلة المجنون عن العاصفة التى تهب على قلبه :

ــ هذا خبر جديد . . من ذا الذى كان يخطر له مثل هذا ؟ ! . .

وكانت تلك المركيزة دى كاسترى امرأة لاتعرف الحب . كانت امرأة صالون ، ومظهر ، ووجاهة . . كانت تريد أن يتهالك عليها هذا العبقرى الفذ ، والنجم البازغ فى سماء الأدب ، حتى تستغله فى أهوائها الشخصية ، ونزعاتها السياسية ! . . فسخرته فى الدفاع عن « الدوقة دى برى » . . وبذلك أقحمته فى الحزبية ، هو ، الكاتب الروائى ، الذى كان يجب أن يبقى بنجوة عن الأحزاب . . فانقاد ، مغمض العينين ، واستسلم لهذه الأهواء كالطفل ، زاعماً أن هذا هو الحب ! . .

وتورط فى المظاهر . لابد من أن يصبح فى ثيابه ، وهيئته ، وفى عيشه ، ومسكنه : منسجماً مع ذلك الحزب السياسى الوجيه ، الذى ينطق بلسانه ، ويدين بمذهبه ! . . فهو يوصى خائطه « بويسون » ، بشارع ريشليو ، بأن يتخير له ألواناً وأشكالا معينة من الردينجوت ، والصدريات الكشمير ، وغيرها وغيرها . . وكان هذا « الترزى » رجلا متسامحاً ، ساذجاً ، يمد حبال الحساب لهذا الكاتب الشهير ، ويضعف للفصاحة ، ويتأثر بالبلاغة ، ولا يستطيع أن

يقاوم خلابة عميله القصصي الجذاب ، فدخوله عنده ، وحديثه معه ، وتوصيته إياه ، تساوى لديه ما تساويه النقود مئة مرة ! . .

ويقرر أونوريه شراء مركبة بحصانين إنجليزيين مطهمين ! . . ويصر على أن يكونا أنيقين ، يتطاير من حوافرهما الشرر ، ويتصاعد من شدقيهما الزبد ! . . ثم لايلبث أن يشكو كثرة أكلهما ، ويقول : « يا للملعونين ! . . إن حساب الإسطبل ليس له آخر ! . . إنهما لايتغذيان بالأشعار ! . . » . . ولكنه لم يكن يدفع حساب الترزى ، ولاحساب الإسطبل ! . إنه كان يمنى النفس بالدفع السريع . . أوَليست لديه مع ناشرى كتبه عقود عظيمة ؟ . . . وعليه أن يمضى فى العمل ، العمل المجهد الذى سوف يتمخض عن آيات بينات ؟ . . ويمكن لدائنيه أن يناموا ملء الجفون ، فهو لايلبث أن يلعب بالذهب ، ويقيم المآدب الفخمة ، والاستقبالات المشهورة ، ويدعو إلى الأوبرا ، والمطاعم الشهيرة ، والشانزليزيه ، ويفتح الصالونات ، ويشهد المراقص والحفلات . .

وفى أثناء ذلك الهوس بالحب الأرستقراطى ، وبأرستقراطية الحب ، تكتب إليه مدام دى برنى ، من ضيعتها بقرب « نيمور » ، تقول :

[تعال ، لترانى ، يامعبودى ! . . ستكون هنا ، إلى جانب عزيزتك ، أسعد ماتكون حالا ، وأخلى بالا ، فتكتب كثيراً ، وتكتب طويلا . . وسأساعدك ، وسألهمك ! إن الحب خلاق عظيم !]

فيجيبها :

[ليتنى أستطيع ياصديقتى المسكينة ! فانى فى صدد المفاوضة فى عملية نشر قد تحول حياتى وتبدلها ، وبقائى ضرورى . ثم لا بد من الكتابة أيضاً ، والكتابة دائماً ! . عشر ملازم فى اليوم ! وأنا أشتغل الآن سواد الليل . فالى اللقاء أيتها العزيزة . . فكرى فى قبل المنام . فهو الوقت الذى ترتاح فيه جميع الكائنات ، أما أنا فأبدأ فيه العمل ، وأدأب ! . .]

ولم يكن فى هذا كاذباً إلا بعض الكذب . فإن الحياة المترفة التى دخل فيها تتطلب نفقات طائلة . يريد أن يمثل الحب ، ويمثل الحزب . فهو يغرق الآن غرفته بالزهور : « لم يعد لى الحق فى أن أستنشق كفلاح ، كما لم يعد لى الحق فى أن أفكر كخفير ! . »

وهو يفكر ، ويتنفس ، ويكتب ، ويجرى ، كعاشق واله مفتون . فيقضى ما بعد الظهر كله مع المركيزه . وفى المساء ، يجلس إلى جانبها فى مقصورتها بدار التمثيل . ثم يقودها إلى قصرها . وفى المركبة يتناول يديها ، وذراعيها ، ويقبّل ركبتيها . . وهى تدعه يلهو ويعبث ، حتى إذا ما كانت زاوية شارع دى ڤارن وشارع دوباك ، أصلحت من شأنها ، وزينتها ، وشعرها ، واستردت جمود الوجاهة ، وقالت له ، أمام خدمها وحشمها ، على عتبة القصر : « وداعاً يامسيو دى بلزاك ! » . . وهذا مايصعق له العاشق المشدوه ! . .

فيهرب فى صميم الليل ، لايلوى على شىء . .

من تكون هذه المرأة ؟ . هل هى ملك كريم ؟ . هل هى وحش ضار ؟ . . لماذا تتركه يتناول منها القبلات المجنونة ؟ . . لماذا تهمس بكلمات مستعرة ؟ . . لماذا تستسلم للأهواء والبدوات ، ماعدا : الهوى الأعظم ؟ ! . . ماذا تريد ؟ . . ماذا تنتظر منه سوى أن يطلب مايطلبه بإلحاح المجانين ؟ . . فإذا كانت لا تحبه ، فكيف تعطيه يديها ، ووجهها ، وشفتيها ؟ . . فضلا عن نظرتها ، وكلمتها ، وقبلتها ؟ ! . ثم هى تندفع إليه فى هوس ، كاندفاعه إليها . . ثم لا تلبث أن تتمالك ، وتتماسك ، وتمتنع دائماً ! . . فهل امتلاكها أمرها ، وسيادتها على نفسها ، وتحكمها فى عاطفتها ، هو مزاجها وشهوتها ، وليس لها غيرَ ذلك شهوة ومزاج ؟ ! . . إذن فهو شيطان الكبرياء قد تمثل امرأة ! . . فى حين أنه ، هو ، الكاتب الشاب ، يتكسر ضلوعاً ، ويتقطع أنفاساً ، ويموت اشتهاء ! . . .

وكان كلما زعم أنها أصبحت له ، صارت أبعد ما تكون عنه . . كانت

تحاوره ، وتداوره . . كانت امرأة من ذلك النوع الوصولى ، الذى يريد أن يبلغ أغراضه فى الجاه والسلطان ، ولو على أشلاء الرجال . . ولو داس ، فى كل خطوة ، القلوب ، والعقول ، والأجسام ! . .

وجاءها ، ذات يوم ، وهو يشتعل ، ويتلظى كالجمر الحبيس فى الموقد ، معتزماً كل شىء ، بعد ما كان قد غادرها فى الساعة الثانية صباحاً ، وقد أنهكته ألوان من الملاطفة المضنية ، والملاعبة المهلكة . . فوجدها فى حديث جدى وقور مع رجل من كبار رجال الدين ، تعترف له ، وتفضى إليه . . فعرفتهما بعضهما ببعض ، قائلة :

ـــ لقد كنا فى انتظارك ، يا مسيو دى بلزاك ، « المنسونيور » وأنا ، لنسمع من فمك القول بضرورة رد عظمة الدين السابقة إليه ، وإعادة جلاله . . أوَليس واجباً على فرنسا أن تعيد إلى الأساقفة مقاعدهم فى مجالس السلطان ؟

فبهت بلزاك ، وكاد ينفجر . . وأحس بأن فى داخله أسداً غاضباً يزأر . . فنظر إليها بعينين ناريتين ، لم تلبث أن خبت نارهما ، وحل محلها نورهما . . فقد كانت امرأة شائقة ، ناصعة ، فى ثوب أزرق ، تتدلى أكمامه ، ويتساقط الهناء من أناملها ، أنامل تلك اليد الناعمة ، البضة ، ذات الأظافر العنابية ، التى طالما أمسك بها ، وضغط عليها ، وطالما لثمها ، وقبلها ! . . رباه إن الأسد قد ارتد نعامة ! .

وانصرف القس بعد ساعة لاحت دهراً . . فتمتم بلزاك والدموع فى العينين :

ـــ أيكون لك إذن قلب مجرمة ، ليحمل كل هذه التعذيبات ؟ أفلا تشعرين بأنى أتألم ، وأنى أموت ، وأنى سأذهب ، وأنى سأنتقم ؟ . .

فرفعت كتفيها الصغيرتين ، وأضافت إلى النار خشباً ، وقالت :

ـــ عند ما يكون المرء نبيل المنبت ، فعليه أن يقوم بتكاليف النبل . أما وأنت نبيل ، مادمت توقع باسم أونوريه دى بلزاك ، منذ سن السابعة والعشرين ،

ولم تترك لقب الشرف هذا إلا عند ما اشتغلت بالطباعة . . أليس كذلك ؟ . .

فأحس بأنها تتعمد أن تجرحه . . وبدا له أن يرتمى عليها . . وأن يصرخ فيها : « أى حيوان هو أنت ؟ ! . . لقد خدعت فيك ! . . »

ولكنه ما كان ليأتى بحركة غير موجهة من مخيلته ، تابعة لنزعات قلبه الكريم . . فتوقف ، وجلس ، وأخذ رأسه بين يديه ، وزفر : « رباه ! . رباه ! . . »

وأعلن الخادم حضور أحد الناس . وارتجف الأسد على ساقيه . وانسحب ، وهو يلقى على ربة صبابته نظرات التائه الضائع المحروم .

ووجد فى ذلك المساء رسالة من صديقة كريمة ، هى مدام زولما كارو Zulma Carraud . . وكانت فى سن أخته لور ، وكانت رفيقتها فى المدرسة . وقد رآها عندما تزوجت من كابتن فى المدفعية ، وسكنت فرساى ، ثم سان سير ، وقد زعم عندئذ أنه بحاجة إلى وثائق تدعم قصته المشهورة « المعركة » ، فتقرب من الحربيين . ثم صار الكابتن قومنداناً . وانتقل وأسرته إلى « أنجولم » مع مدفعيته . وكانت مدام كارو امرأة رقيقة ، ذات قلب رشيد ، وذكاء حاد ، وفكر أنيق . تذوقت فن بلزاك الرفيع فى قصته : Chouans ، و « المرأة فى الثلاثين » . . وكانت مفتونة باستقبال مؤلفهما فى دارها ، فكتبت إليه :

| تعال إذن ، يا بلزاك العزيز ، فالقومندان ينتظرك . ولن نزعجك . فتستطيع أن تعمل هنا خيراً مما تعمل فى باريس ، قاتلة الرجال ! . . |

ولم يكن على استعداد للشعور بالصداقة الكريمة الخالصة فى مثل هذا الخطاب . فكتب مبدياً أسفه لأنه ليس حراً . فهو مشدود إلى مكتبه كالمحكوم عليه بالأشغال الشاقة ، المقيد بالأصفاد ! ويستحيل عليه أن يضيع يومين فى الرحلة . ولا يجوز له التفكير فى الخروج من فرقته . بل إنه لايكاد يستطيع الرد بخطاب طويل . فيالها من حياة ! وما دامت أسرة كارو تظهر له المحبة ، فهو يعتمد على صفحها وعطفها .

واستغرق منه هذا الخطاب خمس دقائق . ثم مضى من جديد ، جسما وروحاً ، إلى جنونه العزيز . . فزعم نفسه عند المركيزة دى كاسترى . فهو يراها ، ويدنو منها ، ويلمسها . ربما كانت المرأة صانعة زائفة . ربما كان قلبها ملوناً كوجهها . بيد أنها ، مع ذلك ، فى زيفها . . يالها من امرأة ! . . وياللنبل ! . . ليس فيه من التبذل لمحة .

وهو إذ يفكر فيها ، يراها معيناً للقوة ، ومصدراً للإلهام ، مادامت مخلوقة كريمة العنصر ، نبيلة المنبت : « إننى لا أعبدها عبثاً ، إن عملى مرسوم ، وجهدى مرقوم . . إنى أراها تخفق بين يدىّ . . وأملى فيها قوى عريض . . . وسأجعل منها امرأة حقيقية ! . .

وظل فى هذا الجحيم ثلاثة أشهر . وهو معتزم أن يحول الجحيم نعيماً . وقد كف عن التهديد ، كما كف عن التوسل . فشكرته بأن أرسلت إليه يوم عيده ، فى ١٦ مايو ، زهوراً . وقد وجدها من الجمال بحيث جفف بعضها ووضعها فى كتبه . ثم بدا عليه أنه منذئذ يعرف المستقبل ، ولم يعد يشك فيه ، وراح يتسلف الابتسام له ، والترحيب به . .

وانحنى على كتفها وهو يقول :

ــ لشد ما نكون سعيدين ، يا سيدتى . . عندما تصبحين خليلتى ! . .

ــ وبعد ! . . إذا أنا سلمت لرغباتك المبتذلة الشنيعة ؟ .

فقبل يديها بصبابة :

ــ يالك من معبودة !

ــ ثم تخوننى بعد ذلك . . فأى ضمان لى ؟

ــ أقسم أن أقتل نفسى إذا خنتك ! . .

ــ إذن فأنت رجل محكوم عليه بالموت ! .

يالهذا الغرام ! . . وآه من لذاته ! . . قال بلزاك :

ـــ هاتى الجبين الذى يفكر فى مثل هذه الأمور ، وهاتى الفم الذى يعبر عنها ! . . هاتى ! . .

فتبيح له من جديد ألواناً من العبث والغزل أشد ماتكون جرأة . . تبيحها بعدم اكتراث يحير العقول . . أو تبيحها ببراعة رذيلتها الفائقة ! . .

ثم حدث يوماً ـ بعد كل هذه الإباحة المتكررة ، التى جعلته يتوقع الهناء الموموق بين عشية وضحاها ـ أن رآها تصدر الأوامر المستعجلة فى بيت يلف فيه الخدم السجاجيد والبسط ، ويضعون البياضات على الأثاث لحفظه من التراب . . فدهش :

ـــ ماذا يجرى ؟ . .

ـــ يجرى ما أعلنتك به منذ أكثر من ثمانية أيام ، ولكنك لم تكن تسمع إلا ذات أقوالك . . فإنى مسافرة إلى « إكس لوبان » لأستريح . . وعندما يطيب لك أن تجىء لترانى . . .

ـــ أنا ؟ . . آه ! . . أبداً ! . . أبداً ! . .

وهكذا ارتد من جديد أسداً غضنفراً ، ينفث فمه ناراً ، وترسل عيناه برقاً :

ـــ ولكن أية امرأة أنت ؟ ! .

ولم يرها بعد . بل تركها ترحل وهو يزفر فى بيته لاعناً الحب ، إذ أحس بنفسه يتحول رجلا شريراً ، حقوداً ، مذنباً . . آه ! ما أحوجه إلى نفس لطيفة ، تعزيه ، وتشفيه ، وتجعل منه رجلا متزناً ، كريما ! . . ففكر فى مدام دى برنى . ولكنه لايستطيع أن يلقاها فى هذه الآونة ، وأن يعانى أسئلتها ، وأن يعترف لها ، لها هى « الملك » ، بأنه ـ على رغم كل شناعات هذه المرأة التى لاروح لها ـ ما زال بها صباً مدنفاً ! . . فظل بضعة أيام حيران يتخبط : يستقبل أصحاباً ، ويشرب خمراً ، ويثرثر ، ويفوه بأقوال شرسة ، ويوصى بملابس جديدة ، لأنه لايستطيع ارتداء تلك التى كانت تقول المركيزة إنها تحبها ! . . وحبس نفسه ،

يحاول الكتابة . فلم تتمخض خلوته إلا عن صفحات شريرة تسب الحب ! . .

وأخيراً ، بينما كان يرتب أوراقه ، وجد خطاب مدام كارو ، ذلك الخطاب الرقيق الكريم من صديقة مخلصة معجبة : « تعال ، أيها العزيز بلزاك ، فلن نزعجك . . وستعمل هنا خيراً مما تعمل فى باريس قاتلة الرجال » . . فرأى ، من خلال ذلك : الراحة ، والهدوء ، والبوح ، قرب امرأة لها قلب ، تصغى إليه ، وتدرك مابه . فأسرع بالكتابة :

[إنى آت ... إذا كنتم مازلتم ترغبون فى]

ولقد كانوا فيه من الراغبين . فتهافت الزوج والزوجة وولدهما « إيفان » على قارعة الطريق ، ينتظرون عربة البريد التى تحمله . . وقد وضعوا زهورا فى غرفته . فصاح ، إذ رآهم ، بصوت يتهدج تأثراً :

— الآن أعرف ماهو الهناء إذ أراكم ! . أيتها الوجوه العزيزة ، ياللطمأنينة التى تشيعونها فى نفسى ! . . إنكم تنقذوننى من حياتى الشاقة ! . . وأحس أنكم تحبوننى . . وإنى آت إليكم كما لو كنت أقصد طبيباً معالجاً ! . . وقد نبذت أعدائى ، وأشغالى ، وأوراقى ، وكل شىء ! . . وجئتكم بقلبى وحده . قولوا لى فى أية ساعة نتعشى ، ومتى ننام ، وبم يلعب الولد ، إنى اليوم طفلكم فى إجازة . أعدوا لى خبزاً مدهوناً بالزبدة . . هل علىّ أن « أرش » الحديقة ؟ وأريد أن أربى الأرانب ! . . أيتها الصديقة العزيزة ، إنى أرى على وجهك نضرة . . وكذلك القومندان ، لولا بعض التكرش ! . . ماذا يقول ؟ . إن لى كرشاً مثله ؟ أتعرفون أنى أحب هذا الحوش ، وهذا البيت ، وهذا الزيزفون؟ . . هل حصدتم زهراً ؟ . آه ما أنقى هذا الهواء الذى نستنشقه ! . . إنى إلى جانبكم أضع نفسى المعذبة ، لتستجم ، وتستروح ! . .

ونرى زولما كارو مشفقة من أن يجدها قد أصبحت فلاحة ، معتمدة على الصداقة لتمحو عنده ما صبغها به الريف . . فما أكثر ماقرأوه فى الصحف عن

بلزاك . . وأنه لايتبع « الموضة » فحسب ، بل يبدعها ! . وأن النساء يتبعنه تارة ، وأنه يتبعهن تارة أخرى ! .

وهو يشكر ذلك بتراخٍ . . وكان البيت بسيطاً ، منيراً . فالصالون وقاعة الطعام فى الدور الأرضى ، والغرف فوقها . وكانت ، غرفة بلزاك منفصلة بمخدع صغير عن غرف كارو .

ويستأذن القومندان ليذهب إلى عمله . ويخلو بلزاك بمدام كارو ، فتقول له :

ــ سأتركك الآن لتستريح . . .

ــ ماذا ؟ . . تتركيننى وحدى ! . . لكى أهلك من الضجر ! . . إننى لا أرتاح إلا مع الحديث . . أين نذهب لنتحدث ؟ . . هنا ؟ أم فى الحديقة ؟ أم على شاطىء النهر ؟ . .

ــ هنا . . لنرعى إيفان . .

وكان كل ما حول بلزاك عندئذ : عشباً ، وزهراً ، ونسيما عليلا ، وعصافير صادحة . . وامرأة شائقة ، يحن القلب لما طبعت عليه من بساطة صريحة . هى واحدة من أولئك اللواتى يحس المرء أنهن ، طول العمر ، فتيات طاهرات . ولم يكن الوجه باهر الحسن ، غير أن النفس المتزنة تغدق عليه حسناً يتفجّر كالماء الزلال ، من فم نقى . وعينين هادئتين ، تريان ، وتحكمان ، بنزاهة وعدالة . وكان بها عرج خفيف . وكانت تذوب مرارة من عاهتها هذه فى سن العشرين . وقد بثت بلزاك ، يوماً ما ، حزنها لما أصابها به القدر . . فعزاها صادقاً بقوله :

ــ قد تظلع قدمك ، أما عقلك فهو رصين مكين . . وستكونين زوجة عظيمة ، وأماً لامثيل لها . .

لم تنس ، فيما بعد ، هذه الكلمات الرقيقة . . كما كانت قد ذكرت فى يوم زواجها . رغم أنها كانت سعيدة ، مرحة ، أونوريه بلزاك ، شقيق إحدى صاحباتها ، الذى كان دائماً رقيقاً ظريفاً ، تلمع عيناه فطنة ، ولا ينطق إلا بما يوحيه إليه

الفؤاد . . ذكرته فى لحظات تأثرها ، وحلمت به ! . .

ولم يكد يمضى عليهما معاً ربع ساعة ، حتى كان روحاهما المتحابان يتناقشان بحدة . . قالت :

ــ إنك تعلم يا صديقى العزيز إعجابى بك ، وحرصى على مكانتك ، وما أنتظره من مواهبك ، وشغفى بكتبك . . أتطلع كأختك إلى ماسوف تصدره لنا منها غداً ! .. ولكنى قلقة عليك . . لأنك بدلا من أن تدخر قواك ، التى أنت فى أشد الحاجة إليها ، لهذا العمل ، الذى هو عمل مقدس ، توزعها ، وتبذر فيها ، فى مشاغل تحولك عن طبيعتك . . فى حين أن هذه الطبيعة هى التى عليك أن تتعهدها ، وترعاها ، وتتعمق فيها ، لتكون صيحاتها يوماً صيحات العبقرية ، التى ينتظرها أولئك الذين يحبونك . . . ولشد ما تألمت ، وأقسم لك ، من قراءة تلك السخافات عنك . . لحفلاتك . . ودعواتك . . وزينتك ، وهندامك . . و . . غرامياتك ! . .

ــ غرامياتى ؟ . .

ــ بلى ! . . مادمت تسمح بأن ينشروا عنك أن كل قارئاتك يتغزلن فيك .

ــ هذه غباوات ياصديقتى العزيزة !

ــ أعرف ذلك ، ولكن هل هناك دخان بلا نار ؟ أحقاً أن لديك فيتوناً ومركبة ، وخيولا إنجليزية مطهمة ، وحوذياً فى حلة الأمراء ؟ . . وأنك تنزه فيها مدام دى چيراردان ؟

ــ هذه تكاد تكون رفيقة الصبا ! . .

ــ حسناً ! . . لا أرى فى هذا ضيراً . . إذا كانت العربة عربتها ! . . ولكن من الذى يدفع تكاليف عربتك ؟ . .

ــ إننى أدفعها كلها ، حتى آخر دانق ! . .

ــ متى ؟ كيف ؟ ثم بأى جهد ، وأى ثمن من دم القلب وعرق الجبين !

ــ أي صديقتي العزيزة ، صديقتي الطيبة ، إن المستقبل لله . فهو الذي يوجه خطانا . ولكن ليس لى أن أعيش ، فى حاضرى ، عيشاً ذليلا خاملا . وآه لو عرفت كم فكرت فى هذا كله ، وأنى لا أصدر فى تصرفاتى عن نزق وطيش ! . . ففيم إذن الحضارة ، إذا كان خيارنا لا ينتفعون بها ؟ . . إنها النفوس المرهفة الحس ، الخليقة بأن تستمتع بطيبات الحياة . . فلماذا لا تؤمنين بأن الترف لازم لى لزوم الخبز الغليظ للآخرين ؟ . . هناك عميان لايفرقون بين زوج من الأحذية ، ذى الجلد اللامع كالبلور ، وآخر ذى جلد مشقق مرقع كالبثور ! . . أما أنا ، فمتى نظرت ، رأيت ، وفرقت ، ولم أعد أستطيع أن أضع فى قدمى الزوج العتيق . . استحالة مادية ، وعملية حسابية ! . . ولاينبغى أن تؤاخذ أو تلام على ذلك عيناى ، وذوقى ، وروحى ، ومزاجى ، وشعرى ! . . فالحاجة إلى تغيير ثيابى وأزيائى ، قد لا تكون إلا قصيدة من الشعر ! . ولكننى فى حاجة إلى هذا الشعر المنظوم فى خيوط وألوان . . وليست تهمنى تكاليف ذلك . . وإنى أبعث معها إلى الشيطان بدفاتر الحساب ! . . إنى أبدأ ، أولا ، فأشترى ما لا غنى لى عنه للعيش . . ثم أدفع فيما بعد ، كيفما استطعت . . ونظرة إلى ميسرة ! .

ــ عفواً يا عزيزى أونوريه إذا قلت لك إننى لا أفهم هذه القاعدة فى الحياة . . قد أكون جاهلة . . على أنى لاأرى قط بيتاً صغيراً مكوناً من حجرتين ، وحديقة ضيقة ، يتبعها حقل ضئيل من البطاطس ، إلا غبطت المصير المتواضع الذى صار إليه سكانه . . فكيف يمكن أن نرغب فى الغنى والثراء ، مع كل مايمثله الغنى من غرور ، وضجر ، وحمّى ، ومظالم ؟ ! . . إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ! . .

ــ آه ! . إنك امرأة ! . . فيا أيتها الصديقة العزيزة الحنون . . هل تنكرين إذن كل ما له شأن فى المجتمع ! . .

ــ إن ما له شأن ، ووزن ، هو الروح ! .

ـــ لكن الروح يشيد ، ويشترى ، ويحب القصور ، واللوحات الجميلة ، والحلى ، والجواهر ، والخيول الأصيلة ! . .

ـــ ليس للروح أن يسعى إلى التلف ! . .

ـــ وفضلا عن هذا ، فليس لنا جميعاً ذات المصير . وما كنت لأستطيع المجيء هنا لأستريح فى هذه الحديقة الصغيرة كالفردوس ، مع امرأة فائقة مثلك ، إلا إذا كنت أضنيت نفسى فى مكان آخر . . .

ـــ إنك تضنى النفس فى غير عملك ، وفى غير ما خلقت له . . ألست تجرى وراء نساء الطبقة الراقية ، وتتهافت عليهن ؟ . . ألست للدوقة « دى برى » الفارس التابع ؟ ! أنت ! أنت ! . . تكون لسان حالها ، وخادم سياستها وأهوائها ؟ ! . . أنت ، بلزاك ، يا من خلقت لتنير الشعب ، ولتعطيه فكراً حراً ، كريماً ، طليقاً ، واسعاً . . أنت ، بما أوتيت من ذكاء ، هو من أجمل ما فى عصرنا من ذكاء . . أنت تنزل ، وتصغر ، لتقوم بدور « المحسوب » ! . .

ـــ ولكن كيف ؟ ! . . ولكن كيف ؟ ! . .

ـــ محسوب طبقة أرستقراطية ، مجردة من العقل ، ضعيفة القوى ، فقيرة النفس ، بليدة الحس ، تعمه فى جهالتها ، إزاء كل الاحتياجات التى تنوء بها طبقاتنا الفقيرة ، تلك التى لاتنتظر إلا فرصة لتنتقم لنفسها مرة أخرى ! .

فقال بلزاك ، وهو يشبك يديه ، ويعجب بها ، قبل أن يتابع النقاش :

ـــ يا إلهى ! يا إلهى ! ما أشد اندفاعها ! . .

ـــ أجل . . هذا حق . . وإنى حمقاء إذ أقول كل ما أعتقد . . ولكنى أومن به إلى حد لا أستطيع معه السكوت عليه . . .

ـــ ياصديقتى ، أنت صديقة مدهشة ! . ولقد لمست بحديثك شغاف قلبى . . ولكن . . دعينى أفسر لك . . وأقسم ـ وهذه يمينى ! ـ أننى عاجز عن بيع نفسى ، سياسياً ، لكائن من كان . . .

فنظرت إليه ، ولم ترد عليه . . فأضاف :

ــ حتى ولا لامرأة . . لأنه من المحتمل أن تكون امرأة قد ساقتنى . . قد . . أحبتنى . .

فلم تتحرك زولما كارو . . فعاد يقول :

ــ أو زعمت أنها أحبتنى ! .

ــ ليس لى ياعزيزى أونوريه أن أحكم على هذا الجانب من حياتك . . وها هو ذا القومندان قد عاد من مكتبه . . فلندع هذا الحديث الذى لا يهمه ، حيث نستأنفه غداً . .

* * *

وفى اليوم التالى : أرادت أن تعود فتستمتع بروحه وفكره . . فأثارته من جديد بالتنديد بأرستقراطيته . . فصاح :

ــ آه ! كارا ! كارا ! . . أتمقتين إذن كل الذين ينتسبون إلى الطبقة النبيلة ؟

فقاطعته :

ــ أتزعمنى إذن بلهاء إلى هذا الحد ؟

واسترد الحديث حرارة الأمس . . تلك الحرارة التى لاغنى عنها للإفاضة بسرائر القلب . . فراح يروى لها كل شىء ، حكاية تلك المركيزة القاسية المترفعة ، الروحية ، العاشقة ، الغندورة . . وما كان أبدع وصفه لها :

ــ تصورى أنها كانت تريد أن تصحبنى معها إلى البندقية ! . . وتنزلنى فى قصر ! . حيث لا يكون فيه إلا هى وأنا ! . .

وكانت تلك ساعات غريبة مثيرة لزولما كارو ، التى كانت معتادة حياة عاقلة ، تسير على وتيرة واحدة ، بلا شغف ، ولا هوس ! . بل إن الاضطراب قد نال منها ، لسماعها قصة هذه المغامرة الملتهبة ، المؤلمة ، حتى جاء القومندان يحمل البريد الذى وصل . . ففتح بلزاك رسائله ، وتجهم وجهه . . وصعد إلى

غرفته . . . وعلى مائدة الغداء قال :

ـــ كارثة ! . . وداعاً للإجازة ! . . فلا مفر من العمل ! . . فقد وصلتنى مئة صفحة من البروفات . وهناك ناشر يطلب أقصوصة لهذا الأسبوع . طبقاً لعقد بيننا . والويل لى من الدين إذا لم أفعل . فضلا عن أن أمى المقيمة منذ ثلاثة أيام فى بيتى بشارع كاسينى تكتب لتقول لى إن الرياح تأتى بمالا تشتهى السفن !

انتهت الأحاديث الطيبات ! . . فأغلق على نفسه غرفته يدأب ويكتب . . وكذلك لم تعد زولما كارو تغادر غرفتها من تلك اللحظة أيضاً . . فأخذت فى النسج ، حتى إذا دعاها صغيرها إيڤان أرسلته إلى الحديقة يلعب . . وظلت فى صمت ، أمام منسجها ، تلق بأذنيها وقلبها جميعاً لأدنى حركة يمكن أن تصدر عن مخدع أونوريه الساحر . . فهى منذ ما عرفت تفاصيل حياته المثقلة بالعمل والمغامرات ، منذ ما أدركت كيف يلهب حياته بلا اكتراث ، ويحرقها غير مقتصد فيها ، ولا متئد ، بهرت ، وهنئت ، بجواره السعيد ، ولو لأيام . . ماأدهشه ، وماأبدعه ! . . وياالإدراكه المحيط بقلوب النساء ! . . إنها لاتعرف رجلا آخر يدرك ويحزر كل شىء مثله ! . وتساءلت ، ووجهها يحمر خجلا ، فى عفة كاملة ، عما إذا لم يكن أدرك التقدير المفتون الذى تحسه لخلقه وفكره . . وها هو ذا الآن وراء النافذة المقابلة ، أمام منضدته ، إزاء أشجار الزيزفون نفسها ، التى هى ، كذلك ، أمامها . . لعله يكتب سطوراً علوية ، قد لا يستطيع الشبان والنساء ، بعد مئتين أو ثلاثمئة عام ـ عند ما لا يكون له أولها وجود ـ أن يقرأوها إلا وقلوبهم تخفق ، ودموعهم تسبق ! . . وإن أحداً ، إن أحداً لن يعرف أبداً أن أول رعشة قد أصابتها هى ـ وياالله ! ـ فى اللحظة التى أمسك فيها بقلمه ! . . فما السبب ؟ . . السبب فى ذلك أنها كانت تدعى : « مدام كارو » وليست : « مدام بلزا . . . » . . آه ! . .

ما كان أوجه وأروع هذا الاسم « دى بلزاك » الذى خلق للمجد ! . .

أونوريه دى بلزاك ! . . أسفاً لأحكام القضاء والقدر ! ومع ذلك فحبذا لو أتيح لها أن تسند رجلا عظيما ، حتى يؤدى رسالته السامية ! . . أفلم تخلق هى لتكون هذا السند والعضد ؟ . . أو لم تكن تصلح امرأة نافعة ، قديرة على أن تفهم ، وأن تنمحى ، وأن تلزم إلى جواره جانب الحب الصامت الصميم ؟ . . رباه ! . . ما هذا الذى تجرؤ على التفكير فيه ! ؟ . . لقد نهضت ، ووضعت يدها على فؤادها ، وسألت ربها عفواً وغفراناً . . . ونزلت إلى الحديقة لترى فى ماذا يلعب ولدها . . .

هذه هى المرأة العظيمة ، التى كانت تأتم فى العقل ، وتعجز عن أن تنطق أمام بلزاك بكلمة لاتشف عن غير الصداقة النقية الخالصة . وكان هو قد ظل حبيس غرفته ، لايخرج منها حتى لتناول الطعام . . وضاق بذلك صدرها ، فظلت تنسج ، وتطرز بإبرتها ، حالمة بعينيه ، يخيل إليها أنها تسمعه يقول لها : « كارا ، كارا ، أنت من القلوب النادرة التى لها على قلبى سلطان عظيم ! » . . أكان ذلك حقاً ؟ . . إنه سرعان ما يحمى وسرعان ما ينسى ! . . ولكن لا . . إنه حق . . أو لم يطلعها فى ثقة على رسالة من مدام دى برنى ؟ . فلم تشعر بالغيرة من هذه . . هذا الملك الكريم . . بل شعرت نحوها بالمحبة . . فقد كانت زولما دونها فى العمر بخمسة عشر عاماً . . وإن تقاربت أفكارهما . . وكانت رسالة مدام دى برنى تحذره من المركيزة ، ورسائلها ، وتقول :

[إنها إذا كتبت إليك غداً لتسافر إلى « إكس » فانك سرعان ماتسافر !.. فاحذر يا حبيبى ! .. إن هؤلاء الناس طبعوا على الجحود]

وأحست زولما كارو بزهوة النصر لهذه العبارة . . فقال أونوريه :

ــ إنها مخطئة . . فلن أذهب بأية حجة كانت . . فما أطيب مقامى للعمل هنا !

وكان من طيب المقام والعمل بحيث أتم جزءاً كبيراً من قصة « لويس لامبير » . . ولم يكن يجد وقتاً للطعام والشراب . وفى ذات ليلة ، لم ينم .

وكان قد طلب خمس شمعات . . فلم تعد زولما كارو تنام هى أيضاً . . وظلت تسمعه ، وهو يحرك القهوة ، وينهض ، ويمشى ، وتسقط ريشته . . ثم صب ماء فى منتصف الليل ليشرب : « إن رأسه يشتعل حتماً . . يا إلهى ! . . فهو يبترد . يا لعمله المضنى ! . . ويا للحياة المجاهدة ! . . » . . وطلع الفجر . فزعمته سينام . . ولكنه عاد يحرك فنجان القهوة . . فمنّت نفسها بأنه يرسم فى قصته صورة امرأة . . ولعل هذه المرأة تكون هى . . لعلها هى الملهمة ! . .

وفى ذات صباح ، حمل إليه البريد رسالة عليها طابع « إكس ـ لو ـ بان » . . وسافر بلزاك فى اليوم التالى معتذراً لهم ، قائلا لنفسه : « إنها تنتظرنى . . فقد ندمت . . وأرادت الآن أن تكون لى . . وليس فى كل الطبقة الباريسية الأرستقراطية امرأة تعادلها ! » . .

وبلغ من هيجته ، وسرعته فى تسلق درجات المركبة ، أن جُرحت فخذه جرحاً عميقاً ، فاضطر إلى قضاء يومين فى مدينة ليون ، ووصل « إكس » وهو يعرج ! ولكنه ما كاد يراها ، حتى نسى مجرد الإشارة إلى الحادث ! . . ونسى متاعبه منها وشكاواه . ولم يعد يذكر إلا أنه ألفاها : جميلة ، رقيقة ، طيبة . . وصدرت منه كلمة تدل على مدى ما تألم . . ثم استدرك : « ما من شىء عظيم بغير الألم » . . فوافقت ، وبسطت له برنامجها ، وعبرت له عن سرورها بحضوره ، وإن كانت لاتستطيع أن تراه كل يوم قبل الساعة الخامسة ، لحاجتها إلى الراحة التامة . . فقال إن لديه قلمه ! وسيفنى فى العمل . . ثم يكون كله لها . . أى كله للحب ! . . وفى الغداة وصل فى الساعة الخامسة ، الخامسة إلا ربعاً . . لم يطق صبراً على دق الساعة . . فتركته بقربها يتغذى ويشتعل بالآمال والوعود . . حتى جاء ذات مساء يلح ويلحف بصراحة ، فعارضته بصراحة أيضاً محتجة بواجبها . . فصاح :

ــ يا إلهى ! . . إنك تنسين دائماً أن أول الواجبات هو حبك إياى ! . . فمتى تكونين لى ؟ . .

ـــ أرى أن مقامك فى أنجولم لم يفدك شيئاً ! . . فأنت تعود بأفكار صغيرة وضيعة ، لعلها صدى أحاديث النساء هناك !

ـــ سيدتى ، لا تحاولى أن تجرحينى فى أعز ماعندى ، وهو صداقتى !

ـــ أرأيت أننى لا أملأ حياتك ، وأنك ممثل كوميدى كسائر الرجال ؟! . .

فلم يجب . وعاد قانطا ، يحدث نفسه بصوت عال : « أيها المسكين أونوريه ! . إن الترف ، والمساكن الجميلة ، والنساء العظيمات ، والغراميات السامية ، إن هذا كله حرام عليك ! . . أما أن تكتب وتنسخ للناشرين الشرهين ، فى غرفة حقيرة ، أجرها فرنكان فى اليوم ، فهذا هو مصيرك ، فلا تبحث عن مصير سواه ! » . . ولكنه وجد فى انتظاره خطابين . أحدهما من مدام دى برنى ، والثانى من زولما كارو . آه لهاتين المرأتين القديستين ! . . آه لهذين العمادين فى حياته : الحب الحق . والصداقة الصافية ! . . فقبّل الغلافين . . وكانت رسالة زولما كارو تنضح بالمرارة . ولكنها مست شغاف قلبه . فهى تحذره من التهور فى الحزبية ، حيث لا يفكرون إلا فى استغلاله . فتمتم : « هذا صحيح ! . . وقد بدأت أشعر به ! . » . . وهى تتخلى عنه لغرامياته الخطرة ، قائلة :

[... وليست هى أم أسرة ضعيفة التى يمكن أن تهمك ، ليست هى امرأة تفهم حقيقة الحياة ومذلتها . . إنك بحاجة إلى أشكال شاردة . ومظاهر باهرة ولا يهمك ، أو يعنيك ما وراءها من ذكاء وحس ونفس . . فليعطك الله فى « إكس » مايروق لك ! . .]

فقال بقوة . « لا ! . . إنى أرى جلياً مايصيبنى هنا . . سأهرب ، وأنجو ، وأعود لأعمل ، وأتحدث ، بعقل ، فى أنجولم » . .

وفتح خطاب مدام دى برنى ، وهو يفكر : « إنهما تتشابهان ، لا بالوجوه ، وإنما بالنفوس . . كلتاهما حكيمة ، خيرة ، كريمة . . » . . ثم قرأ :

[... ياصديق ، لست غيرى ، ولكنى قلقة . إذن فقد حملوك على الذهاب إلى إكس ! . . فاحذر ، ياحبيبى ، فهؤلاء الناس ، جميعاً ، يمقتون الذين ليسوا من لحمهم ودمهم . . فاستخدمهم ما استطعت . ولكن أقسم لى ألا تكون لهم عبداً]

فقال بلزاك بصوت منخفض : « أقسم ياحبيبتى ! » . .

وكتب إليها فى الحال يقول :

[لماذا أقاومك . . أنت التى هزت بيدها مهد أحلامى الأولى . . والتى سيكون قلبها قبراً لكل أخطائى ؟ . . إنك تنادينى . . وأنا ألبيك . فانتظرى مركبات المسافرين على طريق فونتنبلو . . فسأصل فى بضعة أيام . . فى بضع ساعات . . .]

وبعث بمن حمل هذه الكلمة إلى البريد ، فدق الباب ، وإذا بالمركيزة دى كاسترى قد بعثت بخادم يسأل : « هل يستطيع المسيو دى بلزاك أن يحضر حالا ؟» . . فأشفق أن تكون مريضة . . وهرول إليها ! . . فبأى شباب آمن بالهناء بعد ساعة واحدة ! . . أو لم يقبل السفر إلى إيطاليا معها ، ومع الدوق « فتز - چمس » أخى زوجها ؟! وكانا سيأخذانه شبه ملحق فى عربتهما ؟! ولكنها قبلت أن يدفع نصيبه فى مصاريف الطريق ، حتى لا تجرح عزته . أن يرى روما ، المدينة الخالدة ، التى مر بها نصف تاريخ العالم ، وأن يشاهد ذلك كله معها ، تنظر عيناه مع عينيها ، وأن يسمعها تصدر أحكامها ، الدقيقة ، الصادقة ، على مافيها من بعض الجفاء ! . . ياللسعادة ينهلها قلبه المفتوح ! . . يا لصفحة النور المشرقة فى حياته ! . .

وبادر بالكتابة إلى ناشريه ، ومديرى المجلات ، وأمه . . وتعهد بمواعيد محددة . . وسألهم مالا ، واعداً مقابله بقصص ! . . ثم سافر مع « مركيزته المعبودة » ، وشقيق الزوج ، الذى كان فى نظره مثالا لأمجاد فرنسا القديمة العريقة .

وغادر المسافرون الثلاثة « إكس » ، فوصلوا مدينة چنيف فى المساء . وحاول أن يتخيل الأيام التى سوف يعيشها وهو يتذكر ألذ تفاصيل الأيام التى عاشها .

وخرج معها يتنزهان ، فعاد نشوان . . هناك ، بقرب غدير ماء نمير ، وراء طاحون مكسورة ، قالت له أقوالا من الهول والاشتعال بحيث لم يعد بإمكانها التراجع عما قالت . . وكانت تبسم له . . وكانا يتنهدان . .

ثم قصد الدوق إلى مكتب الفندق . . فاختلى بلزاك بالمركيزة ، وكان عليها ثوب شفاف ، ناصع ، مجنّح ، يجعلها كملك طائر ، لايلبث أن يحلق فى السمٰوات . . فسبح بحمد جمالها . . ثم لم يلبث أن قال لها بلهجة الطفل : « يخيل إلىّ أنك الآن قد نزلتِ من السماء لتمنحينى الهناء ! » . . فلم تجب بغير ابتسامة . فاستطرد : « أتعطيننى الهناء ؟ » .. ثم خفض من صوته : « وبعد ، أتهبين نفسك ؟! » . . فهزت كتفيها ، ثم تغير وجهها ، وتجهم ، فجأة : « أتتحدث هكذا ، إلى امرأة ذات اسم عظيم ، فى حان ، على قارعة الطريق !؟ » . . قال : « كيف ، فى حان ! » . . ثم ضاق ذرعاً : « مرة أخرى ، أخيرة ، أتريدين مبادلتى الحب ؟ » . . وبدت جفوته : « إنى لن أستطيع على هذا صبراً ! » . . وبغتة ، تحول إلى شدة خارقة . . فأعلن إليها : أن الكأس قد طفحت ، وأنه فكر فى هذا كله ، وأن الدور الوحيد لامرأة تدعى الحب هو التفانى ، أى هبة نفسها ، ولكن أسفاً على أنها عنده عاجزة عن الحب ! . . وصاح بها :

— إذن فالمركيزات يسلفن أنفسهن ، ولا يهبنها ! . . هذا حسن ! . . إذن ، إنى لأوثر النساء البسيطات ، المجردات من النفاق والمراءاة ، الخاليات من هذا الحشو الاجتماعى ، هذا « العفش والنفش » الذى ليس إلا من الرذيلة ! . . وإنى أدعك ، وسأنتقم لنفسى . .

ووصل إلى الباب ، ثم عاد إليها ، وضغط على ذراعها :

— أنت لاحجة لك من الشرع ، ولا من الدين . . فقد استبحت الأول ، وسخرت من الثانى . . مادمت يوماً ما قد كنت خليلة البرنس دى ميترنـ . . .

فدفعته عنها :

— كفى !

فزأر ، وقال لها ، وعيناه فى عينيها :

— نعم ، أم لا ؟ . ستكونين ، فى إيطاليا ، لى . . . ؟

فظلت مصرّة على أسنانها ، ترتعش طاقتا أنفها ، ممتقعة اللون ، تكاد تكون دميمة ، لشدة ما عبر وجهها عن الكراهية والنفور .. ولم تقل شيئاً .. فعاد يقول :

— أفلا تريدين الرد ؟ ..

فظلت ممعنة فى صمت عنيد ...

وعندئذ أحس فى نفسه هبوب نار الهذيان من الحمّى .. فألقى بمعطفه « الكاپ » على كتفيه ، تاركاً إياه يدور تحت وجه المركيزة ، كما لو كان يضربها بالسوط .. وخرج . وأغلق الباب بشدة . وأخذ حقائبه ، وقفز فى أول عربة للمسافرين إلى ديچون ، وقبع فيها . ولما صارت العربة عند بيوت چنيف الأخيرة ، قال جاره الفتى بصوت مرتفع : « الوداع أيتها المدينة العزيزة ! ... آه ، ما أجمل چنيف ياسيدى ! ... » .. فأجاب بلزاك : « إننى أمقتها ! .. فقد عرفت فيها ياسيدى أشنع مذلة فى حياتى ، وأقسم ألا أعود إليها أبداً ! ... » ..

ووصل بعد يومين إلى بولونيير ، حيث عزبة مدام دى برنى ، فكانت فى انتظاره مع كلبها ، على قارعة الطريق .. إنها كانت تنتظر هكذا منذ ثمانية أيام ، باحثة فى جميع مركبات المسافرين ! .. « يارجلى العزيز العظيم ، لم يطل انتظارى إياك ، مادمت قد جئت .. فليت نفسك تكون متفتحة لى ! . وليت شعرى ماذا يدور فى خلدك ؟ .. وكيف أنت ؟ وهل تحبنى ؟ ... » .. فكان رده الوحيد عليها : أن ضم إليه خصرها اللين ، ونظر إلى وجهها العزيز ، الذى نالت منه عشر سنوات حب .. ثم قبلها ، قائلا فى نفسه : « ما هو الشباب ، وما هو الجمال ، إذا كانا يخفيان وراءهما نفساً جاحدة كحجارة الطريق ؟ » .. ثم قال لها :

— إننى مضنى يا ملكى ، مضنى إلى حد أخشى معه ألا أكون بخير ...

— ليس من ذنبى أنك مشغول بمجنونات مفتونات ، دار برأسك فيهن لونهن الناصع كالصينى .. فاستنشق ، ياحبيبى ، شذى أشجار الصنوبر .. وتعال انظر معى حظيرة الدجاج الذى يعطينى البيض الطيب الطازج ..

ولايلبث أن يستجم ، ويشفى ، بقرب هذه المرأة التى تعرف كيف تسعده ، وتبدد غياهب حزنه . . ويراجعان معاً رسائل المعجبات المتهافتات عليه . . وهى تحللها :

ـــ ياسيدى الكاتب الخصب ، إنهن كلهن عند قدميك . . اقرأ هذه : إنها فتاة عانس مستهامة ! . . وهذه تقول لك : « أريد أن أعرف هل شكلك يتفق مع الفكرة التى أوحت بها الى كتبك » . . . وهذه تستفهم : « أريد أن أعرف ما اذا كانت بدائعك الرائعة صادرة من قلبك أم من رأسك . . . »

ويتضاحكان . . وتعرف منه أنه يعد كتاباً اسمه « طبيب الريف » . . فإذا خلص منه ، وضع كتاباً مروعاً .. كتاب حب .. فتسأله : أيكون عنها ؟ .. فيقول :

ـــ كلا ! . لأنه كتاب ألم . . كتاب فظيع صادق . . اسمه Ne touchez pas à la hache ، يعانى فيه البطل من الحب والحقد أهوالا ! . .

فترثى له :

ـــ يامعبودى المسكين ! . . لاشك فى أنك تحس ما أحس البطل ! . .

فيطمئنها إلى أنه بقربها ، يسمع كلامها ، ويستمتع بحبها ، قد خلق رجلا جديداً . . وانحنى عليها ناظراً بعينيه الذهبيتين . . . فخيل إليه أنهـا ترى إشراق مجده . . فقالت بصوت يختلج فى حلقها من الهناء :

ـــ ياحبيبى ! . . إنك لى أعز من الهواء للطائر ، ومن الماء للسمك ، ومن الشمس للأرض ، ومن الطبيعة للنفس ! . . إن هنائى يصدر منك ، كما تتضوّع العطور من الزهور . . إن مواهبك لاحدّ لعظمتها ، وإنى لفخور بأن أفهمها ، وأمجّـدها ، وأعزّزها ! . .



٣

عندما كان بلزاك ينجز قصته Ne touchez pas à la hache أحس بالفرح لأنه غُلب فى الحب على أمره . فقد أخرج من غاية ضعفه : آية قوته . واستنبط من حكاية بؤسه : إحدى روائعه الباقيات . . وهذا التناقض هو على شاكلة الحياة وصورتها : ذل وعز . وقد أظهرت له هذه التجربة القاسية مصيره على هذه الأرض : أن يكون على هامش الآخرين . . فواجبه الأول يقضى بألا يعيش إلا ليكتب ، ويسجل صورة العيش . فلا حق له فى الحب ، أو فى الألم ، أو فى السعادة ، إلا لكيما يبدع من وراء هذا كله قبس النور الذى يبدد ظلمات الإنسانية ! . . فالكتاب والشعراء هم الذين ينجدون البشر فى محنتهم ، ويقدمون لهم آيات العزاء والتجلد ، أشبه ما يكونون فى ذلك بالأنبياء !

وكان بلزاك ما زال يعتمد فى وحدته على صداقته لامرأتين ، إحداهما لور دى برنى خليلته العزيزة ، والأخرى مدام زولما كارو صديقته الروحية . . ثم تلك « الأجنبية » البولونية المعجبة به ، التى تلقى رسالتها الأولى قبيل زيارته الأولى للمركيزة الفاجرة المتكبرة ، بربع ساعة فقط ، وهى لاتزال تكتب له ، وقد أفضت إليه باسمها : « الكونتيس إيف دى هانسكا » ، وعبرت له ، فى رسائل

شعرية ، عن نزعات قلب معنّى ، أثرت فيه كتب بلزاك ، وأوحت إليه بالثقة .. وكانت سيدة عظيمة جداً ، نبيلة ، مثرية ، ومن ذوات المكانة الرفيعة ، والضياع الواسعة فى فيرزشونيا بقرب مدينة « كييف » .

عقل نير ، أفاء عليه نوره منبت كريم وثقافة ، ونفس هى بلا شك من أنبل وأصفى النفوس المختارة فى عصرها . وقد هرعت إلى بلزاك فى رسائلها . وكان فى رسائله يطير إليها ! . وما كانت المسافات الشاسعة بينهما لتفرّق غير جسديهما ، فى حين كان العقلان ، والقلبان ، قد بادرا إلى العناق والتقبيل ! . . إذ كيف يهمل مثل هذه اللقية التى تحدثه بلهجة لا عهد له بها . إن صاحبته لور لا نظير لها فى حنانها . . وقد ساقها القدر إليه ليلطف من مصيره المستعر . . ولكن هذه « الأجنبية » العلوية تظهر من إدراكها الفن ، وإحاطتها بدور الفنان ، ما يجعله يصرخ سروراً واشتياقاً ، ويبسط ذراعيه نحو بولونيا البعيدة ، قائلا من صميم فؤاده : « إيف دى‌هانسكا ! . . إن حياتى لك .. لأنك وحدك التى أدركت ماهيتها ، وتغلغلت فى آلامها ، وواجباتها ، وطموحها ! » . . لقد كان ذكاؤها المعجب به يشرق عليه ، عوناً له وساعداً . . وكان كلما طالع رسائلها لم يشك فى أنها ترى فيه موسى الكليم على جبل سيناء ، فى الوادى المقدس : طوى . .

أجل . ستكون مهمته أن يرسم هذا المجتمع بحذافيره ، وأن يلقى عليه ضوءاً يكسف ضوء الشمس !

أليست هذه المرأة برهاناً على امتداد رسالته وراء حدود بلاده ؟ . أليست طيبة المنبت ، عريقة الأصل ، رقيقة الحاشية ، نبيلة الطبع ، تتفق مع ذوقه فى الأرومة العالية الحسب ، وفى المكانة والوجاهة ؟ . . .

أما زولما كارو ، ذات الاسم المتواضع ، والحياة إلى جانب موظف (ولو كان قومندان مدفعية !) ، فليست إلا صديقة ، وكاتمة سر . . . وأما لور دى برنى ، فحنانها أعظم من نبلها ، وهى تؤثر الحب على العظمة . . وأما المركيزة

دى كاسترى الشنيعة ، فهى من ذلك النبل البائد ، الذى لم يبق منه إلا شكله ! . . مسكن جميل ، وثياب جميلة ، وجسم جميل ، بلا قلب ، ولا عقل . . قصر بلا ملك ! . . وأما النبل الأصيل ، والروح ، والفؤاد ، فقد اجتمعت جميعاً فى الكونتس دى هانسكا هذه ، الأوربية الماجدة ، بألقابها ، وأملاكها ، وفطنتها ، وذكائها ، ودقتها ، وشعرها . فهى هى المرأة الموعودة حقاً بأن تؤثر فى بلزاك ، الأثر الذى ستحمده لها آداب الأجيال كلها ، وتهبه تلك القوة الروحية الهائلة ، التى لا تلبث أن تتبلور فى مجموعة فريدة من الأفكار الشائقة ، والبدائع الروائع ، التى ستتوالد تباعاً ، لا حدّ لها ولا عدّ ، من ذلك العقل العبقرىّ الجبّار . . . فهى الملهِمة . . وهى الساحرة . . هذه البولونية المدهشة ، قد ألهبت بالسوط مخيلته . فراح ، فى نشوة التمنى والرجاء فى الهناء ، يحقق آياته الكبرى ، فوصل دون كبير عناء إلى قمة الفكر ، وقنة المجد . . .

أيتها الأجنبية العزيزة ، أين أنت ؟ . . كيف أنت ؟ . . إنه لا يعرف بعد صورة محياك ، وهو يعيش على ثمانمئة فرسخ منك ! ؟ . .

وظل يكتب إليها ؟ ! . . إنه يريد الآن أن يضع عينيه فى عينيها ! . . .

وهو يريد أن يفضى بذات نفسه لامرأة . . أما صاحبته لور دى برنى ، ففى عزبتها . . وأما زولما كارو ، ففى بلدة أنجولم . . ولكن أخته لور فى باريس!.. وهى التى شهدت بزوغ فجر مطامعه . . إذن فليهرع إليها ، ويمسك بيديها ، صائحاً : « أختاه العزيزة ، أتذكرين المستقبل الجميل ، الذى تخيلناه ونحن نشرف من سطح بيتنا فى تور ؟ . . أتذكرين ؟ . . إن أخاك سعيد ، وقد جاء يقول لك : إن هناء الرجل ينطوى كله فى أحلام الطفل ! . . » . . وهو فى طريقه إليها يشترى زهراً . . ويدخل حديقة اللكسمبورج ، ويتغلغل بين الأشجار ، حيث يحلم الطلاب والشيوخ . . أولئك فى المستقبل ، وهؤلاء فى الماضى . . فينظر إليهم كما لو كان يريد أن يرسم لهم جمال الحاضر ! . . ثم يعرج فى ساحة سان ميشيل

على بائع البن والشمع . . فيوصيه بأن يخلط له البن البوربونى بالبن المرتنكى بالبن اليمنى !. . فلا طعم للقهوة إلا بهذا المزيج ! . . « كيف ترسل إلىّ ربطة من الشمع فوق ما أبغى ، وكيساً من البن دون ما أرغب . . اعكس الآية ياسيدى !.. فإننى بالقهوة أرى جلياً ولو فى دياجى الظلام ! . . » . . فتضحك « زبونة » ، تشترى مثله ، لخفة روحه ، فيحييها . . ويوصى التاجر : « لا تعاملنى كزبون عادى . . إنى أحب دكانك الذى هو ينبوع للحياة . . أحبب حياتى ، فقد تكون غداً ينبوعاً لدكانك ! . . »

ووصل إلى سوق الخضر (الهال) ، فقد كان يطيب له دائماً الاحتكاك بسواد الشعب . فرأى فى زاوية زحاماً ، فاقترب ، فإذا بامرأة فقيرة تنهرها الشرطة ، وهى تبكى وتشكو : « ماذا تريدون منا ؟ . . إنا لا نبغى أكثر من أن نبيع « جرجيرنا » ، دون أن يلحظنا أحد ، أو نلحظ أحداً ! . . » . . فابتعد بلزاك وهو يقول : « رباه ! . . هذا هو الدليل على أننا لم نجبل جميعاً من طينة واحدة ! . . والمجد ، يا أيتها العجوز الطيبة . والمجد ! . . » . .

إن هواء باريس هو الذى يحس بالحاجة إلى استنشاقه ، دون أى هواء سواه . . فهو يعبر بولڤار بواسونيير ، ضاحكا ، ساخراً من الأطباء ، قصيرى النظر ، الذين يقولون بأن المرء لا يشم فى باريس هواء ! . . وها هو ذا يفتح خياشيمه ، ويملأ رئتيه منه ! . . سبحان الله ! . إن هواء هذه المدينة السنية مشبع بتيار الحيوية ، الذى لا مثيل له فى الدنيا . . فهو للأعصاب عِفاء ، وللقلوب غـذاء ! . . .



٤

بلزاك الآن فى الرابعة والثلاثين . اتخذ من الأدب ديراً يسكنه ، يتأمل فيه ، ويتبتل ! . . . ولم يكن فى حياته كلها ربيع أشهى وأجدى من ربيع ١٨٣٣ . . لا لأنه أنتج فيه أعظم عمل أدبى فى الجيل وحسب ، بل لأنه كان يكتب أيضاً إلى الكونتس دى هانسكا . . وفى انتظارها ، وفى تمنيها ، وفى التحدث عنها وحده مع نفسه ، زاعماً أنه يمسك بالحب بين يديه كما لو كان طائراً غرداً ، ويضمهما معاً على قلبه ، مخاطباً أوراقه ، أوحديقته : « إنى أحبك ! . . أحبك ! . . إنى أعبدك ! . . » . . ثم يضيق ذرعاً بوحشته ، ولا يصبر عن التحدث عنها . . فيأخذ عربة المسافرين إلى أنجولم ، ليلقى زولما كارو ! . . فتسأله عما إذا كان لا يزال يحب حديقتها الضيقة ، وحياتها البسيطة ، وصغيرها الذى يكبر . . والقومندان الذى يبذل جهده فى خدمة الدولة . . وامرأة مثلها هادئة ، لا تبحث إلا عن بقائها عاقلة ! . .

ــ وأنا ، فى هذه الأثناء ، يا صديقتى الطيبة ، أشتغل وأعمل كحصان مربوط إلى عربة ! . .

فتأملته . . وقالت :

ــ إنك الشباب والقوة . وإنى سعيدة برؤيتك فى هذه الآونة . .

وعبرت له عن فرحها بأنه يعمل مستقلا عن تلك « الطبقة الراقية » الزائفة ، لايتفانى فى سيداتها ، ولا يلعق أحذية سادتها ! . . فمد إليها يديه :

ــ أيتها المرأة التى لا مثيل لها ! . . إنك جمعت بين الشعر والفكر ! . . فاعلمى أنى سوف أنتصر ، ياصديقتى العزيزة ، ولم يعد لدىّ الآن شك . . وإنى مدين بذلك لامرأة ! . . امرأة ! . . وأنت تعلمين ، أكثر من أى إنسان ، أن المرأة كانت دائماً هى دينى الأرضى الوحيد الذى أؤمن به ! . . وإنى إذن لسعيد ! . . فسيسهل عملى ، وأبلغ أملى ! .

فظنت أنه يقصد بالمرأة « لور دى برنى » ، « الملك » الذى حرس شبابه ، وجمّل حياته ، وغذّى خياله ! . . ولكنها كانت واهمة . . فأحرج بالمزاك . . وسعل . . وقام . . ثم عاد فجلس . . وطفق يفسر . . حقيقة أن مدام دى برنى الحنون كانت له تكاد تكون أكثر من أم . . ولكنه يعنى هنا بالكلام : امرأة . . . شقيقة روحه . . امرأة قصدته من أقصاء أوربا . . تقدم إليه كل شىء : الحب ، والاسم العظيم ، والثروة ! . . آه ! . . هذه المرأة ! . . إنه لم يلق قط لها مثالا ! . . وهو لم « يلقها » بعد فعلا ، لأنه لم يرها بعد . . ولكن أية رسائل ! . . إنه يحملها معه . . ويلح على زولما كارو أن تقرأها :

ــ اقرأيها ، واحكمى علىّ . . كما سوف تحكم مدام دى برنى . . فإنكما لى الناصحتان : هى القلب ، وأنت العقل . . . إنى أريد أن تكون حياتى عظيمة ، غير أنى أسكن بيتاً من زجاج . أقسمت عليك إلا ما قرأت ! . . هذه هى رسالتها الأولى ، تتضوّع بشذا الهناء والرجاء ! . . اقرأيها ، وقولى : هل ثمة امرأة ، خلاك ، فهمتنى خيراً منها أبداً ! . . ثم هى أجنبية ، ولكن تربيتها فرنسية ، تغذت بلبان أفكارنا ، ودواوين شعرائنا . . . وإليك الرسائل الأخرى . رباه !

هذا الأسلوب الشائق الرقيق ! . . إني لا أستطيع له دفعاً . هذا قلبي ، يا صديقتي الطيبة ، فتحسسي قلبي ! فلا شيء مطبوع فيه إلا خطها الدقيق ، دليل اليد التي كتبت لي ، المشتاقة لمصافحة يدي ! . . ولاشد ما حذرت منها ، وكنت فاتراً معها ، بادىء ذي بدء . . فقد كان قلبي محطما من تلك المركيزة التي جففت روحي بإحصائها المروع ! . . أفٍّ لها ! . . وعاملت « الأجنبية » كقاضي التحقيق الذي يقول لنفسه : « فلندعها تجيء حتى نرى ما تقدمه إلينا » . . يا للصغيرة الكريمة ! . . إنها لاتقدم شيئاً ، بل تهب كل شيء ! . . فشعرت بالخزي منها ، فأسلمت إليها فؤادي . آه ! . . وقلت لها كل شيء . إني لها . ليس عليها إلا أن تشير ، ومني السمع والطاعة . وها أنذا ياصديقتي ، سعيد ، سعيد إلى حد البكاء سعادة ، إذ عدت ، بعد كل ما لقيت من آلام ، سليما معافى ! .

فأحست زولما كارو ، إزاء هذا الاعتراف ، بقلبها ينقبض لوعة عليه ، وأمسكت حتى لاتصيح : « لله ما أعظمك ! . . وما أشد إعجابي بك ! . . » وارتسم ألمها على محياها ، فلم تزد على أن تقول بكآبة :

— أسألك ، يا أونوريه العزيز ، أن تحذر من تبذير حياتك . . فلا تنفق كنوزها أبداً أدراج الرياح ! . .

ولما عاد إلى باريس ، فكر في هذه النصيحة ، وقال لنفسه : « إن زولما صديقة شديدة الذكاء ، بيد أنها تعيش في محيط ضيق ، تأثرت به أفكارها . وهذا لاعلاج له ! . . أما امرأة مثل إيڤ دي هانسكا ، فتدرك كل شيء ، وتحزر كل شيء ! . . امرأة عظيمة . . وهذا يكفي ! . . خمسون تابعاً . . وأراض تبلغ نحو مقاطعة من مقاطعات فرنسا . . فهي لايمكن أن تكون محدودة الأفق . إن لها في الحياة المجال الفسيح الذي أريده في كتبي . . وهو مجال سهل على البولونيين . . فكلهم أبطال ! . . وياله من شعب مدهش ! . ويالها من محالفة بين بولونيا وأونوريه دي بلزاك ! . . قطبان يجتمعان في روح واحد ! . . » . .

ووجد فى بيته البريد يحمل رسالة من مدام دى برنى تشكو اشتداد المرض عليها حتى بلغ قلبها. فقال: « ياللعزيزة المسكينة! سأهرع إليها!..».. ولكنه وجد أيضاً خطاباً من مدام دى برانتس، وخطاباً من المركيزة دى كاسترى! فيا للجرأة!.. ولم يجرؤ على فض الغلاف. وتزاحمت على ذاكرته الساعات القاسية والساعات اللذيذة التى مرت عليه وإياها. ولكن هذه اللذة لم تكن إلا خدعة! إذن، فماذا تحمل إليه أيضاً من الكذب فى رسالتها؟.. أما وأن عينيها لم تعكسا قط صورة نفسها، فهل يمكن لقطرات من الحبر على قصاصة ورق أن تعبر عما يجول فى فكر هذه المخلوقة التى وجدت فى الدنيا لتبذر الألم؟.. فترك رسالتها. وفتح خطاب مدام دى برانتس.. فوجدها تريد أن تراه.. فتنهد قائلا: « ما أكثر ما رأتنى!..».. وكتب إليها:

[إن الناس الذين هم فى حومة الوغى ليسوا، يا سيدتى، أحراراً كما تعلمين ليتحدثوا أو يخبروا أصدقاءهم: هل هم أحياء أم موتى.. هذا، وأنا.. ميت من الشغل]

ووقع خطابه، وختمه. وأمسك برجفة وعنف خطاب المركيزة. ومزق غلافه، وقرأه فى نفس واحد، ثم خطا ثلاث خطوات فى غرفته، ثم جلس، وأغمض عينيه، وتمتم: « لله ما أعجب الحياة من لغز معمى!...»..

وكانت رسالة المركيزة: نداء مؤلماً محرقاً، وصرخة لوعة وأسى، وتوسلا، وهذيانا.. فأثارت تذكارات تمزق الفؤاد، وهمست برجاء الضائع المحموم المشدوه، وزفرت زفرات العليل المضنى!.. ووقعت: « صديقتك »..

فأحس بلزاك بادئاً أن قلبه يختنق فى صدره: « آه!. لو أن ذلك كان حقاً. أيتها السماء!».. ثم.. مرت بذهنه رسالة من الكونتس دى هانسكا، فاستظهرها سطراً سطراً، وكأنه يغنى بها فى روحه.. ولم يلبث أن استرد وقاره ورصانته،

وأمسك القلم بجهد ، وكتب إلى المركيزة بيد متأثرة ، بحيث لم يستطع أن يخط من الحروف إلا بعضها :

[سيدتى ، هأنذا مغرق فى أعمال تتطلب منى بلا شفقة أشد الاعتكاف . . فأنا الآن فى خلوة دير . وقد دق الناقوس . ولبيت الصلاة . ولم أعد أستطيع الخروج إلى صالون . مهما يكن الصالون شائقاً]

وأعاد قراءة ما كتب ، وبعث به . . وخف إلى مدام دى برنى ، فوجدها حزينة ، وقد وهن العظم منها ، وتخوّنت جسمها الأوجاع . . فقرأ لها مخطوطه الذى وصف فيه مالقيه من حب المركيزة دى كاسترى . . وفيه إشارة إليها هى ، وتمجيد للمرأة التى نال من جمالها الزمن ، وإن ظل قلبها للحنان كنزاً لا يفنى على الأيام . . فقالت له ، وهو منصرف ، بعد مطالعة أربع ساعات :

— ياحبيبى ! . إنك أول كتابنا . . ولست أدرى ماذا أفضل فيك : أعبقريتك ، أم طيبتك ! . .

وارتاح لهذه الكلمات من فمها . . ومع ذلك قضى الصيف ولم يعد إليها ، كان يعمل ، وكان منصرفاً بكليته للكونتس دى هانسكا . . فهو على أمل مغر بلقائها وشيكا . إذ تقوم برحلة حتى « نيوشاتل » ، مع زوجها ، ومع طفلتها الوحيدة التى بقيت لها من خمسة أطفال ، ومربية هذه الطفلة .

لقد كان يحبها قبل أن يعرفها ، والآن سيعرف من أحبها . فبأى عينين سوف يراها ؟ . . هل يكون أثرها الأول محققاً لآماله ؟ . .

وتوالى عليه الفرح والحذر ! . .

ثم آن له أن يستقل عربة المسافرين ، فسافر كما كان يفعل كل مرة فى سفره ، ليس لغير الفرح عليه سلطان . . وكانت العربة مكتظة ، فأضحك رفاق السفر جميعاً . . ووصل نيوشاتل ، ولم يكن قد نام منذ أربع ليال ، فسقط على سريره إعياء . . ولم ير الكونتس إلا فى اليوم التالى . فقصد فندقها ، فقيل له : إنها

خرجت . . فأسرع إلى طريق المتنزه الكبير . . فلمحها . . وعرفها . . وصعدت حرارة قلبه إلى مخه . فلم يشك لحظة . .

وكان بيدها كتاب . . ولما رأت بأية عينين ينظر إليها هذا الرجل الشاب الضخم ، أفلتت كتابها . . فهرع إليه ، فإذا به قصته : « **المرأة فى الثلاثين** » . . فنزع قبعته ، وجثا بركبته على الأرض ، وقال بصوت يختلج حرارة :

ـــ إيف ! . إيفا ! . . أهذه أنت ؟ ! . .

فصرخت ، ومدت إليه يديها :

ـــ أونوريه ! . . (وكادت تختنق) أونوريه . . . دى بلزاك ! .

فنظر إليها ، دون أن يستطيع أن ينبس بكلمة .

يالله ! . . ياللطف ! . . يالها من علوية الحسن ! . . ياللنعمة ! . . لقد ارتعش إذ ألفى جمالها لا يعدله إلا جلالها ! .

وكانت الفتنة فى فمها ، الصغير ، العنابى ، وفى العينين السوداوين ، الممتلئتين أحلاماً ، وفى اليدين البضتين ، الناصعتين ، اللتين كأنهما تشفقان من القبض على كل هذا الهناء ! . .

واقتربت منهما صبية صغيرة فى معطف أبيض وردى . . وكانت هى « أنّا » طفلتها . فقبلها . وكلمها . . .

وأخرجت الكونتس دى هانسكا فى تلك الأثناء نظارة يدها المرصعة ، لتزداد فيه تفرساً وتمعناً . . فوجدته قصيراً ، سميناً ، مستديراً . . وأنفه « كالأستيكه ! » . وبعد ذلك رأت العينين ، عينى النسر المحلق ، ترسلان النار التى يرسلها قلبه ! . . فابتسمت عندئذ ، ولاح سعدها . . إنه هو بعينه ! . .

وأقبل سيد طويل ، فى ردنجوت أخضر ، هو الكونت دى هانسكا ، زوجها . فقدمتهما إلى بعضهما . فالتهم بلزاك الكونت بعينيه ، ولكن هذا كان منصرفاً إلى البحيرة الجميلة يتأملها بالنظارة المعظمة . . لم يكن يعنيه مابهما . لم يكن من

أهل الأدب أو هواته ، فمنذ أجيال ، ورجال الطبقة الراقية فى بولونيا يألمون من السلطات المتحكمة فيهم ، ألماً أشد مما يعرفه نساؤهم . وكان النساء يتثقفن بالمطالعة ، والمحادثة فيما بينهن ، فى حين ينصرف الرجال إلى الأعمال . ولم يكن الكونت دى هانسكا قد قرأ من بلزاك سطراً . كان مشغولا : بضياعه الواسعة ، وغلاله الوفيرة ، وغابات صيده وقنصه . فلم يكن لديه وقت للروايات والروائيين . وعلى ذلك ترك فى نيو شاتل زوجته تعنى ببلزاك ، ومن ثمة بدأت لصاحبنا سلسلة أيام ستظل ذكراها ترن فى فؤاده حتى الممات . فقد ثبت له الآن ، وتحقق ، ووثق وثوقه من مطالع الشمس فى شهر يوليه : بأن قد بدأ فى حياته الحب الأعظم . فاندفع نحو الكونتس دى هانسكا ، يكاد يردد الكلمات التى قالها مندفعاً للمركيزة دى كاسترى :

— لقد تبينت أننى لم أحب قط من قبل ! . . إنك أنت التى علمتنى الحب . . إنك المرأة التى وعدنى الله ! . . أنت يا إيڤ ! . . يامعبودتى حواء ! . .

ثم أمسك بذراعيها ، أو بيديها ، بعد ساعتين اثنتين من لقاء المتنزه . . فدهشت بداءة ! . ثم دفعها باعترافاته المتملقة :

— إن رسائلك أخبرتنى بكل شىء ! . . إن أحداً لم يكتب مثلها قط ! . . وقد رأيتك وأنا أقرأك . . فلا تخافى . . سأجعل لك الحياة المدهشة ، الجديرة بنفسك الشاعرة ! . .

وكان قد مضى عليهما ستة أشهر يتكاتبان بمثل هذه الأقوال الشعرية الجنونية !. فهل كان يستطيع أن يلقاها دون أن يصيح : « ياحبيبتى ! . . . » ؟ . أما وهما قد خلقا للحب . . وكانت واثقة من ذلك مثله . . وقد كتباه لبعضهما عشرين مرة . . فقد قال لها ، وهو يوصلها فى المساء الأول إلى فندقها ، بصوت تغنى نفسه فيه وتصدح ، وتهتز فيه كذلك رغبات جسمه :

— إيڤ ! . . الآن اكتملت ، إذ وجدتك ، بعد ما كنت ناقصاً . . يا أنثاى !

ويعود فيتمنى لو عاش معها فى جوها النبيل :

ـــ إننى هناك ، فى فرنسا ، أختنق . . فليس حولنا بعد نبل ولا نبلاء . . إن النبلاء الذين بقوا لنا قد جففهم الحقد على كل ما ليس نبيلا . ومضت علىّ سنوات أضرع فيها سراً : « رب اجعلنى أروح فأستنشق هواء آخر . . فى بولونيا مهد أحلامى ! . . » . إيڤ ! . . إنك أنت المرأة النبيلة حقاً ، التى أنتظرها وأتمناها ! . .

وكانت عاطفتها المتأججة ، واستسلامها على طول الخط ، وتنهداتها التى لا عداد لها . . هذه كلها كانت تعنى : « هيْتَ لك » ! . . ولكنه لم يطلب إليها أن تجىء عنده . فقد كان فندقه صغيراً ، وكانت غرفته حقيرة . فأخّر ساعة ذلك الهناء ، الذى كان أحرص ما يكون عليه ، حتى يكون أجمل مما هو الآن وأكمل . وتركها فى نيوشاتل . . وما زالت وفية لزوجها ، وإن كان العشق قد طاح برأسها . .

وجاءت تودعه ، بصحبة الكونت ، عند سفره . وكانت مشيتها من الرخاوة بحيث لم يملك لرؤيتها إلا أن يحس النار فى عروقه . . فقال للكونت دى هانسكا :

ـــ ما أرق حضوركم لوداعى أيها الكونت ! . .

ثم التفت نحوها فجأة :

ـــ إلى الملتقى ياضياء أيامى ، ونور ليالىّ ! . .

ثم نظر إلى الزوج :

ـــ أرجو أن يطيب لكم المقام . .

ثم انحنى على المرأة :

ـــ إلى الملتقى يارجائى ! . . ياحبى الوحيد ! . . ياغرامى وحدى ! . .

ثم عطف على الكونت :

ـــ أظن أن الجو سيروق ويصحو . .

ثم اجتذب عيني إيڤ بعينيه العسليتين :

— إلى الملتقى . . يازوجتى ! . .

وكان الفراق على مثل هذه الفتنة المضرمة كفيلا بأن يجعل كلا منهما يذهب ليعيش من جانبه أياماً محرقة ، يتصلان فيها بالرسائل ، ويصلان إلى ما لم يبلغاه بالوصال :

[هاك قبلة ، يا إيفاى ، على شفتيك العزيزتين . . . قبلة تذهب رأساً إلى قلبك ، وتشمل كل شخصك . . ستربن كيف أن الوصال سيزيد الحب اشتعالا]

هذه هى عبارات المراسلات الأولى بعد اللقاء .

ولا يلبثان أن يلتقيا ثانية ، بعد أسابيع . . ويمهر العهد . . ويكون كل منهما للآخر . ولا يعود الكونت دى هانسكا شيئاً مذكوراً . . .

وتجن إيڤ جوى وصبابة . . وتصبح لا تطيق البقاء مع زوجها . وتصير رسائلها صرخات . . فهو بلزاك ، الأتون ، الذى يصبرها ، ويهدئها :

[يا ملاكى !.. دعى الأمر إلى حين !.. ولا تغادرى الدار ، وتكسرى القيد . . أيتها السجينة المعبودة . . إن حبيبك سوف يلبى نداءك . فلا تخيفى حبيبك ! . .]

وعرضت له ، مرة أخرى ، صورة تلك المركيزة دى كاسترى ، المرأة العجيبة ، المرأة المريعة ، التى تبدو كأنها قدّت من جليد ، امرأة شقية ، ولا ريب ، جافة القلب ، لن تتذوق يوماً لذات الحياة العليا . . ولم يعد بلزاك يفكر فى الانتقام منها ، بل فى الإشفاق عليها . . لذلك لما التمست منه أن يزورها ، لشدة مرضها ، ذهب . . فاستقبلته باكية :

— بالله لا تسىء تفسير زفراتى ، يا أونوريه العزيز . . فإنى أعرف حياتك . . وثق أننى لا أموت ألماً ولا غيرة ، وإنما أموت فحسب . . فالموت خاتمة محتومة ، لا نكاد نضع فى الحياة أقدامنا ، ونجمع بعض الخير حولنا ، حتى

نضطر إلى حمل أنفسنا متهالكين راحلين . . ولكن إذا كنت أبكى فذلك لأنى سأفقدك ، ولا أدرى مدى ذلك الحرمان ، لأن كل ما وراء هذه الدنيا خفاء فى خفاء . . ولشد ما أحببتك يا أونوريه ! . . وما أقسى الموت على الحب ! وأنا الآن فى الساعة التى لا يكذب فيها الإنسان . وأنت تحس ذلك فى أنفاسى التى تحرق شفتىّ . وعلى رغم حزنى لمغادرة هذه الدنيا ، فعزائى أن الله حفظك للمصير العظيم ، المقدر لك ، وللحرية التى ترتع فيها ، وللمرأة التى ستحبها ، لأننى واثقة من أنها ستكون حقاً امرأتك ! . .

وكان لابد لبلزاك ، بعد هذه الزيارة ، من أن يتهالك فى العمل ، ليخفف من الشجن الذى سببته له عينا المريضة العزيزة . . فجرد قلمه . . وصار يعمل فى ساعة ما كان يعمله فى يوم . وكانت فكرة سفره للقاء « إيڤ » قد قلبته جباراً ، لا يعرف التعب والنّصب ، قد منحته أعصاباً وعضلات ، ودماً ، وحرارة . . لأنه لا بد من هذا كله لكتابة قصة من قصصه الخالدة . . كان لابد له من الوصف ، والتأمل ، والسر ، والإفضاء ، والحديث . . كان لابد له من أن يكون مصوراً ، وتاجراً ، وراهباً ، ومؤلفاً مسرحياً ! . . أيكون هذا كثيراً على إيڤ لتوحى به إليه ؟ ! إنه انتهى ، أوكاد ، من آيته الكبرى : « Eugénie Grandet » . وتوسل فى إنهائها بعينى إيڤ ، وبما يعرفه من روحها ونفسها ! . .

إنها الآن فى « چنيڤ » بسويسرا . . وليس أمامه غير خمسين صفحة ليختم قصته ، ويكون له من المال ما يريد . . فقد وقّع الآن عقداً مدهشاً مع الأرملة بيشيه ، ناشرة الكتب . فكل ما حوله يحمل على الطمأنينة والثقة .

وهى تحبه . . وهى فى انتظاره ! . .

* * *

وفى يناير ١٨٣٤ سافر إلى چنيڤ ، وحمل فى حقيبته ثوباً فاخراً ، أزراره

الذهبية الخالصة من صياغة الفنان « جوسلان » ، الجوهرى الأول فى باريس . وحجز فى « پنسيون ميرابو » الفخم شقة صغيرة أنيقة ، جديرة بأن ترتمى فيها صاحبته بين ذراعيه ! .

بيد أنه ألفاها هادئة ، تريد أولا أن تتحدث . . فقال :

ــ ما بك يا حوائى العزيزة ؟ . . تتحدث ؟ . . إننا لم نعد ظامئين للكلام ! . . نحن . . .

فقالت بهدوء ، وهى تحدق فيه من وراء نظارة يدها ، محاولة الابتسام :

ــ أريد أن أعرف كم من النساء تشركهن معى فى الحب فى وقت واحد ؟..

ــ ماذا تقولين؟ هذا فظيع !.. هل أصغيت إلى الإشاعات والأقاويل ؟.. أنت تعرفين أن كل ذى نعمة فى الناس محسود . . فدوسى ماحولى من الحشرات !..

ــ ومن تلك إذن : المركيزة دى كاسترى ؟

ــ امرأة أمقتها ! . .

ــ ومقتك إياها لم يحل دون هداياك لها ! ؟

ــ ياحبيبتى ، إنى أحمل إليك قصة شنيعة رسمت فيها نفسها الشاذة ، إنها امرأة زعمت أنى أحبها ، ولم أحبها . . ولم تحرك فىّ إلا سواكن الشر والبغضاء ! . وأقسم لك يا إيڤ أننى ماتمنيت أبداً امرأة كما أتمناك فى الهناء الذى يغدق الطيبة والحنان . لسنا عدوين ، وإنما نحن جزءان فى روح واحد ، يتناديان ، ويريدان أن يتصلا ، ويتعانقا ! وإنى أنتظرك فى « پنسيون ميرابو » . . فمتى تجيئين عندى ، لتحقق آية ارتباط مخلوقين ، خلق كل منهما للآخر ؟ . .

ــ ومدام دى برنى . . كيف حالها ؟

ــ إنها تحتضر يا إيڤ ! . . إنها تموت وهى تباركنا ! . . إنها قديسة ! . . ولا يجوز النطق باسمها إلا جثواً . . ياصديقتى ، إنها لاتعرفك ، ولكنها تحبك . مدام دى برنى ، هى أمى ! . .

فمدت إليه ذراعيها ، وتعانقا طويلا . . ثم قال :

ـــ سألتك إلا ماتبذت التفكير فيما يسوء . فلا تصدقى ، أيها الملك العزيز ، إلا ما تسمعينه منى رأساً . إن حياتى الماضية كلها ، سأبسطها لك بنفسى ، فلا تخافى ، ولا تحزنى . . لقد كنت دائماً أقشعر جزعاً من الغراميات المبتذلة . إنها أنت ، أجل أنت ، المرأة النبيلة ، السامية الروح ، التى انتظرتها وتمنيتها منذ خمسة عشر عاماً . ولا أعرف فى بلادى امرأة يمكن أن تقارن بك إلا مدام دو ستايل . . وقد جعلتنى صديقتاى : مدام دى برنى ، ومدام كارو ، أكثر ما أكون تشدداً فى شؤون الروح . . وليس من حب عندى عن غير طريق الروح ! . . أما المجد ، فى الواقع ، فإنى أسخر منه . . فما أردته إلا لألفت نظرك أنت ، الموعودة بأن تكونى لى . . بيد أنى أعيش فيك ، ومنك ، ولك ! . . وأنت نجمتى الهادية ! . .

ـــ وأنت ! . . إنك تمثل لى فرنسا . . فرنسا العاطفية ، بمثالها الأعلى : كل شىء ، أو لا شىء ! . . فماذا يسعنى أن أقول لك إلا أنى أحبك ، بكل جوانح صدرى ، بكل مشاعر نفسى ، بكل مجامع قلبى ! . .

ـــ بكل جوارح بدنك . . أليس كذلك . . يا إيفا ؟ . . تعالى غداً ! تعالى غداً ! . .

فجاءت . . . .

ياله من يوم : بحران ، وهذيان ، وفوران . . . لن يتطرق إليه النسيان ! . سيظل هذا اليوم مطبوعاً فى ذاكرتهما ، كما لو كان يوم عواصف ، ورعود قواصف ، يرى الرائى ، فى الليل ، على برقه ، أبواب الأبدية ! . .

وكانت الكونتس إيف دى هانسكا فى ثوب من الجوخ الرمادى ، فتن به ، فأعطته من قماشه قطعة . . وأقسم لها أغلظ الأيمان . وقطعت على نفسها العهود والمواثيق . ولم يعد للكونت دى هانسكا ، الزوج ، وجود ! . .

وكان الرجل فى هذه الساعة ، التى يتعبدان فيها لبعضهما ، يحضر مأدبة رواد جبال الألب ، وهذا الرجل المسن سوف يموت ويرحل . . وستزيح الطبيعة عن طريقها مايعوقها . وتصبح مدام دى هانسكا : « مدام أونوريه دى بلزاك » ! . وعند هذه الفكرة ، صاح بها : « ياعزيزة ! ياعزيزتى الحبيبة ! . . إنى أحبك كما كانوا يعشقون فى القرون الوسطى ! . . »

فانظر ، واعجب من مشهد هذا الحب العجيب ، يجرى فى مدينة چنيڤ نفسها ، التى شهدت مذلة الكاتب ، وانكسار فؤاده ، عندما صدت عنه المركيزة دى كاسترى ، ونبذته وهو كظيم !

وكانت الكونتس دى هانسكا نموذجاً فذاً للحسن الأنثوى وهى فى « الروب دى شامبر » ، الذى حملته معها لتلبسه فى بنسيون ميرابو ، حيث كانت تجىء كل يوم ، وكل يوم مرتين ، مدى خمسة عشر يوماً ، فى زوبعة عاطفية مثيرة ! . . رغم ما سببه لها أحياناً الكونت دى هانسكا من الرعب ، لأنه لم يكن دائماً فى مآدب ! .

وكانا ، بعد ساعات الهوى ، يأكلان ويشربان على مائدة صغيرة فى غرفتهما ، ويمزحان . . وهى ، بين قبلة وعناق ، تتوسل إليه :

ـــ لشد ما أعبدك ! . . أنت الطيب القلب . . الرجل العظيم . . ولكن . . بربك ، ياصديق قلبى ، أسعدنى بألا تضع السكين فى فمك ! . .

وهو يضحك :

ـــ أيسوءك ذلك ياحبيبتى ؟

فترد بشىء من الجفوة :

ـــ إن نساءك : كارو ، ودى برنى ، كانتا تستطيعان أن تقولا لك ذلك قبلى .

أهى عجرفة ؟ أهى غيرة ؟ أهى برودة قلب ؟ . . لقد وجه هذه الأسئلة إلى نفسه لحظة ، غضبان أسفاً ! . . ولكن كان جناحاه من القوة بحيث لا يستطيع إلا أن يطير . . والطائر الذى يحلق فى أسباب السموات لا يعود يرى تراب الأرض .

ولم يلبث أن اكتشف من طباعها فى چنيف ما لم يره فى نيوشاتل . . فقد كانت تغلب دائماً عقلها الجبار على قلبها ، فيسوده . . ويصطدم بلزاك بهذه السيادة ، حتى صاح يوماً : « آه منكن أيتها النساء ! . . أيتها النساء ، ماأكثر مافى طبيعتكن من ظلم ! . . » . . وكان أحياناً يرد عليها ردوداً جارحة ، أقرب إلى الحق منها إلى الطيبة ، حتى أحست هزيمتها ، فكانت آخر كلمة لها أن نهرته لما فى صوته من خشونة ! . .

فعاد إلى باريس ، متألما ، مقتنعاً بأن المرأة دون الرجل .

وعلى رغم المفاجأة التى كانت تنتظره من بيع كتابه « **دراسات فى أخلاق القرن الثامن عشر** » بسبعة وعشرين ألف فرنك (ألف جنيه مصرى) ، مما عده ثمناً مدهشاً لايصدق ، فقد مضى فى عمله دون فرح أو مرح .

وكان بحاجة إلى التسلية . . وباريس بلد السلوى . . فقصد خائطه المشهور بويسون ، يوصى ببذل عديدة ، لن يدفع لها ثمناً ، وإن أقسم على الدفع :

ـــ ياعزيزى بويسون ، إن الناشرين وحوش ضوار ! . . (إنهم لم يكونوا كذلك إلا بالنسبة لنفقاته وبذخه) . . فى حين أن رجلا مثلى لا يمكنه إلا أن ينفق ، ياعزيزى بويسون ! . . ومنذ ظهور قصتى « أوچينى جرانديه » ، وعيون الدنيا كلها على بلزاك ! . . فلا بد إذن من أن تكون بذلتى القادمة آية باهرة ! . .

ومع أنه قد تكرش ، وصار جسمه لاينسجم مع التفصيل الأنيق ، فقد تفانى بويسون فى خدمته ، لأنه كان يحبه . كان يحبه إلى درجة أن قدم إليه غرفة فوق محله ، فى ركن شارع ريشليو والبولڤارات الكبيرة ، ولم يكن بلزاك راغباً حقاً فى أن يعمل بها ليكون فى قلب باريس كما ادعى ، وإنما لرغبته الملحة فى الاختفاء والهرب من الدائنين ، المتربصين دائماً ببابه ، يدقون جرس شارع كاسينى ليل نهار ، مما جعل مقامه فيه لايطاق ، رغم حدائق ساحة الأوبسرڤتوار ! . .

وانضم إلى الدائنين رجال الحرس الوطنى ، الذين يبحثون أيضاً عن بلزاك ،

ليعلنوه بأداء واجبه فى الخدمة ، أو يلق السجن جزاء وفاقا ! . . وكانت إعلاناتهم يعقبها عادة التنفيذ فوراً ، وقد نجا حتى الآن من مطاردتهم إياه ، بفضل تنقلاته وأسفاره ، غير أن جيرانه وخدمه قد أنذروه بما ينتظره ! . فسب حكومة لويس فيليب ، وأقسم ألا يخدم فى الحرس الوطنى أبداً ! أبداً . . أيلبس بلزاك « القايش » ، و « الجبخانة » ؟ ! لماذا إذن لا يعلق أيضاً طبلة ؟ ! وهل هو طلب من قائد الحرس أن يؤلف قصة ؟ ! ياله من حاكم أبله ! . . ويا له من عهد مرذول ! . . ولكنه سيقاومهم ، وينتصر عليهم . . بأن ينساهم أولا ! . . والآن . . إلى العمل ! . .

قال لنفسه : « إن ديونى لا تعد شيئاً مذكوراً ، إذا قورنت بالمبالغ الطائلة التى ستنتج عن الموضوعات التى تدور فى رأسى . . ولن يكون فى هذا الجيل إلا أربعة رجال حقاً : نابليون سيد الحرب ، وكوفييه العالم النباتى الذى تزوج الأرض ، وأوكونول النائب الإيرلندى الذى تقمص فيه شعب بأسره ، وبلزاك الذى يحمل مجتمعاً كاملا فى رأسه ! » . .

ولم يكن يقف فى بذخه وسرفه عند حد . كان يكرر لخائطه بويسون : أن رجلا مثله، لابد من أن يكون فى الحياة ، كما هو فى تآليفه ، سابقاً لزمنه ! . . فيبدع هنا ، ويبدع هناك . . أى يخلق « الموضة » ولا يتبعها ! . .

وكان بلزاك يترك شعره ينمو ويطول حتى يروه ، ويتناقشوا فيه ، فلا يلبث أهل الأناقة أن يتبعوه ، ويرسلوا شعرهم ! . .

وكان نسيج وحده ، بلون ثيابه ، وبنظارته التى صنعها له صانع نظارات المرصد ، وبعصاه . . هذه العصا التى كانت فريدة فى باريس ، وكانت من وحى العشق . . فقد سأل مرة الكونتس دى هانسكا أن تعطيه شريطاً أو منديلا تذكاراً منها ، فأعطته سلسلة صغيرة من الذهب ، مرصعة بالفيروز ، ومنتهية بشرابة ذهبية كالسبحة ! . .

ولم يلبث أن أراد أن يظهر ذلك فى باريس ، وأن يحمله على رؤوس الأشهاد ، كعلامة بديهية على أنه يعيش تحت شارة الحب !.. فقصد الجوهرى « ليكوانت » المشهور ، وأغدق عليه الأوصاف والأمجاد ، وجعله يخرج له من عصاه وسلسلتها وشرّابتها الذهبيتين صولجاناً ، يرفعه فتتجه إليه جميع النظارات المكبرة فى دار الأوبرا عندما يدخل !.

وكان النساء يتهافتن عليه فى دهاليز التياترو ، ويكتبن إليه الرسائل .. وكان يقيم المآدب فى المطاعم ، ويقدم من ألوان الطعام مايزرى بموائد الملوك والأمراء .

وظهرت قصته التى رسم فيها المركيزة دى كاسترى ، المرأة التى لاقلب لها . فدهش من ذات نفسه . وبهر من روعة هذا الأسلوب وجرأته وعمقه !.. إن أحداً لم يعالج الحب قبله هكذا . إنه لايخاف الألفاظ ، ولا الأشياء ، وقد حلل تلك المركيزة ذات القلب المعمّى كاللغز ، تلك المرأة التى هو مدين لها بالحزن الذى قبض رجاءه ، ولكنه صقل ذكاءه .. فتساءل : ماذا يكون لو أنه ذهب فقرأ لتلك المرأة كتابه ؟ ! أجل ، أجل .. حتما !.. لابد للمرأة التى سببت كل هذه الوجيعة ، والتى زعمت أنها اتخذت تابعاً لها من رجل عبقرى ، من أن تعرف كيف يتحرر منها وهو يحسن إليها .. لأن الكتاب العظيم هو إحسان عظيم !..

وهرول إلى قصر شارع دوباك ، فوصل والساعة الرابعة . كم من مرة وصل فيها فى نحو هذه الساعة والقلب يذوب صبابة !.. فلما سأل عما إذا كانت المركيزة تستطيع مقابلته ، تواثبت عليه ألوف الذكريات .. وكاد يحس ضعف الأيام الخالية !..

أذنت له .. فدخل . فلم تصح صيحة الفرح ، ولم تلق بنفسها بين ذراعيه . وهو مع ذلك يذكر رسالتها التى كانت كل جملة فيها زفرة ولوعة .. وها هى ذى الآن معصومة من الألم ، ثابتة الجنان ، تكاد تصيح منها الغطرسة والدلال !..

فقدّر بطيبة قلبه : « لعلها بكت طويلا ! . أو لعلها قد جفت من عينيها الدموع ! إيه أيتها المرأة ! . . أيتهـا المرأة الرهيبة ، المجهولة أبداً ! . . من ذا الرجل الذى لا يكون ، أمامهـا ، شـقياً ؟ . » . .

ولـكن لا ! . . إنه ، هو ، لن يكون بعد كذلك . . لا يريد . . .

وأفضى إليها بلهجة الجندى الذى سيغامر فى معركة بالسبب الذى جاء من أجله . . وأنه يريد أن يقرأ لها : هذه . . هذه الأوراق . . كتابه الأخير .

فتبتسم وتقبل . تلك الابتسامة التى ليست وراءها ابتسامة . سيقرأ عليها قصته ، أى قصتها ، وينتصر عليها ، ويخزيها . .

فتستمع ، بينما تهز مروحتها . . وتشير برأسها إلى أنه قد أحسن معـالجة الموضوع . . إنها ترى فيه نفسها ، وتسمع نفسها ، وتعرف نفسها . . فتبتسم أيضاً . . وكان يقرأ بحدة ، حتى اشتد تأثره . . وسألها :

ـــ أليس هذا جميلا ؟ . .

فتقول بصوت نحيف :

ـــ نعم . . . ومكتوب جيداً جداً . . . وإنى لآسفة حقاً إذ ضربت موعداً لبضعة أصدقاء . . فها هو ذا مونسنيير ، الذى يتلقى اعترافى . . وكذلك طبيبى . . والمركيزة دى لابوردونيه ، قد وصلوا معاً ! . .

فيقف بلزاك . ويلم أوراقه بعجلة ، ويخفيها ، وقد احتقن وجهه غضباً ، وتلهّـب غيظاً . . ويبحث عن باب فى الأرض أو فى السقف ! . . وبوده لو ألقى بنفسه فى النار ! . . أو يذبح هؤلاء الناس جميعاً ! . . ثم . . لا يلبث قلبه الـكريم أن يخفق فى صدره ، مشيراً عليه بأن العفو من شيم الـكرام . . وأن قراءه سينتقمون له ، بحكمهم الصارم على هذه المرأة . . .

فيودع وينصرف . ويجرى إلى شارع دنفير ، حيث صاحبته مدام دى برنى طريحة الفراش ، وقد دخل الليل ، فيجدها فى الساعة التى تشتد فيها آلام

المرضى . . فيحاول أن يرد الحرارة إلى جسمها الفاتر ، وقلبها العاثر ، بيديه الساحرتين . . ولكنها تقفه ، وتغتصب الابتسام . . إنها لاتريد أن يرى ألمها .. وكان ألمها لاحدّ له . وكانت تعرف أنه قضى أسبوعين فى چنيف . ونبأها قلبها بماجرى خلالها . . ولكنها أخفت عنه غيرتها . فإن عقلها يبرر عمله ، أما قلبها . . .

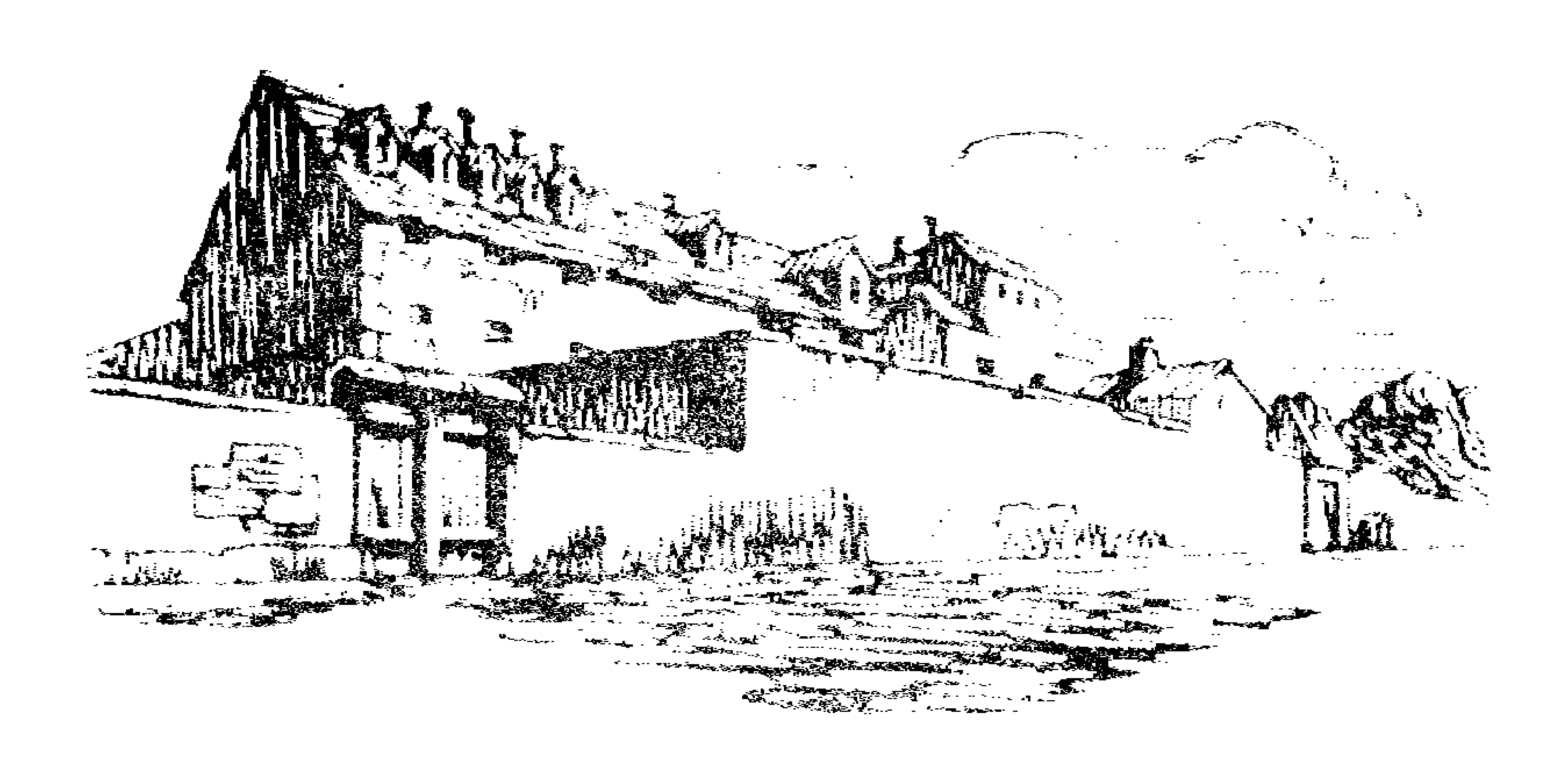
وحاول هو من جانبه أن يخفى ألمه لرؤيتها ذاهبة . . فلم يعد ثمة شك فى أنها هالكة . ياللحبيبة المسكينة ! . . لقد قام أمام عينيه بيت ضاحية ڤيلباريزيس ، عندما دخلت الصالون ، مع بنتيها ، فى ١١ يونيه ١٨٢١ . . وأحس بفؤاده يتمزق . . وصعدت زفرة إلى حلقه . ولكنه نظر إليها ، وطمأنها بأنها خير مما كانت . . وأنها لاتلبث أن تسترد مزاج الحياة . . ووعدها بالعود لزيارتها بعد أيام . .

وخرج . . وكأنه يسير وإلى جانبيه الحب والموت . . فتثلج جسده . وفطن فجأة إلى أنه يحمل شيئاً . وكان هذا الشيء مخطوطاً يريد تجليده لعزيزته إيڤ ، مخطوطاً يعجبها ، ويجلده فى قطعة القماش من الجوخ الرمادى ، من الثوب الذى أحبه عليها . . وانتصبت أمام ناظريه الكونتس دى هانسكا ، تمشى مشيتها الأخاذة ، التى لاتكاد تمس الأرض ! . .

پنسيون ميرابو ! . . يا للأيام المجنونة ! . . ويا للذكريات السكرى ! . .

« إيڤ ! . . يا حوائى المعبودة ! . . » . .

ونطق بهذه الكلمات بصوت مرتفع . . لم يلتفت إلى من يدفعهم من حوله من المارة . . فقد كان مخبولا حباً ! . .



الجزء الثالث

النضال مع الموت

١

أرأيت إلى المسافر فى الجبل صعداً ، يبلغ القمة ، فيشعر بفرح قوى قصير . . فها هو ذا فى غاية جهده . لقد بلغ الهدف ، ولكن بلغت الروح التراقى . . وفى الطبيعة المجردة يستنشق هواء من النقاوة بحيث يجعله يترنح . . ولا تحول هذه النشوة دون شعوره برعدة البرد . . فيرى أن مصيره ليس معلقاً بالبقاء فى هذا المقام الشامخ . . فينزل ثانياً . . .

وهذه هى صورة الحياة . فسنوات الوحى والفيض قصيرة . وبعدما يناضل الرجل الناجح فى سبيل العيش طويلا ، ويبلغ ذروة الخصب الوفير ، لايبقى هكذا إلا يوماً ، ثم يعود فيهبط ، ثم يهبط . . ومنذئذ ، لابد له من النضال حتى لا يموت . . .

ولم يستطع بلزاك أن يملك ناصية القدر إلا عامين أو ثلاثة . . وفى خلال هذه الأعوام لم يحس الحاجة إلى المال ، ولا بآلام الحب ، ولا بمشاق العمل ومتاعب الجهاد . . ونسى فى غيبوبة الهوى ديونه . . ومن شجن الهيام بامرأة جافية وضع كتاباً عنيفاً . . فهل كان الحكم عليه قاسياً ؟ ! إذن فهو يهرع نحو حب آخر ، يسوقه إلى ديون أخرى . . وإن كان يبدع فيه قصة جديدة ! . .

لقد كان يحارب على طول الجبهة ، وكان يعاند كل شيء حتى القدر ، وكان يحيا حياتين أو ثلاثاً ، ويجد بفضل قهوة البن إلى عدم النوم سبيلا ، ويملأ هدوء الليالى بعمل مضن كالعبيد . . ولم تظفر عبقريته وتزدهر إلا بما أوتيه من صحة وقوة ، أشبه بالثيران ، لا بنى الإنسان .

ولكن حدث فجأة ، فى هذا الجسد القوى ، أن اختل التوازن . ففى نوفمبر ١٨٣٤ أصيب بشيء كاحتقان خفيف فى المخ . على أنه شفى منه سريعاً ، ولم يلق إليه بعد بالا . وكان ذلك إنذاراً بما يهدد الهناء .

وكانت سنة ١٨٣٥ من أمرّ السنين . أما سنة ١٨٣٦ فكانت بلاء . فقد صارت الكتابة ضرباً من الأشغال الشاقة . لم يعد لديه سبب إلى الراحة . فكم من العمر أمامه ؟ إنه يخشى أن يجيء الموت فيقطع عليه عمله . ولكيما يتم هذا العمل سريعاً مات قبل الأوان .

وكانت أمه ، مثل كثيرات من النساء عند ما تتقدم بهن السن ، لا ترى مطلقاً وجهاً للتفاؤل ، وترى وجوهاً عدة للتشاؤم ، فهى تراكم : العقبات ، والمشاغل ، والمشاكل . . وكان أمامها يذوب يأساً . فإذا كان ما زال حتى سنة ١٨٣٥ مديناً بـ ١٥٠,٠٠٠ فرنك (ستة آلاف جنيه) فهذه غلطة القدر وحده ! . . وكان يقدر أن يكسب من الناشرين عشرة آلاف فرنك فى السنة ، مدى ثلاث سنوات ، يسدد منها ستة آلاف ، أرباح ديونه ، ويعيش بالباقى ! . . ولكن أين يجد الوقت المادى لذلك ؟ وهو يسعى لدى المرابين الذين يتقاضونه

عشرين فى المئة نقداً ، ويتقاضونه خمسين فى المئة من وقته الغـالى ! .. ما أصعب الإنتاج الأدبى ، وما أشد استحالته ، على دماغ معذب على هذه الصورة ! زد على ذلك ما اشتراه من عربات ، بفكرة توفير الوقت ، الوقت الذى هو لديه أثمن من كل شىء ! . . وإذا كان بحاجة إلى النور فى الليل ، فذلك لكى يظل ساهراً ، وإذا كان بحاجة إلى القهوة والنار ، فذلك لكى يعمل فى دفء ، ويحاول أن يدفع ! . . .

وتخيل نفسه ، لحظة ، يعيش ، ويتنفس ، فى جو مقاطعة تور الهادئة الجميلة ، وإلى جانبه عزيزته « إيڤ » ، التى ستغادر بولونيا لتشاركه هناءه . . آه ! . . هناك ، لن يكون بعد بحاجة إلى المرابين ! . . هناك ، لايتكلف العيش شيئاً . . فيطعم الخضر التى يزرعها ! . . هناك ، يسخر المرء من الناشرين ، ومن المجلات ، ومن الجماهير ، ومن الصالونات ، ومن الحرس الوطنى ، جميعاً ! . .

وكانت إدارة « الحرس الوطنى »(١) قد أصبحت من أشد أعدائه نكاية به ، واضطهاداً له ! . . فلم يكن يروعه شىء ، ويملأه بالغضب والاشمئزاز ، مثل اضطراره يوماً إلى الوقوف موقف الحارس ! . . فى أبريل ١٨٣٢ سلم ، واشترى لنفسه سيفاً وجبخانة ، لا أكثر ولا أقل ! . . فلم يلب قط دعوة وجهت إليه . ومرت شهور ، وشهور ، وهو يهرب من السلطات . فتلقى الإنذارات ، ثم إعلاناً بحكمين صادرين ضده . يقضى كل منهما عليه بالحبس يومين . وأخطأوا القبض عليه مرتين ، ثم أمسكوا به فى الثالثة . . فكانت مأساة من مآسى حياته . فأودعوه فى الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٧ أبريل ١٨٣٦ المنزل المجاور لسوق الخضر المسمى « دار اللوبيا » L'Hôtel des Haricots ، نسبة إلى صحن اللوبيا الرئيسى الذى يقدمونه لكل قادم أسوة بالثكنات ، وأشبه

---

(١) هى خدمة إلزامية لفترات محدودة ، وأعمال معينة ، فرضت لظروف قومية استثنائية ، خلال السنوات : ١٨٣٠ - ١٨٤٨ و ١٨٧٠ - ١٨٧١

ما يكون بطبق العدس الذى يقدم فى مصر . فتراكمت عليه السأمة والسخط .
وكان البرد تقشعر منه الذئاب . وهرول إليه ناشر كتبه الشاب « ڤردت » . .
ولما أغلقت عليهما « الزنزانة » ، هاج بلزاك هيجة الوحش الضارى ، حتى لكأنه سيهم بالتهام ڤردت ، أو تهشيم رأسه فى الجدار . . أيليق هؤلاء الأشرار بأونوريه دى بلزاك فى هذه الزنزانة الكريهة ، ليموت فيها من البرد ؟ . . أتريد حكومة الملك لويس فيليب أن يقضى فيها نحبه ؟ . . أليست هذه مؤامرة وضيعة ؟ . ولكن لا ! . . إنه لن يموت من ذلك ، بل يرفع الرأس ، ويقاوم ، ويبصق باحتقار على : هذا البلاط ، وهذا الحكم ، وهذه « البورچوازية » التى تسندهما ، وهؤلاء البقالين جميعاً ، المبهورين بذهابهم فى موكب لعرض بطونهم أمام بلاط التويلرى ! . . . وإنهم وربى ليزعمون أنفسهم جنوداً ، هؤلاء « الحراس الوطنيون » ! . . ويتصورون أنفسهم على غرار نابليون ! . . وهؤلاء هم نوع المواطنين الذين يعنى بهم جلالته ! . . أما الكتاب ! . . فإذا قام الدوق دورليان وزوجته بإقامة سهرات أدبية لهم ، فإن الملك لايلبث أن يشعرهما بأنها سهرات فى غير موضعها ! . . إذن فالتجارة والصناعة فوق كل شىء ! . . وإذن فهو الجهل المطلق بما هو أهم وأعظم ، أى : بالفكر ! . . أيكون بلزاك طريح « دار اللوبيا » ؟ ! . . إن هذا المشهد ، فى القرن التاسع عشر ، يدعو إلى الاستشاطة ، والبكاء غضباً وسخطاً ! . . هل قام الشعب بثورته من أجل هذا ؟ ! . . أيفرح الحمقى بأن يكتب على أزرار ملابسهم العسكرية ، ملابس الحرس الوطنى : « نظام وحرية » ، كأن أحدهما ليس مضاداً للآخر ؟ . . فما هى هذه الحرية التى تمكن أى سوقى من أن يطرح فى غياهب السجن كاتباً كبيراً ؟ . . وتجعله يخسر : عشرة آلاف فرنك . . إنه سيطالب بها فيما بعد ! . . . بل إنه سيخسر (بعد إحصاء !) ١٤,٥٠٠ فرنك ! .

ثم خانته شجاعته فجأة ، فرثى لسوء طالعه الذى أدى به إلى هذا .. ثم طفق :

يسعل ، ويهدد ، ويتوعد ، بأن له مجلة Chronique de Paris يفضح فيها من يضطهدونه ، ويتحدى من ينتقدونه . . وأنحى على هؤلاء وهؤلاء باللائمة :

— أما الصحفيون ، فى هذا كله ، فهم لا يفرقون . . يرون وفرة إنتاجى ، فيقولون إننى أكثر القصصيين خصباً ، وحسب ! . . فياعزيزى ڤردت ، إن هناك امرأة حدثتك عنها من قبل ، امرأة مثقفة ، وهى لى صديقة شائقة ، مدام كارو ، قالت لى يوماً : « إن المحترفين من أهل الأدب لا يمكن أن يفهموك . . فأنت تضفى من روحك ونفسك على كتاباتك أكثر كثيراً مما يدركون ! » . . وهذا حق . وأضف إليه الغيرة والحسد ، فهم يروننى أحلق فى السموات ، بينما هم يتخبطون فى الأوحال ! . . أسفاً على أن الوقت يضيع فى هذه الحروب الدنيئة ، الظاهرة والخفية . فعندما أفكر فى أننى سأبلغ ، بعد خمسة عشر يوماً ، السابعة والثلاثين من العمر ، أرانى قد انتهيت ، فلم أعد شاباً . شعر أبيض ، وبطن أكرش !

فقال ڤردت :

— حسبك ، حسبك ! . . أرى هذا التعلل منك دليل الجوع . . فهل أذهب فآتى لك من المقصف ما ألقى ؟ . .

— إن ما فى مقصف هذا السجن تتقزز منه نفسى تقززها بهذا العهد . . فاذهب ياعزيزى ڤردت إلى مطعم « ڤيفور » واطلب لى وجبة ملك ! . .

— ماذا تقصد بوجبة ملـ . . .

— وجبة يسمع بها ويدهش لها لويس فيليب ، الذى يعلم الناس طراً أنه ليس ملكا ! . .

وجاءت الوجبة الفاخرة بعد ساعتين . وأحضر ڤردت معه خدم بلزاك ، فقاموا على خدمته ، أثناء تناوله الطعام ، فى قاعة الأكل ، أمام أعين المعتقلين الآخرين المبهوتين . . ولما انتهى عاد إلى غرفته . وكان ڤردت قد حصل على

إذن بإيقاد النار فيها الاصطلاء . فاسترد بلزاك بعض الثقة بالنفس . . وحملوا إليه « مهد قارئة معجبة علمت باعتقال المشبوه » : طاقة زهر ، وفطائر محشوة بالطيور ومربى المشمش . . فتنهد قائلا :

ـــ لاشك فى وجود نساء ظريفات . ولا مراء فى أننى عملت من أجلهن الكثير ! . . ولو أن لنا يا عزيزى ڤردت ثلاثة آلاف قارئة متحمسة فقط ، مضمونات لكل كتاب ، لكان فى وسعنا الثقة من شىء . .

فسأله ڤردت بلهفة :

ـــ من أى شىء ؟ . .

ـــ من الإثراء ! . . أنت وأنا ! . .

ـــ من لا شىء ؟ ! . .

ـــ لا تكن ضيق الأفق ! . .

وطفق يستعرض فى زنزانته هذه الأحلام الجديدة . . . وإذا بحارس يدخل ، ويعلنه بحكم آخر عليه بالسجن ستة أيام ، حتى ٤ مايو ! . . فألقى بالحارس خارجاً ، غاضباً ، محنقاً ، قانطاً . . . وسقط إعياء على الحصير ، قائلا لصاحبه :

ـــ أنت ترى أننى رجل انتهى ! .

وكان هذا الناشر الوفى معه أيضاً يوم خروجه فى ٤ مايو . فقال له بلزاك :

ـــ هذه التجربة هى درس لى . فإنى كثير الكلام . وكثيراً ما ألفت الأنظار . وهم ينتقمون منى ، لشدة طيبتى وصراحتى . وقد فهمت . وهذا كله سيتغير . وسأعمل الآن فى الظل ، من أجل نفسى . . ولن يسمعنى بعد إنسان . فم مطبق . صمت ووحدة ! . .

وكان لابد له ، لتحقيق ذلك ، أولا ، من ألا يكون مثقل الذراعين بمسألتين ، أو ثلاث مسائل خطيرة ، هى حديث كل الناس ، أو لا تلبث أن تكون حديثهم .

وجاءت مجلته Chronique de Paris التى اشتراها منذ ستة أشهر ، فزادت الطين بلة ، يتمنى لو صفى حسابها ، ولا يستطيع أن يفعل . وكان من كبار المساهمين فيها : الترزى بويسون ، الذى كان مديناً له أيضاً بتفصيل ثياب قيمتها أربعة آلاف فرنك ! . . وكان بويسون ، بدل أن يتمرمر ويتذمر ، يقرأ المجلة من الغلاف إلى الغلاف (وكانت فى اثنتين وثلاثين صفحة ، تظهر كل ثلاثة أيام) ، ويقول لبلزاك وهو يقيس له البذل الجديدة :

ـــ إنى لا أفهم كيف أنك ، وهذه كفايتك العجيبة ، لاتكسب الملايين العديدة . . فإن أحداً لم يؤثر فىّ بقلمه مثلك ! . .

ولم تكن مجلته التى تلتهم النقود ، بدلا من أن تدر عليه مالا ، هى شغله الوحيد الشاغل . فقد عاد فألفى نفسه فى مركز حرج مروع ، كما كان فى ١٨٣٩ ! وكان عليه أن يدفع ٤٠,٠٠٠ فرنك قبل آخر السنة ! . . وكان يردد ذلك لكل من يصغى إليه ، من خادمه الخاص ، إلى أعيان حى سان چرمان ، تاركا ، فى الوقت نفسه ، الصحف والمجلات الكاريكاتورية تفيض بذكر أسطورة تتردد عن : أنه غنى جداً ، لأن ذلك كان ، فى صميمه ، يملقه ويرضيه ! . . ولكنه ما كان ليعطيه شيئاً ! . . وهاهى ذى ناشرة كتبه ، « مدام بيشيه » الأرمل ، قد تزوجت من رجل يدعى « چاكيا » ، فحملها هذا الزوج الجديد على مطالبة بلزاك بخمسين فرنكا يومياً ، تعويضاً عن تأخير المخطوطات ! . . على أن أمله الأكبر كان متعلقاً بنشر قردت قصته : « الزنبقة » . . ياالله ! . . إنه لم يكد يخرج من « شكنة اللوبيا » ، حتى رأى نفسه مضطراً لرفع الدعوى على مدير « مجلة باريس » ، وهى قضية استنزفت دمه ، لشدة ما وضع فيها من روحه ، وشدة ما لقى فيها من خيبة أمل . . لشدة ما كان رجل إحساس ، وقلة ما كان رجل أعمال . فإن « بولوز » ، مدير تلك المجلة ، كان قد أعطى النصف الأول من قصة « الزنبقة » إلى جريدة من جرائد سان بطرسبرج . . فزعم بلزاك بادئا أنه حالم . ثم أقام

الدعوى أمام الحقيقة الواقعة ، واستنجد بزملائه من أهل الأدب ، لأنه يدافع عن مصلحة عامة لهم جميعاً . . فماذا وجد ؟ . . لقد رآهم جميعاً فى صف بولوز ضده ، ليكفل لهم بولوز نشر مقالاتهم فى مجلته ! . . فعانى قلب بلزاك الساذج من ذلك ماعانى . وكسب القضية ، ولكنه خسر أحلامه ! . ولم يخفف نجاح الكتاب من مرارته ، مع أنه بيع منه فى الثانى من شهر يونيه ١٨٠٠ نسخة فى ساعتين اثنتين ! . . ومرض من ذلك ، فسافر إلى مسقط رأسه ، حيث اشتدت عليه العلة . . ثم شفى ، وعاد إلى باريس ، حيث كان قد اتخذ ، من عام ، مسكناً جديداً ، بشارع «باتاى» ، أثثه وزخرف صالونه بالحرير والذهب ، مضاعفاً بذلك ديونه (أنا الغريق فما خوفى من البلل !) . . وكان له باب غير منظور ، إلى سلم خفى ، كالقصور القديمة . وكان من هذا السلم يصعد إلى « سندره » اتخذها مكتباً . ومنها يرى : « الشان دى مارس» ، والمدرسة الحربية ، وجرينل ، وتلال ميدون . وبذلك يشرف على جانب من باريس وضواحيها . وكان يقول أحياناً وهو واهن العزم ، وأحياناً وهو يتحدى : « كم من قراء بلزاك فى البيوت التى أراها ، وفى التى أتخيلها وراء هذه ! . . لاشك فى أنهم فى كل مكان ! . » . . وسيثبت الزمن أن قراءه سيكونون فى كل زمان أيضاً . . وأنه سيترجم على ضفاف النيل ، ويقرأ شباب الشرق ، المتحمس لكل ماهو جميل ، هذه الحياة الموفورة العجيبة .

وماكان بلزاك ، بكل هذا الجهاد ، مع الديون المتراكمة عليه ، إلا ليشق . . أوَلم تر كيف تقبل من الكونت والكونتس دى ڤيكونتى الذهاب إلى تورينو ، من أعمال إيطاليا ، ليكون وكيلا عنهما فى قضية تتصل بالدفاع عن مصالحهما ؟! أيترك هكذا شهراً كاملا ، منضدة عمله ، ويسافر هادئاً إلى الخارج ، فى خدمة أحد السادة ، لا يكاد يكسب إلا قوته ، ويرى فى ذلك عملا محموداً ؟! ويغيب عن باريس من ٢٥ يوليه إلى ٢٢ أغسطس . . ويعود فيجد فى بيته بريداً ضخماً ينتظره . . وينظر إلى الغلافات ، فيرى غلافاً منها رابه أمره ، ففتحه ، وضرب

المنضدة بقبضته ، حتى كاد يكسر يده ! . . فهو نذير له بحكم آخر عليه ، لأنه لم يقم بدورته فى الحرس الوطنى ! . . وكان ثمـة خطاب آخر ، عرف فيه خط ألـكسندر دى برنى ، نجل صاحبته الحبيبة لور دى برنى . ففضه ، فإذا به :

[لابولونيير فى ٢٧ يوليه ١٨٣٦

هذه رسالة حداد . ياعزيزى أونوريه . . .]

فـكف قلب بلزاك عن الخفقان . وبحث بعينين جاحظتين ، من هول الصدمة ، فى خلال الصفحة ، عن الكلمة المحتومة . فوقعتا عليها . لقد ماتت ! . . ياللسماء ! . . لقد سقط فى كرسيه كما لو كان قد صعق صعقاً . ماتت ! هى ؟ . . لور ! . . لور ! . . وناداها بصوت متحشرج مختنق ، وقبل أن يقيس مدى مصابه فيها ، رآها بعين خياله على فراش الموت ، ثم مسجاة فى قبرها . .

— أواه . . ياحبيبتى ! . .

لقد سقط قناع من الحزن على عينيه ، فأمسك بالخطاب ، مرتعش اليدين ، لا يكاد يفك خطه :

[. . . بعد عشرة أيام فى آلام عصبية حادة للغاية . قضت أمى نحبها فى الساعة التاسعة من هذا الصباح . . لقد انتهت حياة هذه الأم الطيبة . وقد هدأت الآن ، واستراحت فى جدثها . وقد رتبت قبل مرضها الأخير رسائلها . وجعلتها فى ثلاث لفائف . وإحدى هذه اللفائف تحتوى على جميع مراسلاتك معها ، منذ عرفتك . وهذه اللفائف المربوطة المختومة باحكام . لدى منها أمر قاطع باحراقها ، بمجرد موتها . . فبعد ساعة من كتابة خطابى هذا ، سأشعل فيها النار . . .]

وكان بلزاك ، وهو يقرأ ، يئن ويتوجع . فقد كان فى عربة المسافرين ، ليقضى مهمة الـكونت الإيطالى ، بينما حبيبته تقضى نحبها . . فلم تره . . ولم تسمعه . . ولم يقف إلى جانبها ! . . وهو ، وقد سمع اليوم بموتها ، لايستطيع أن

يهرع ليجثو أمام رفاتها . . فعليه أن يذهب ليقدم حساباً عن مهمة فى إيطاليا . . فيقول : « إننى لا أستطيع حتى قضاء الواجب المقدس ، من وداع التى كانت كل شىء لى ! . . إننى عبد رقيق ! . . إننى أتعس الناس ! . » .

إنه لم يرها فعلا إلا بعين الخيـال ، وهى تمد ذراعيها إلى ولدها ، تسلم روحها ، فى لوعة الحنان الأخيرة ، زاعمة أنها يغشى عليها بين ذراعى أونوريه ! .

ياللسماء ! . . إنه لم يرها منذ عام ! . . عام ! . . هذا فظيع ! . . ولن يجـد لنفسه عزاء . . بعد كل ما تراكم عليها من مصائب : افتراقها عن زوجها ، وموت إحدى بناتها ، وجنون بنت أخرى ! . . على أنه ، من جانبه كذلك ، قضاه عاماً مضطرباً منحوساً ! . . انظر ما ناله : من مجلته ، ومن قضية ناشرة كتبه« بيشيه » ، ومن قضية قصته « الزنبقة » ، ومن كل تلك الشناعات التى جعلته كمن حقت عليه اللعنة فكان من الهالـكين .

إنه اليوم يتذكر نصحها إياه بألا يكون كثير الطيبة ، وألا يكون مفرطاً فى الثقة بالناس . . وها هو ذا يرى صدق نصحها . إن الإفراط فى الثقة معناه أن يكون معتوهاً فى عالم محشود بالقرصان . . . وهاهوذا يجد نفسه ، مرة أخرى ، فى شارع دى باتاى ، يعيش فى غرفة سطح ، كما كان منذ خمسة عشر عاماً سواء بسواء ! . . فياللسنين التى غمرته بطوفانها دون جدوى ، أحياناً تحرقه بنارها ، وأحياناً تجمده بثلجها . وآهٍ ! . . لولا ماتخللها من بعض العطف الأنثوى ، وبعض الحنان ! . .

فحاول ، بالكتابة إلى صديقاته ، المجهولات والمعلومات ، أن يتخفف من حزنه ، وأن يتشدد من ضعفه ، وأن يطرى ذلك الملك الذى فقـده ، فيلطف بالمديح والثناء عليها ، من الندم على قضائه عاماً دون زيارتها . فكتب إلى ثلاث نساء . . الأولى تدعى لويز ، وهذا كل مايعرفه عنها . وهو لم يرها قط . ولـكنه كان يتبادل وإياها الرسائل التى بدأت بصيحات النجوى والإعجاب ، ثم تحولت

إلى نداءات التمنى ورشف الرضاب ! . . وكانت تلك المرأة ، ببقائها خافية عليه ، مجهولة منه ، ذات تأثير شعرى فيه لايقاوم . . فهو يروى لها ، أول مايروى ، حديث بثه وألمه :

[إن المرأة التى فقدتها ، كانت لى : أكثر من أم ، وأعز من صديقة ... إنها ملك هبط على ، ليرحمنى من هول ما ألقى فى هذه الأرض المستعرة بالويلات . . وقد أيدتنى : بالقول ، وبالفعل ، وبالتفانى ، فى أحلك الليالى ، وأشد الأيام أنواء وزوابع .. وإذا كنت أعيش ، فبفضلها ، فقد كانت لى كل شىء ! ...]

وكان فى بريده خطاب من زولما كارو تدعوه ، كالعادة ، إلى أن يغادر هذا الفرن الممقوت ، باريس ، ويذهب إليها ، فى الريف ، ليستجم ويستريح .

آه لو كان يستطيع ! . . لقد هرع بالفكر نحو الحياة الجميلة المحيطة بتلك المرأة البسيطة ، الطيبة ، الكريمة ، التى لم تكن له يوماً إلا : صديقة ، وفية ، نقية .. وكانت تعرف مدام دى برنى من حديثه عنها ، وتتمنى لو عرفتها بشخصها ، فراح يبثها مصابه العظيم . . .

وأخيراً . . كيف لم يكتب خطاباً طويلا إلى عزيزته « إيڤ دى هانسكا » ؟ ولكنه لم يكن ليستطيع مع هذه التى كانت خليلته ، أن يبدى ذات الصدق المطلق ، الذى يتحرّاه مع الأخريات ، اللواتى لم يكنّ إلا صديقات ! . . إن الكونتس دى هانسكا امرأة ذات أهواء . . فبالرغم من رسائله المشتعلة حباً إليها ، تراه غير وفىّ لها . . وهى تصغى إلى ما يدور حوله من وشايات الحساد . . حتى لقد اضطر مرة إلى الاقتراض من ناشره ڤردت ، وخف إلى لقائها فى ڤينا ، ليخفف من سورتها وغضبتها . فتصالحا . وما كانت لتقاوم قط حديثه . كان : بصوته ، ونظرته ، وحميته ، وفورته ، يؤثر فيها ، كما كان يؤثر بكتابته . . . ولم يستطع بلزاك ، يوم علم بوفاة لور دى برنى ، إلا أن يقارن : بين إيڤ ، وبين تلك التى ذهبت لغير عودة . . تلك التى كانت رءوفة رحيمة به ، كريمة معه ،

حية منه . . وقد ماتت ، على مايلوح ، من عذابها الأدبى ، دون أن تبوح له . .

آه لتلك المخلوقة العزيزة ، العلية النفس . . أبت إلا أن تتنزل عن الحب ، عندما رأت أنها قد وهنت ، وصارت عجوزاً ! . . لشدما كانت تعرف كيف تحب ، فلا تفكر إلا فيمن تحبه ، حتى إنها قالت له ، عند عودته من چنيف ، ولقائه إيڤ : « أحس أنك قد عرفت الآن امرأتك الحقيقية ، وأرى هذا خيراً » . .

أى قلب كبير ، هذا القلب الكسير ؟ ! . .

وعندئذ كتب إلى الكونتس خطاباً مؤثراً بما فيه من عزة وأنفة :

[ماتت مدام دى برنى . ولا أقول لك أكثر من ذلك . فان حزنى ليس حزن يوم .. وإنما سيمتد على مابقى لى عند الدهر من عمر . . لقد كانت صادقة . لم ترد إلا الخير والكمال لى .. وأنت عندى وارثها .. فان لك كل صفاتها النبيلة ..]

وشعر بدوار رأسه ، وضيق صدره . كان بحاجة إلى الهواء . فخرج . وصعد حتى ساحة الإيتوال . وكانوا قد أزاحوا الستار عن « قوس النصر » غداة سفره إلى إيطاليا . فوقف يتأمل : ذلك النصب الفخم ، الذى شيد تكريماً للبطولة ، وتمجيداً للجيوش . . .

المجــــد ! . . .

لقد تساءل بلزاك ، فى هيجته ولوعته ، عما إذا لم يكن المجد ، كالحب ، سريع العطب . . وعما إذا كان يستحق التهالك عليه ، والتفانى فيه ! . . .



٢

إن ثبوط الهمة فى مثل هذا الرجل ، لايمكن أن يدوم إلا إذا ازدادت حالته الصحية سوءاً . . هذا فى حين أنها تحسنت . وهو يعزو ذلك إلى الاستشفاء بالفاكهة ! . . فقد ورث عن أبيه الاندفاع المباغت نحو بعض النظم الغذائية . أما وقد التهم أرطالا ، بل أطناناً ، من : الكرز ، والقراصيا ، والخوخ والكمثرى ، فقد أحس بصفاء ذهنه ، ونشاط جسمه ، واستعداده من جديد للنضال الجبار ! فجعل ينظم مؤلفاته فى سلاسل باسم : دراسات أخلاقية ، ودراسات فلسفية ، ودراسات تحليلية . واستأنف مشروعاته عندما كان فى سن العشرين . وبذلك أحس بسعادة فائقة . إنه يريد : المجد والمال ، معاً . وكانت زولما كارو ، المتواضعة ، تحسب أنه يمكن الحصول على هذا دون ذاك . وهذا خطأ ! . . فلا بد من أن يكون المرء أولا غنياً ! قال : « إننى أخسر ٣٠,٠٠٠ فرنك (١٢٠٠ جنيه) فى السنة ، لأننى لست غنياً . فإذا أصبحت غنياً فرضت إرادتى فرضاً ! . . إذا أصبحت غنياً لا أعرض عملى ، بل يُطلب منى ، ولا أكون سائلا ، بل أكون مسئولا . . وليس « أوچين سو » شيئاً مذكوراً فى عداد

المؤلفين ، ولكنه غنى ، ولذلك يقف ببابه الناشرون أفواجاً . فالمال هو السيادة . إذن فلا بد لبلزاك من أن يسود باريس ، ويبهر العقول ، ويضرب على أوتار القلوب ، فيجيئوا يضربون على بابه ! . .

واعتزل فى « سيفر » ، من ضواحى باريس ، هرباً من أحكام الحرس الوطنى ! . . وفكر فى : شراء أرض ، وبناء بيت ، حتى يسكن الجو المختار الذى يطيب لحياته ، وينسجم وأعماله ، فيتوج ذلك جهده ، ويكون حافزاً على الدأب ، أى عاملا على الغنى . . لأن المال هو السلطان . هؤلاء هم العامة ، وهؤلاء هم الخاصة ، أترى على ألسنتهم ، من الصبح حتى المساء ، كلمة سواها ؟ ! إذن فسيعمل كسواه ، وسيكسب مالا ، ويثرى ثراء ! . . وسيتضاعف فى خلال عشرة أعوام ثمن بيته ، بل سيكون ثلاثة أمثاله ! . . وزاره ڤيكتور هيجو فى ذلك البيت ، الأقرب إلى الكوخ ، والذى أطلق عليه : Jardies . . ولم تكن أشجاره تزيد طولا عن ثمانين سنتيمترا ! . . ولكنه بيته ، فهو إذن بيت كبير !. وعد زيارة هيجو له بمثابة : الشِّعر يزور القَصص ! . . وصار ذلك الكوخ فى سجل التاريخ ! . .

ولكن بعد سنة واحدة ، لم يعد فى اللغة الفرنسية عبارة يمكن أن يعبر بها عن اشمئزازه من هذا البيت وكرهه له ! . . فقد توالت عليه منه : الكروب ، والمصائب ، لاتحل فرادى . فحوائط الحديقة ، والحوائط الجديدة ، قد انهارت ! . أنقاض كلفته ثمانية آلاف فرنك ! . .

وتمكن منه الحرس الوطنى هذه المرة ، فألقى به فى سجن سيفر ، لاثنتين وسبعين ساعة ، بحجة امتناعه عن الإشراف على جنى العنب ! . . وهذا كثير ! . أيقف ليبيع للناس على قارعة الطريق ؟ ! . . أليس إذن المجال ذا سعة لراسمى الكاريكاتور ؟ ! . . أو لم يكن محقاً إذن يوم أشرف مع صحب له من سطح بيته ذات مساء ، وبصق على باريس ؟ ! .

ثم زاد اقتناعه فى ١٨٣٩ ، بضرورة أن يكون له : مركز وطنى ، إلى جانب صناعة الأدب ، مما يجعله ملحوظاً من الرأى العام . . وانتهز لذلك أول فرصة لاحت لوهمه . وهى قضية إجرام . فقد حدث أن مسجلا للعقود ، يدعى « پيتل » Peytel ، قد زجّ به فى السجن ، بتهمة قتله زوجته . ولكن التحقيق لم يسفر عن بينات ضده . فأطلق سراحه . وكادت تحفظ الدعوى . غير أن الرجل أفضى ، فى سهرة ، عند أصحاب ، بأشياء فظيعة ، ذاعت ، فأحدثت دهشة ودوياً . فاستؤنف التحقيق معه ، وقبض عليه ثانية . وإذا ببلزاك ، البعيد كل البعد عن هذا كله ، يسخط ، ويستنكر ! . . فما شأن بلزاك ؟ ! ذلك أنه كان قد عرف عرضا مسجل العقود « پيتل » فى إدارة إحدى الصحف ، فحكم بأنه غير أهل لاقتراف جريمة شنعاء . ودرس القضية بتعمق ، أو على الأقل خيل إليه ذلك . . ثم أعلن على رؤوس الأشهاد ، براءة المسجل ، وخطب ، وكتب ، وحاول أن يحرك الصحف . . ثم سافر آخر الأمر إلى بلدة بللى Belley ، حيث وقعت الجريمة ، غير حاسب لمقاومة القضاء حساباً . ولم يكد يصل ، حتى قرع باب قاضى التحقيق ، والساعة التاسعة مساء . ففتحت له خادم وقالت :

— إن سيدى القاضى قد دخل حجرة نومه . .

فصاح بلزاك :

— حسناً ! . . وأين إذن هذه الحجرة ؟ . . إن الأمر يتعلق بحياة إنسان . . فلا يمكن رفض مقابلتى ! . .

ثم اقتحم البيت ، وكان القاضى فى « الروب دى شامبر » يملأ ساعته . . فقال بلزاك :

— ياسيدى القاضى ، أعتذر إليك عن دخولى بيتك كما لو كنت قاتلا ! . ولكن ليس مظهرى كمخبرى . . وكذلك « پيتل » على نحوى ليس بالقاتل ! .

وراح بلزاك يترافع ، ويترافع ، ويدافع ، دون أن يسترد أنفاسه ، متهماً الاتهام ،

بشدة وقوة ، حتى إن ستائر الخدر رفعت قليلا ، وبدت منها امرأة فى قميص النوم ، جالسة على السرير . . قالت :

ـــ أنت تكذب ياسيدى ! . .

فغص بلزاك ، وصاح :

ـــ ماذا تفعل هذه المرأة هنا ؟ . .

فاحمر وجه القاضى ، وقال محتداً :

ـــ إنها تفعل ياسيدى ما على المرأة الشريفة أن تفعله ، فى هذه الساعة من الليل . . إنها فى فراش زوجها ! . .

يالبلزاك العاثر الجد ، الفاقد الحذر ، المحروم حسن التصرف ! . . إن دروس مدام دى برنى ، دروس الكونتس دى هانسكا ، لم تنفع فى تهذيب طبعه الحامى ، والخفض من تهوره واندفاعه . .

إن الناس فى فرنسا يخافون السيول المنهمرة ، ويحبون الجداول الهادئة . . فنال منه القضاء . وتنكر له الرأى العام . وكانت قصصه تقرأها النخبة المختارة من النساء ، فجاءت هذه القضية التى يتهم فيها امرأة بالزنا ، فحزبت ضده نصف قارئاته . وتهكم الناس عليه بالأغانى ، وهجوه بالقصائد . وقضت العدالة بقطع رقبة بيتل . وعاد بلزاك إلى بللى ، ووقف فى الصف الأول من الجماهير ، وراء الجنود ، ليراه يصعد إلى المقصلة . وعاد إلى باريس مريضاً ، محنقاً ، تجيش بالسخط نفسه . . وبدت له بلاده مضيعة ، لأنها أبت الإصغاء إلى عبقر ! . . وقد وصفوه بأنه خيالى ، يعيش فى بيداء الأوهام . فاستشاط غيظاً ! . . أليست المخيلة هبة أوتيها من عند الله ، ليرى مالايراه العميان ؟ ومضى يحلم فى أن يسود الجماهير ، ويحملها على الإعجاب به على رغمها . .

وكشف له فكتور هيجو مرة المزايا المادية التى يحصل عليها مؤلف القصص التمثيلية . وكان منذ عشرين سنة يحلم بالمجد المسرحى . وجاء هيجو ببلاغته فزاده

اقتناعاً ، وأثار فيه أمنية مستكنة . وكان هيجو حريصاً على النفع المادى ، فقد كانت روحه نهباً مقسما بين الشعر والمادة . كان نصفه شاعراً ، ونصفه صرافاً ! . فعدد المبالغ التى يمكن أن تحصلها رواية تمثيلية فى باريس ، ثم فى الأقاليم . وقال :

ــ إن كوميديا تنجح ، ولو نصف نجاح ، تدر على مؤلفها بقدر ماتدره قصتان ناجحتان . . أما الرواية التمثيلية الناجحة فإنها تعد ثروة . ثم إعادة التمثيل ! ثم الجوائز ! . . ثم التذاكر ! . .

فرأى بلزاك ركاماً من الذهب ! . . ولم يكد هيجو ينصرف ، حتى قرر أن يعود فيؤلف للمسرح . كلا ، بالطبع ، فما كان ليعكف على تراچيديا تتطلب منه شغل سنتين ، بل إن له من الروح اللاذعة اللاسعة ما يجعله يكتب ، فى شهرين ، وربما فى أسبوعين ، كوميديا تدر عليه مالا ، أى تمنحه الراحة سنتين . . وقابل ، وهو فى هذه الهيجة ، الشاعر الألمانى هنرى هينى فى البولڤار . فأشركه الرأى ، وقال :

ــ أستطيع فى سنة أن أكسب مئتى ألف فرنك ! . .

فسخر منه هينى قائلا :

ــ هذه مجازفة ! . .

فاستنكر بلزاك سخريته ، وسأل :

ــ أية مجازفة ؟ . . إننى لا أجازف بشىء . .

ــ أنت تغير سجنك . فحذار ! كل المحكوم عليهم بأشغال القلم الشاقة يهلكون إذا فعلوا ! . . فابق إذن فى سجنك القصصى ! . .

ففكر بلزاك فى نفسه ، وهو يفارقه : « لشد ما يثبط هؤلاء اليهود الهمم بتهكمهم الشنيع ! . . وهذا الرجل ليس موهوباً من الحياة . إنه لا يحب الحياة . إنه على النقيض من مؤلف مسرحى ! . . »

هذا ، فى حين عد نفسه قد خلق للمسرح ! وإذا لم يكن قد عالج ذلك بعد ، فلأنه كان متعجلا القصص ، وكانت القصة قبله لا وجود لها ، فى حين كان

للمسرح أبطاله . ومديرو المسارح لا يتمنون شيئاً مثل كوميديا ، أو درامة ، عليها توقيع بلزاك . لقد أصاب هيجو ، وأخطأ هينى ! . .

وعلى ذلك قصد مديرى المسارح ، الذين أدخلوا على قلبه السرور بمعسول الكلام . . . قال لهم : « أريد أن أكرس نفسى لكم . أريد أن نثرى جميعاً ! . . ولكن لا بد من أن أعمل فى هدوء وسلام . فلا مندوحة إذن عن كبح جماح الدائنين ، الذين يرهقوننى ، ويعطلون عملى . . لامندوحة عن تقديم خمسة عشر أو عشرين ألف فرنك لى سلفاً » .

فقبلوا المبدأ عن طيبة خاطر ، قائلين : « ابدأ على أى حال بالعمل ، فلا نلبث أن نوقع العقد الذى يحقق رغباتك ! . . . » . . .

وكانت تدور برأسه مواضيع قصتين أو ثلاث قصص تمثيلية . .

وها هى ذى باريس عنده تتطور ، وتنار بالغاز الذى جعلها : « مدينة النور » ! . . وهى عنده الآن عاصمة العواصم . وجمهورها فى مقدمة جماهير العالم . وهذه هى اللحظة التى يستحوذ فيها على هذا الجمهور ! . . فهو ، على ذلك لا يلبث أن يحصل المجد ، ويحصل المال ، مما قد يمكنه ، يوماً ما ، من أن يكتب إلى حبيبته البولونية الكونتس دى هانسكا : ياعزيزتى إيڤ . . إنى لم أعد فقيراً ! . . وليس على من الديون دانق . فإذا استدعت السماء يوماً قرينك ، فلن تكون هناك عقبة دون زواجنا ، الذى سيصبح حلفاً سامياً بين عقل أوربا ونبلها ! . .

واندفع يعمل بكل قواه . ورسم للقصة هيكلا . وكتب حواراً . ولكنه ، لسوء طالعه ، كان مأخوذاً بدوار السرعة . كان يرى نفسه محوطاً بجو المسرح : الخشبة المضيئة ، والجدران الملونة ، والستار يرفع ، والقاعة غاصة بالرؤوس المتنبهة ، والعيون المحدقة . . كان مأخوذاً بالحاجة إلى الكلام ، وإلى العمل ، وإلى أن يصفقوا له سريعاً ، لأى شىء ، كائناً ما كان ! . . فبدلا من أن يتم عمله فى الشهرين اللذين قدرهما له ، من قبل ، أنجزه فى أسبوعين ، وكان أحياناً يكفيه

يومان ليضع على الورق ثلاثة فصول ! . . هو ، الذى ضحك مرة من امرأة سألته : « أيلزم من الوقت لكتابة قصة ، أطول مما يلزم لمطالعتها ؟ » . . كان يكتب قصته التمثيلية فى مقدار الوقت اللازم لتلاوتها ! . . وكان متعجلا إخراجها ، إلى حد أنه هرع إلى أصدقائه ، القريبين والبعيدين ، الذين يحبون هـذا النوع ، والذين يحتقرونه ، يتلو عليهم آيته ، ويمثلها تمثيلا ، يتقمص شخصية خمسة عشر نفراً بلسانه ! . . وكان متلهفاً على رؤية أثر هذه الأدوار فى عيون السامعين . . وكان يقطع القول على أخلص الأصدقاء بقوله : « أعرف ، أعرف ، ملحوظتك منهومة . . لكن انظر القصة فى مجموعها ، فهى مدهشة ! . . »

وفى يوم من عام ١٨٣٩ دعا فى بيته المهشم أصدقاءه الكتاب : تيوفيل جوتييه ، وجوزلان ، ولاسّاى ، ولوران جان ، إلى الغـداء ، ثم سماع الكوميديا التى أتمها . . وقد سمـاها : Les Mercadets . . وعند اللون الثالث من الطعام قال جوتييه ، وكان على ود وثيق ببلزاك ، ويحمل له كل الحنان والإعجـاب :

ـــ أترانى حالماً ؟ ! . . يخيل إلى أننى آكل البصل فى كل شىء ! . . إننى أكاد أصبح بصلة ! . .

فضحك بلزاك قائلا :

ـــ أيها الطفل ! . إننى أردت هذا . . فإنى حريص على أن يكون حكمكم صادقاً ! . . وقد دلتنى التجربة على أنه ليس مثل البصل عنصر منبه للذهن ! . .

ثم راح يقرأ . . . وكانت القصة تدور حول البطل « ماركاديه » ، الشبيه ببلزاك ، الغارق فى الدين حتى أذنيه ، يأبى التجار أن يوردوا له بضائعهم . . فيقول البطل لخادمه : « كيف يمكن أن يكون هؤلاء تجاراً وهم لايتاجرون ، وموردين وهم لايوردون ؟ ! » . . ثم : « أى عار فى الاستدانة ؟ . . أى رجل لا يموت ، وهو ما زال عاجزاً عن الوفاء بدين أبيه ؟ ! » . . وكان بلزاك يقرأ ،

ويمثل ، فى الوقت نفسه ، هرب البطل من دائنيه ، وحيله المتعددة فى التخفى والفرار منهم ، وهم يلاحقونه ويضطهدونه . .

وبينا كان بلزاك فى نشوة التمثيل هذه ، إذا به يسمع من الخارج دق الجرس .. وعندئذ شحب وجهه ، وقفز إلى إحدى النوافذ ، مهيباً بأصدقائه المدعوين :

— بربكم ساعدونى يا أصحابى ! . . ساعدونى سريعاً على إغلاق النوافذ ! . . إنهم دائنىّ ! . .

ثم تركهم ، وجرى إلى المطبخ ، وأمر بعدم إدخال أحد ، مهما يكن السبب ، وعاد إلى ضيوفه ، وتمدد على ديوان ، متصنعاً الموت ، هامساً بصوت كأنه خارج من أعماق قبر :

— أتوسل إليكم . . . لا حركة ، ولا نأمة ! . . إذ لو سمعوا شيئاً لكنت من الهالكين ! . .

فطن أصحابه بادىء ذى بدء أنه يستأنف تمثيل القصة . . فترددوا . . ولكن اللهجة تغيرت . . ورأوه متأثراً إلى حد اضطربوا معه هم أنفسهم ، ولبوا توصياته الغريبة . ثم امتد الموقف ، واستمر الحال على هذا المنوال ، حتى أصبح مضحكاً . . كقصته . . فصدرت منهم ضحكات مكتمة . . فتمتم بلزاك : « يا أصحابى يا أصحابى . . . أتريدون مماتى ! . . » . . وعندئذ سمعوا جدالا عنيفا عند عتبة البيت . . وكان المتجادلون كثيرين . . وكان الخادم يؤكد لهم بشدة وحزم : « إنكم يا سادة ترون النوافذ مغلقة . . فسيدى غائب فى سفر ! . . » . فتعالت أصواتهم بالسخرية والاستنكار ، تتشبه بالحيوانات ، منها : نباح كلب ، ومواء قطة ، ونعيق غراب ... وكان ذلك كله كأنه جزء متمم لرواية بلزاك التمثيلية !

وكان بلزاك متيبساً متصلباً فى رقدة الموت ، منقطع الأنفاس ، كما لو كان قد جرد من الحس والشعور ، وفى الظلام كانت عيناه تلمعان وتتوسلان ! . .

ودامت هذه المأساة المهزلة خمس عشرة دقيقة . وأخيراً ، أغلق باب البيت ، وهمهم بلزاك ، ودمدم ، بصوت صادر من أحشائه :

ــ لقد عجزت ، وشاخ عمرى عشر سنوات ! . .

وهرع إلى المطبخ . . وما زال صحبه فى الظلام ، فطفقوا يدخنون . . فعاد بلزاك فوصفهم بأنهم قتلة ! . . فقد اجتمع عليه أصحابه من الداخل يدخنون ويخنقونه ، وفى الخارج دائنوه يمسكون بتلابيبه ! . . وكانوا فعلا من شر الدائنين وأخطرهم : أحدهم تاجر نبيذ ، والثانى تاجر عاديات (أنتيكات) ، والثالث مقاول بناء ! . . وأخيراً قال جوتييه :

ــ والآن ، هل آن لنا أن نرى الضوء ونشم الهواء ؟ !

فأجاب بلزاك بزهو وخيلاء :

ــ ولكنى أسألكم : ما الذى يحول بينكم وبين فتح النوافذ على مصاريعها ؟ ! يا للغباء ! . .

ها هوذا قد استرد : لونه ، وقوته ، وصوته . ولم يمهلهم حتى بدأ تلاوة الفصل الثانى . . فعاد الدائنون فى القصة ، يهددون ، ويتوعدون : ينعقون ، وينبحون ، ويموءون ، كأنهم : غربان ، وكلاب ، وقطط . . فظن المدعوون أنهم يسمعون فعلا دائنى بلزاك الحقيقيين ! . . لقد اقتبس بلزاك طرق دائنيه فى مطالبته بديونهم ، وسخريتهم منه ، وزرايتهم به ، وتهكمهم عليه بأصوات الحيوانات . . . وكانوا يتكلمون من كل جانب ، أى أن بلزاك كان كالشيطان : يقفز ، ويلتفت ، ويداعب ، ويركض ، ويهجم . . نخيل إلى سامعيه فعلا أن الدائنين يقتحمون البيت : من الباب ، ومن النافذة ، ومن المدخنة ، ومن كل شق ! . . أهى حقيقة واقعة ، أم هى كوميديا تمثيلية ؟ . . هل يضحكون ؟ . . هل يخافون ، ويجزعون ؟ ! . . ولكن بلزاك كان واقفاً يدير هذا كله ، بلسانه العجيب ، وإشارته ، وحركته . . فياله من جبار فى تمثيله ، وفى تقليده ، وفى

صوته ، وتشبيهه . . وهو يتحدى دائنيه ، مشبكا ذراعيه ، قائلا لهم بازدراء : « آه ! . . أتزعمون إذن أن فى بيتى كليشيهات الأوراق المالية التى يصدرها بنك فرنسا ؟ ! »

فيصفق له أصدقاؤه . . ويتبادلون نظرات الإعجاب بفنه الرفيع : تأليفاً ، وتمثيلا . . فيدفعه الفرح بهذا التقدير إلى الإسراع بالوصول لختام القصة .

وهنا نرى شخصية غير منتظرة ، تصل من الهند ، حاملة أكياساً من المال ، لتنقذ الموقف ، وتصفى الجو . . نرى نقوداً ، ثم نقوداً ، ثم نقوداً ! . . نقوداً حقيقية ، وليست زيفاً ، وليست وهماً ! . . فيمد يديه ، ويقرض بعض الناس عشرة آلاف فرنك . . ويصيح ضاحكا : « وافرحتاه ! . . لقد صرت دائناً ، بعد ما كنت مديناً ! . . . » . .

وبهذه الكلمة تنتهى الرواية التمثيلية . . فينهض جوتييه ، ويأخذ بلزاك بين ذراعيه مهنئاً . .

أسفاً ! . . فلم يكن هذا كله إلا نجاحاً بيتياً ، لا يصل إلى خشبة المسرح . فلن يعرف فى المسرح إلا الفشل . فقد تشاجر مع المديرين والممثلين والمخرجين . . وأقسم ألا يغير مما كتب سطراً . . ومن « بروفا » إلى أخرى اضطر إلى أن يكتب من جديد فصلا كاملا فى ليلة واحدة ! . . وكانوا يلقونه فى تلك الفترة من حياته ، فى شوارع باريس ، شاحباً ، هزيلا ، بلا ربطة عنق ، يجر قدميه من التعب . . وكانت روايته التمثيلية Vautrin أشهر ما أخرج . لحضر تمثيلها ولى عهد الملك لويس فيليب ، فى اللوج الأول ، فرأى تعريضاً فى التمثيل بأبيه الملك ، فخرج فجأة . . فكانت ضجة ، وفضيحة . . وفى اليوم التالى منع تمثيل الرواية .

وكانت ضربة قاصمة لبلزاك . . بيد أنه ماعتم أن أفاق منها ، وصفا ذهنه ، وحمى قلبه . . ولقى صديقه جوزلان ، فأخذ يفسر له كيف أنه سيعوض العشرين ألف فرنك التى كان سيكسبها من روايته ، بأن يزرع حول بيته كروماً وأعناباً ،

يستخرج منها النبيذ ، ويقيم معملا للألبان ! . .

وكان وقف روايته يوم ١٤ مارس ١٨٤٠ ، وبدأ مشروع معمل الألبان ، يثيره يوم ٢١ مارس ، أول الربيع ! . . ثم نبذه يوم ٢٢ . . وفى الثالث والعشرين راح يحلم بالصحافة ، الصحافة التى يلعنها ويعبدها ! . . يعبدها ليكتب فيها ، وينشر ، ويحارب ، ويتغلب ، ويسود . . هو يريد أن يكون حراً ، وإنما هم يقاومونه فيها ، ويقصون أجنحته ! . . المال إذن ! . إن المال هو المدير الحقيق لجميع الصحف ، ولا يجوز التنكر لهذه القوة الجبارة . ومع ما فيه بلزاك من ضيق ، وشدة ، واحتداد . . فإنه تمنى لو كانت له جريدة . أو ليس يملك من القوة ، واللذع ، والتهكم ، أضعاف أولئك الكتاب « الهلافيت » المسيطرين على الجماهير ؟ إن مجلته السابقة « لاكرونيك دى پارى » قد كلفته غالياً . فهل يكون ذلك سبباً فى أن يخاف ، ويجبن ، ولا يحاول مرة أخرى ، فى شكل آخر ، بوسائل أخرى ؟ . . إنه فى هذه المرة سيؤسس مجلة شهرية ، تكون كالكتاب ، فى حجم الجيب . وسيعمل كل شيء : من اللذع السياسى ، والتهكم الاجتماعى ، إلى نقد الكتب والمسرح . . . وسيفضح طغام الكتاب ، أمثال « أوچين سو » ، ويحطم أصنامهم ! . . وينصر آخرين ، أمثال « ستندال » ، ويقيم لهم التماثيل ! . . وعلى ذلك تمكن ، آخر الأمر ، من إصدار المجلة الباريسية Revue Parisienne .. فظهرت ثلاثة أشهر ، وكلفته ، بما حملته من ديون ، جهد خمس سنين أخرى ! ! وانسحب مشتركو الشهر الأول فى الشهر الثانى .

وبعد عددين اثنين ، ألب باريس عليه ، فصار لها غريماً ، وأغلقت بقية المجلات أبوابها فى وجهه ، وأحس رجال الأدب بالقلق من لذعاته . .

ودس له رجال السياسة ، خشية المستقبل . . فيجب أن يحيق به الخراب !. ذلك لأنه كان جباراً ، قوياً قوة لاتجارى ولا تبارى . . وكان عبقرياً . . وكان قلمه ساحراً يخلب الألباب . . .

فلم يزد على أن عاد صاغراً إلى العمل الذى خلق له . فالإنسانية هى هى فى كل مكان : فريسة للصغائر . فليستدبرها إذن ، ويعمل عمله وحيداً منفرداً . . فهذا العمل هو هويته ، وهو خليلته حقاً . . لم يضن عليه ، عليها ، بشىء ! . . . وكان مرة يتحدث مع المركيز دى بلوى وهو عائد من إيطاليا ، فأشار هذا إلى «داتى» مؤلف الكوميديا الإلٰهية ، ولوّح بأن بلزاك يرسم الكوميديا البشرية . . ومنذئذ وبلزاك هائم بهذا الوصف ، فتوج به عمله : **المهزلة البشرية** ! . .

وانقطع من جديد ، يدأب ويتفانى فى إتمام سلسلة هذه **الكوميديا الإنسانية** ، مقدراً لها جهاد خمسة عشر عاماً . . فأنذره طبيبه وصديقه « الدكتور ناكار » ، الذى شحب وجهه إذ سمع دقات قلب بلزاك . . فإن القهوة التى كان يشربها بالإبريق ، لا بالفنجان ، قد عملت عملها السىء ، ونالت من القلب ما نالت ، بحيث لم تعد خفقاته تدق بحرارة الشباب ، وإنما صارت منذرة بالفناء . . وكان يجمع قلبه حطباً ، ويشعله ، ليخرج آياته البينات ، ولكن كل عود من الحطب كان يخاف له الرماد ، فتراكم قلبه رماداً . . .

وكان يخرج بعد شغل ست عشرة ، أو عشرين ساعة ، كما لو كان بركاناً ، فيجتاز شوارع باريس ، وهو يركض ، مرتدياً أى شىء ، بلا هندام ، ولا نظام ، أشعث ، أغبر ! . . فأين هذا من الطاووس عاشق المركيزة دى كاسترى ، يختال فخوراً فى الأرض مرحاً ؟ ! . .

وابتهل إليه الدكتور ناكار أن يخفف من أعباء جهده . فصار يحاجه بأنه أحسن منه فى أى وقت مضى ؟ ! . . وكان كاذباً ، فهو لم يبح لطبيبه بالسبب الحقيق لثقته بنفسه . . فقد علم بوفاة الكونت دى هانسكا ! . . وهكذا كانت هناك العناية الإلٰهية له ظهيراً ! . . فمن ذا الذى يصدق أنه لم ير عزيزته « إيڤ » منذ ست سنوات ؟ ! فقد تراكمت عليه فى تلك السنين أعباء أنقضت ظهره . . وكان وحيداً ، أشد ما يكون وحدة ووحشة ، لا يجد ما يقوله ، للكونتس دى

هانسكا ، إلا فشلا على فشل ، وويلا على ويل ،.فتراخت رسائله . . ولا سيما أنه أحس حذرها ، وتحفظها ، واعتزازها بمكانتها ، كزوجة ونبيلة ، وأدامت نقده ، تغرقه بأسئلتهـا التحليلية ، مما يدل على نقص فى إيمانها بالحب ، بينما كان لايحتاج لشىء حاجته إلى : الحنان ، والعطف ، وتأييد أفكاره ، وتدعيم أفعاله . .

وها هى ذى تعلن إليه فى رسالة ، فى شهر مارس ١٨٤١ ، أنهـا قد صارت أرملة ! . . فلم يخطر له إلا أنه الآن يستطيع البناء بهـا ! . . وكان دائماً يريد الزواج منها . فسيتزوجها إذن ! . . فما دام ملكاً للفكر ، فليجد رفيقة من أعلى الطبقات العريقة ! . . فكتب إلى « إيڤ » رسالة عزاء ، هى صيحة هناء ! .

وهو على عمله بعجلة ، ولهفة ، يقول لنفسه : « أسرع . ولا تضيع وقتاً . . فالحياة قصيرة . وعملك طويل . . . » . .فجرت ريشته على القرطاس كما كان يجرى قلبه . . وكان لايرى أمامه سوى إيڤ دى هانسكا . . ما أعظم الصراع عند ما تكون هناك امرأة تنظر . . وتنتظر ؟ ! . . إنه يعمل ، حتى يتهالك : تعباً ، وضنى ، وألماً . . بيد أن فكرة المجد والحب تصلب من جديد عوده . وهو لا يبحث بالمجد عن مديح الرجال ، بل عن رضا وإعجاب تلك المرأة : الحساسة ، المفكرة ، الملهمة ! . . وإذا كانت كتاباته قد اصطبغت بهـذا اللون الساحر الأخاذ . فما ذلك إلا لأنه كان يكتب لها ، ويروى لها ، ويتحدث فى الحب معها ! . . إن الحب هو دين من أديان هذا الزمان .. هو معجزة الحياة الخفية ، وهو لدى بعض الموعودين : عقيدة وإيمان . .

كيف تتردد إيڤ فى أن تصبح بزواجه فرنسية . . إنه إذن لن يتردد فى أن يتخذ جنسها ، ويصبح روسياً ، ويتمم عمله هناك عندها ! . .

وكانت ما زالت تتردد . كانت لها عمة تدعى روزالى ، تكره بلزاك ، وتراه مخلوقاً شاذاً ، وترى أن « الزواج به لا يشرّف » ! . . وتتبعت هذه العمة كل أخبار بلزاك فى الصحف والمجلات الكاريكاتورية ، وجمعت لإيڤ دى هانسكا

أسماء عشيقاته : الكونتس ڤيكونتي ، مدام دي ڤاليت ، مدام مربوتي ، وغيرهن ، وغيرهن ! . . وحقيقة كان بلزاك على علاقات طائشة مع هؤلاء جميعاً . . ولكنها كانت ترفيهات سطحية ، يروح بها عن نفسه ، على حد قوله : « بين ميداني المعركة »! كان يعبث . كان يرفه عن الجسد ، دون أن ينال الروح رذاذ ! . . وما أقل النسوة القديرات على إدراك هذه الشخصية المزدوجة في الرجل ! . . النساء عادة لا يفرقن بين هذا وذاك ! . . فرأى بلزاك أن الكذب أولى . . فكتب إلى إيڤ :

[إنني لا أعبد سواك ! . .]

وكان ذلك حقاً وصدقاً . وكانت عمة إيڤ تحذرها وتنذرها : « حافظي على سمعتك ، ولا تتهوري بزواج رجل غير كفء . . فمن الحماقة أن تقترن امرأة نبيلة برجل من رجال القلم . . . »

ومع دفاع إيڤ عن بلزاك ، كانت في صميمها تشعر بمرارة الأرستقراطية ، لرؤيتها الرجل الذي تحبه يكسب عيشه من وضع الكتب ! .. وكانت ترى خيراً من ذلك : أن يستدين ! فعندها أن الاستدانة والدين من مظاهر السادة ! . . ولكن ذلك السيد المدين محكوم عليه بالعزوبة ! . . فمهالك الضيق المالي التي يتخبط فيها بلزاك تخيفها وتروعها . . وعبثاً قال وكرر قوله : « إنني سري مثر ، أقوى من روتشيلد ! . . » . . فهي تعرف أن ليس وراءه من طوالع السعد ما يشارفها منه غير المشاغل ، والمشاكل : المنتظرة ، وغير المنتظرة ! . . فليس الزواج بمثله مما يحميها من المهالك . . فلم تفاتحه بذلك صراحة ، وإنما جعلته يدركه من بين السطور . فأحس أنه لن يقنعها . ولم يبق له إلا أن يملكها من جديد ، فيغلبها . . كيف ؟ . . بتأليفه ؟ . . إنها لم تعد تكفي ! . . فليقصد إذن إلى بولونيا ، ويخطفها ، ويتزوجها ! . .

وعلى هذا ، راح مرة أخرى فريسة التفاني ، وبدأت تدب فيه حمى الوحي الأعظم ، التي لن تهمد ولن تخمد فيه ، حتى تنطفىء فيه الحياة نفسها. وكان ذلك

جهاداً لنحو عشر سنوات ، أهاب فيها بكل ما يملك من قوى روحية خفية ، لتظهر وتلبيه . وكان يشبّه عقله : بحصان جموح ، يعصى أسابيع بطولها ، ويأبى أن يسير . . وكذلك وجد بلزاك فى صميم نفسه : عناصر الفضائل ، وعناصر الرذائل ، جميعاً . فكان امرأة كما كان رجلا . وكان الأسلاف ، من كل نوع ، من شيوخ وشباب ، من شياطين أشرار ، وملائكة أبرار ، كل المخلوقات البشرية التى تجرى فى دمائه ولو نقطة واحدة من دمائها ، أو ذكرى عابرة من ذكرياتها ، كانت تستيقظ فيه ، وتلبى نداءه ، لتلعب له أدواراً فى « الكوميديا الانسانية » التى يؤلفها . . .

ولكى يصل إلى السلام المطلق ، اتخذ مسكناً فى حى « پاسى » الهادىء . فقد كان بحاجة إلى أقصى قسط من السكون . ولكنه وجد ، طوال النهار ، ضجيج خمس عائلات عمال ، تقطن تحته ، وتجعل البيت برج بابل ، فلا يسوده الهدوء إلا ليلا ، عند ما ينام الأطفال . . ومن هناك أخرج كتبه عن : « الفلاحين » ، و « الآباء الفقراء » ، و « عز وذل بنات الهوى » ، وغيرها . . وكان مسكنه ، ومعمله ، قد صار له جحيما تتلظى نيرانها كالسعير . فما من كاتب ، فى كل الأجيال ، بذل مابذل ، فى مثل ذلك الوقت القصير ، من روحه ومن جسده . ولم تعرف نفس ، كائنة ما كانت ، ماعرفت نفسه من حروق . .

وكانت تلك تضحيته العليا ، أن يحترق بالشعلة التى سوف يسلمها للإنسانية لتستضىء بها . . . وسيموت منها ، ولكنه سيكون عظيما ، بعد ما أدى عمله : لله ، وللناس . . وكانت سنة ١٨٤٤ بالنسبة له سنة آلام لاتوصف . . فتكاثفت عليه أمراض : الكبد ، والقلب ، والرأس ، والرئتين . . وتحركت ، تأكل منه ، وتقضم ، وتلقى على مخه ستائر من الغيام ، فلا يجد فيها الكلمات التى ينشدها . . وعندئذ جزع . . واستمع إلى توسلات طبيبه الدكتور ناكار ، فاعتكف ، ونام نوماً عميقاً . . ولما استيقظ منه ، ولم يكن طبيبه إلى جانبه ، هرول إلى منضدته ،

يلازمها ثمانى عشرة ساعة ، مرغماً الجسم على ملاحقة العقل ، كالجندى فى الطابور .

وبعد ثمانى سنوات فى حرمان من رؤية حبيبته إيڤ دى هانسكا ، تلك الموعودة بأن تصير زوجته ، لقيها فى سان بطرسبرج ، حيث كانت تقضى جانباً من السنة ، منذ موت زوجها . . وهناك عاشا الأسابيع ، بل الشهور الثلاثة ، فى : حب ، وشعر ، وعبادة . . ثم اضطر إلى السفر إلى باريس ، صحراء الرجال ، بينما عادت هى إلى بولونيا ، صحراء الغلال . . ولم يلتقيا إلا بعد ثمانية عشر شهراً فى درسدن ، فى يناير ١٨٤٥ ، حيث كانت مع بنتها وخطيب هذه البنت ، الكونت مفيزتش ، فجعل بلزاك حياة الخطيبين الشابين مرحاً جنونياً . . فقد أوتى ، فيما أوتى ، نبوغ التصابى ، والارتداد إلى الطفولة الحلوة ، بلا جهد ولا تكلف . .

ثم سافروا جميعاً إلى إيطاليا . . وكان بوده لو قضى الشتاء فيها ، لولا أن « الكوميديا الإنسانية » كانت تناديه ، وكانت طبعة كبرى ستصدر منها . . فسافر باكياً كالطفل . . ولكنه هرب من جديد ، فى ربيع ١٨٤٦ ، إلى المدينة الخالدة . . ثم عاد إلى بيت حى « پاسى » صيفاً ، يعمل الساعات الطوال ، من الليل والنهار ، ويشرب ، بغير مبالاة ، أباريق القهوة ، التى نهاه عنها الطبيب ، وحرمها تحريماً مطلقاً ! . . : « ماأعجب أن أحاول العمل هنا صيفاً ! . . إن فوقى سقفاً من الزنك ، وتحتى غسّالا يشعل ، طول يومه ، نار قطار ! . . هذا هو مسكنى ومقامى ! . . وهذا حقاً رمز حياتى ! . . فقد أتممت أعظم عمل فى عصرى ، فى ظروف تحمل بقية البشر على البكاء منها . . ولكن . . أليس هذا ، فى الواقع ونفس الأمر ، هو المعجزة . . أليس هذا هو الفوز العظيم ؟ ! »

وحملت إليه الخادم رسالة ، عرف من غلافها الأنيق ، وخطها العزيز ، وطابعها الغريب ، أنها من حبيبته إيڤ . . فأخذها بيد مرتعشة ، ورفعها إلى شفتيه ، ولثمها من أعماق نفسه ، مغرورق العينين بالدمع . . .



٣

كان يهم بالرد على الكونتس دى هانسكا ، بعد ظهر اليوم نفسه ، عندما أعلنته خادمه بحضور والدته . . فصاح بفرح :

ــ فلتدخل ! . . فلتتفضل ، قبل أن أذوب وأتلاشى ! . . آه ياأمى ، إنى أعيش فى فرن ! . . انظرى ، إنى أتصبب على أوراقى عرقاً ! . .

فتنهدت مدام بلزاك ، التى كانت شقية بكل شىء :

ــ أفلن تكون إذن قط سعيداً ؟ ! . . متى أراك هادئاً رضياً ، لاتسخط على شىء ، ولا تكفر بكل إنسان !

ــ عما قريب ، ياأماه العزيزة ! . . بمجرد زواجى من الكونتس دى هانسكا ! .

ــ أزواج آخر ليس إلا وهماً ؟ ! . .

ــ وهم ؟ ! ولماذا يكون وهماً ؟ ! . .

ــ مثل كل مشروعاتك . . ياولدى المسكين ! . .

ــ مثل كل مشروعاتى ؟ سبحان الله ؟ ! . . أيكون عملى ، أتكون كتبى ، ليست إلا مشروعاً ووهماً ؟ ! . ألم أحقق بعد شيئاً ؟ !

— فى أية ظروف ؟!

— أعترف بأنها ظروف سيئة .. سيئة جداً .. ولكنها ستتحسن ، وتطيب ، إذا ساهمت فيها أسرتى ..

— أسرتك ؟! .. إنها تلقى الضربة بعد الضربة من نزواتك وبدواتك ! .. وإذا كانت حياتى ضيقة بائسة شقية ...

فسقط بلزاك فى مقعده ، ممسكاً برأسه بين يديه ، قائلا بحزن لاحد له :

— أليس إذن شيئاً مطلقاً ، ياأماه ، أن تكونى أم الرجل الذى ينهض من الرغام ، ويصبح علماً من الأعلام ؟!

فهزت أمه كتفيها .. فرأى استخفافاً .. فتابع كلامه بحدة :

— هذا ، ويا للأسف ، لاشيء ! .. إذ لا كرامة لنبى فى وطنه ! .. ومادمت أنت من ورائى ، وأختى ، وزوج أختى ، تهرفون جميعاً بما لا تعرفون .. فإنى أعلنكم بأنه ليس لديكم ماتقولونه بشأن هذه المرأة ، التى ستكون امرأتى ، شئتم ، أم كرهتم ! .. وإنى لا أسأل عائلتى العزيزة ، عائلتى المقدسة ، إلا شيئاً واحداً ، هو : السلام ! .. فإذا كانت أمى لاتسكن قصراً ، فلست أسكن أيضاً العلالىّ والقصور .. إنى أقطن بيت عمال فقراء مساكين ، فوق غسالين ! .. غير أن لى مذهباً ، ومثلا أعلى ، بينما أسرتى محرومة من كل مثال . وورائى عمل يعمل ، وأسرتى لم تدرك بعد هذا العمل . وهو يسمى : «الكوميديا الإنسانية» .. وهو يتقدم ، بيد أن قواى تنحط وتتأخر . فلابد لى من الإسراع . وأنا بحاجة إلى بيت ، إلى حياة داخلية . وستكون لى ، بفضل امرأة مدهشة .. وسأسافر إلى بولونيا ، التى تجهلونها كما تجهلون سواها ، وتضحكون منها كما تضحكون من غيرها ، لأنكم تحسبون الدنيا محصورة فى باريس ، وأن الله خلق الخليقة ليسمع حكمكم عليها ! ..

— ستندم على كلامك هذا وأفعالك ، عندما أكون ميتة ! ..

قالت ذلك ، فى حوش البيت ، وهى منصرفة . . فسمعها ، وحياها ، وعاد إلى غرفته ، يكاد يختنق : « ميتة ! ؟ هى ؟ . . هى تعلم جيداً أنها سوف تدفننى بيديها ! »

وجفف جبينه ، وأمسك بالقلم ، يستأنف كتابة الخطاب إلى حبيبته :

[... تعلمين أنى لم يكن لى قط أم . فما إن جئت إلى هذه الدنيا ، حتى بعثوا بى إلى بيت شرطى ، حتى الرابعة ، ومن الرابعة إلى السادسة وضعونى فى مدرسة نصف داخلية . وفى السادسة والنصف أرسلونى إلى فندوم . حيث مكثت حتى الرابعة عشرة . لم أر أمى فى خلال ذلك إلا مرتين . . آه يا حوائى العزيزة ، إنك إذا قورنت بى تكونين قد عشت مع أهلك فوق الورد والزهر !.. ياحبيبتى ، فليضم كل منا صاحبه إليه . . لاتتخلى عنى . إنك تحلين عندى محل : الأم ، والصديقة ، والشقيقة . أنت خليلتى ، وستكونين حليلتى ! . .]

وقبل أن يسافر إلى بولونيا ، رأى أن يوفر لحبيبته مسكناً لائقاً ، هى التى تسكن قصراً فيه من الخدم والحشم عشرون نفراً ! . . ولم تروعه فكرة شراء بيت . فقد كانت له ثقة لاحد لها ، شأن النفوس الكريمة . وبعد طول البحث والعناء ، وجد ، فى شارع لافورتونيه (ياللاسم الجميل : المحظوظة !) على عشرين متراً من فوبورج سانت أونوريه ، ڤيلا كانت جزءاً من قصر المالى الشهير بوچون . وقد راقه فيها خاصة أن حوائطها مكسوة بالخشب ، بحيث يكاد الخشب نفسه يكون أثاثاً ، لايحتاج ليكمل إلا إلى أقل الأثاث ، فهو يوفر فى نظره أربعين ألفاً من الفرنكات ! . . وكانت تلك أقوال الخيال ! . . وبدأت عذابات الواقع ! . .

ولكن البيوت ليست بالحيطان ، وإنما بالسكان ! . . فمتى تأتى إيڤ لتسكنه ؟ ! . . لقد أتت فعلا قبل أن يعلق ذلك بوهمه ، فوصلت باريس فى أوائل ١٨٤٧ . . يالله ! . لقد تحقق أعز أحلامه ! . . فبعد ڤيينا ، وسان بطرسبرج ، وروما . . ها هو ذا حى پاسى سيتخذ مكانه بين المدن المقدسة ! . . فلما ظهرت على عتبة الباب ، وهى آية من آيات الحسن ، تعبّد لها ، وقدم صلوات الحب ! . وسبح بحمد كل مافيها ، من فرعها ، إلى قدمها . . .

فتركته يفعل ، ثم نظرت بإمعان إلى هذا المسكن الضيق الحقير . . ودون أن تقارن مقارنة لامحل لها ، قالت ضاحكة ، من وراء نظارة يدها :

ــ يا للحياة التى تحيونها فى باريس ! . . إنكم تسكنون أقفاص ذباب ! . .

فجاراها بلزاك فى ضحكها ، وقال :

ــ إن الناس يتزاحمون على باريس ، ليغترفوا من معينها النورانى ! . .

لقد كانت الكونتس دى هانسكا تحس بالنشوة حين تسمعه متكلماً ، مثلها فى ذلك مثل : مدام دى برنى ، ومدام زولماكارو ، ومدام ركامييه ، ومدام دى برانتس . . ومن إليهن ، ممن عرفنه من النساء . .

وجاء ، وهو يقبلها ، حديث الغيرة . . فسألته :

ــ أما زلت تلق الكونتس دى كاسترى ؟

فتنهد قائلا :

ــ المسكينة ! . لقد حالت جد دميمة ! . . فدعينا من هذه الشؤون الحزينة . . واعلمى أن « الكوميديا الانسانية » تتقدم بخطا جبارة . فلا تكاد تتم ، حتى نغزو بها سوق الأدب الأوربى كله ! . . وسأكسب ثلاثمئة ألف فرنك سنوياً ، نوفر منها نصفها . فانظرى كم يكون لدينا بعد عشر سنين ! . . أونوريه دى بلزاك رأسمالى ! . . ياله من موضوع تتناوله الصحف والمجلات !.

كذلك كانت مخيلته تصبغ الحياة بالذهب . وكان يصنع من رغبات قلبه : حقائق تبهر القلوب وتأخذ بالأبصار ! . .

وكان قد استأجر لها شقة بقرب الإيتوال ، يؤدى بابها إلى حديقة ، يخف إليها كل صباح ، وهو يزداد كل يوم فتوّة وشباباً . . وكانت الكونتس دى هانسكا امرأة مثقفة ، متعطشة دائماً للمعرفة . ففتنت بباريس ، حيث يجرى فى كل خطوة منها جانب من التاريخ ، تحت أشكال شتى ، من الحجارة الجميلة ، إلى الشوارع والميادين التى شهدت : شخصيات بارزة ، وساعات مشهودة ، ومواقف حاسمة .

وكانت ترى زيارة باريس فى صحبة بلزاك ، بمثابة الإصغاء إلى شعر الماضى الذى تعرف أصالته . . وكان سماعها إياه يتحدث ، يبعث فيها حرارة كالنبيذ المعتق . . فشربت ، ونهلت ، وتدفأت ، وآمنت . . وكان يكشف لها ، فى كل ركن من أركان باريس ، آية طريفة تبهرها ، ويكشف لنفسه آية يسجلها للأحقاب . . .

وغادرت الكونتس دى هانسكا باريس ، على غير وعد منه بالزواج . . لم ينل منها فى صدد هذا الوعد إلا ابتسامة الچوكوندا ، الشبيهة عندنا ، فى سرها ولغزها ، بابتسامة أبى الهول ! . .

ومضى الصيف . . وكانت رسائلها تفيض أنوثة ، ولا ترتبط بشىء . . فقرر الرحيل إلى بولونيا ! . . وسافر فعلا . فقطع ثمانمئة فرسخ فى ثمانية أيام . ودخل أرض بولونيا ، ببيوتها الخشبية ، وفلاحيها المرتدين جلود الخراف ! وكان قصرها مفاجأة أخرى . لقد أراد أن يتخيله منذ خمسة عشر عاماً ، ولكن عبثاً ! . . أين الخَبَرَ من الخُبْرَ ! ؟ كان قصراً أسود أبيض ، لا عهد له بمثله فى فرنسا . . قصراً يونانياً وبولونياً فى وقت معاً ، غنياً ، فخماً ، منيفاً . . فبهت من وجاهته ، وتفجر قلبه حباً . . « ياللعظمة ! » . . وكان كل مافيه يدل على غاية الذوق المصفى ، والثراء الطائل . . حتى الوصيف الذى حمل إليه القهوة باللبن فى الصباح ، كان يدعى : توماش . . توماش جوبرناتشوك ! . . فرأى أن اسمه بربرى ، ولكن مظهره يدل على ذروة الحضارة . . .

ها هوذا قد نزل أهلا وسهلا . ها هوذا ، بعد طول السفر ، قد حصل ، آخر المطاف ، على الثروة ، عن طريق العبقرية ! . . ماأعظم كرمك يا إلٰهى ! . تعوض وتخلف ، على أسباب شتى ! . . إن قارئة بولونية قد جعلته يكسب منها وحدها كل ماسلبه إياه ناشرو بلچيكا ، الذين طبعوا كتبه دون إذنه ! . وهى ، فضلا عن غناها الفاحش ، تمنحه حبها ، حبها الأسمى ، وذكاءها الأعلى ! . .

وكان لاينفك يبدى ألواناً من الحنان والمحبة الأبوية لكريمتها « أنّا » ،

التى تزوجت الآن . . وكان ، إذا ماتنزهوا ، لايفتأ يطرى : بولونيا ، وأهلها ، وخيراتها ، وزراعتها ، وعاداتها . .

ولما كان عقله سياسياً أيضاً ، فقد كان يكفيه أن يشاهد حقلا واسعاً من القمح ليحسب ويضرب هكذا : « إن روسيا وانجلترا هما القوتان الوحيدتان الحقيقيتان . . انجلترا تصطنع ، وروسيا تنفع وتنتفع ، لأنها تملك المواد الأولية العظمى[1] . . . »

ونَعِم غراماً ، وطاب مقاماً . . ولم يكن يتعجل العودة إلى باريس ، لولا أن جاءه بريد ينبئه بضرورة العودة على جناح السرعة ، وإلا سلبه ناشروه ونهبوه ، وجعلوه صفر اليدين ! . . فالأمر يتعلق بمستقبل « الكوميديا الانسانية » ! مجهود عشرين سنة يتلاشى ! . . فانتزع نفسه انتزاعاً من كل مايحب ، واستأنف السفر بالقطر والعربات ، على ألا يغيب أكثر من شهر ، أو شهرين ! . . ووصل باريس فى آخر فبراير ١٨٤٨ ، فى إبان الثورة . . فلم تدهشه ، لأنه كان يتوقعها من أمد طويل . . فاستقبلها كارهاً ، ساخطاً . . ومع ذلك فقد دخل مع الشعب ، فى ٢٤ فبراير ، إلى قصر التويلرى . . ورآه أحد أصدقائه ، فهمس فى أذنه :

ـــ كيف ؟ أنت هنا ؟! . . أنت ، المدافع عن التقاليد الملكية ؟ ! .

وكان بلزاك شديد الشحوب . فأجاب همساً أيضاً :

ـــ إننى جئت فى طلب قطعة من مخمل (قطيفة) العرش ! . .

ولما عاد ، بعد ستة أشهر ، إلى بولونيا ، كانت هذه القطعة فعلا أول ماأخرجه من حقائبه . . وقدمها هدية إلى « إيف » ! . .

وكان ضيق الصدر بالسياسة ، ولم يكن دون ذلك ضيقاً بذات أعماله . فإن إصلاحات بيته بشارع لافورتونيه لم تتقدم ، فاستقر عزمه على إنزال والدته

---

(١) تأمل هذا الحكم العظيم ، من كاتب قصصى ، ينظر إلى ما حوله كشاعر عاشق ، منذ نحو قرن من الزمان ، قبل أن تجتمع ، فى محالفة ، بالدم والروح ، هاتان القوتان ! . . . « ص »

فيه ، لتشرف على ذلك بدقتها وتحرّزها . أتراها تصلح لتنظر وتأمر ؟! . .
ولم يعد لديه من الشجاعة ما يحمله على العيش وحيداً ، بعد مقامه السعيد فى قصر دى هانسكا . . وكانت همته من الثبوط والهبوط بحيث سقط مريضاً لأول لفحة برد . . وكان مرضه شديداً ، فتداعى له كل ما فيه . . فالرئتان مهددتان . . وكان فى حياته الجسدية كما فى حياته المعنوية ، إنما هو قلبه الذى يقود البقية ، وكان هو القلب الشجى أول منكوب مكروب . . فتارة يسعل ، وتارة يختنق . . وحيناً يحس ضعفاً عاماً ، وحيناً يزعم نفسه مسموماً ! . . وكان يقول لمن حوله :
— آه يا أصدقائى ، ماذا يكون حالى ، لو لم تكونوا لى ! . .
فاستدعوا طبيبين مشهورين ، الدكتورين « كنوث » ، الأب والابن . وكان الأب طالما رأى موتاً مفاجئاً كما رأى شفاء خفياً ، بحيث لم يعد يعرف : بم يؤمن ، وبم يكفر . . فقال باحتمال إنقاذ بلزاك . أما الابن فكان شاباً ، لا يمارى فى نظرياته ، فقال للكونتس دى هانسكا : « لا أمل ياسيدتى فى شفائه ! » . . وكان بلزاك المسكين أشد ثقة بدواء الابن منه بدواء الأب ! . . وقد أخذ ، بناء على مشورته ، الليمون الخالص : سبع ليمونات ، أو ثمانىَ ، فى اليوم ، كانت تسبب له غثياناً شنيعاً . بحيث وصف له الأب مسحوقاً . . ثم تخليا عنه كلاهما ، لقسمته ونصيبه . . (وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟ . .)
وكان يجلس فى مقعد كبير ، أمام المصطلى المتأجج ناراً ، وهو ينتفض من الحمىّ ، بينما يتساقط : الثلج ، والجليد ، حول البيت . . وعيناه اللامعتان تسرحان من النافذة ، وتطلعانه على منظر ناصع البياض ، إلى جانب النار الشديدة الاحمرار . . ففكر ، على رغمه ، فى : تقهقر نابليون من روسيا ، وحريق موسكو . . أو ليس هو أيضاً نابليون آخر ؟ ! فلعل المصير نفسه ينتظره ، وقد جاء ، كالقائد العظيم ، ليفنى فى فيافى روسيا . .
ويفتح الباب ، وتظهر إيف ! . . فتتبدد أحلامه الكئيبة ، ويرسم معها

مشاريع المستقبل ، فتبتسم بحزن ، وتعيد ذكرى الماضى ! . .

وقضى الشتاء فى صعود وهبوط . وكانوا يعنون به عناية ليست من المألوف على هذه الأرض . فكتب بذلك إلى أمه ، التى كتبت بدورها لتشكر « سيدتها الكونتس » . . وما برح يلح على إيڤ فى الزواج ، ويلحف ، حتى رضيت أخيراً أن تسأل القيصر : الإذن فى الاقتران منه ، طبقاً للقانون الروسى . ولم يكن يشك فى حصولها على ذلك . . أكان « بلزاك » عبثاً ؟ ! ورفض القيصر ! . . فلم يبق للكونتس ، لتحقيق رجائه ، إلا أن تتخلى عن ثروتها لبنتها . . ووقع هو فى هوة من اليأس والقنوط ! . . . أولم يكن إذن المجد شيئاً . . وهو الذى أفنى فى سبيل المجد حياته ! . .

وفى يونيه تضاعفت أوجاع القلب ، واشتدت به العلة . أيكون قد انتهى أمره ، والأرض تناديه ؟ ! أهى مسألة أيام ، أو ساعات ؟ . . إنه كان كشجرة ، انقضّت عليها صاعقة فأحرقتها ، ودمرتها تدميراً !.. وكان يقول لممرضته العزيزة :

— إن رأسى يزن أثقل من قبة كنيسة القديس بطرس ! . .

واستدعت إيڤ الطبيبين من جديد . . وسألتهما ، بلهفة واضطراب ، فجاء ردهما هذه المرة : إجماعاً على تعذر شفائه . . فبدأت تحس ، وتدرك ، مافى زواجها به من الخير والرحمة . . . وكان يتوسل إليها فى ذلك ، فتعده من فصل إلى فصل . . فقبل يديها بحرارة وهوس . . وما زال يتضرع لها . وما زالت هى تنتحل حججاً ومعاذير . .

ومضى الصيف . . إنه يحبها . . وهو بقربها . . فلماذا لايصبر ؟ . .

كان ذلك فى أوائل فبراير ١٨٥٠ . . وأقبل الربيع مسرعاً . . فهل يكون ربيعه الأخير ؟ . . إن قلب الكونتس دى هانسكا قد تزعزع ، ولم يعد الأمر شفقة ، بل صار حباً . كما كان حالها وإياه فى چنيف يوماً ما . . . وجلسا ليلة يتشاكيان . وهى أشد ما تكون إشفاقاً عليه مما به . . وكان ما به هو الحب !..

أحبها ، وأحب الحياة . وكانت الساعة تتقدم بهما ، ولا يدريان كم تكون !

ويطلب قهوة ساخنة ، ثم مرقاً مغلياً . . فتوقظ « توماش جوبرناتشوك » ، فيحمل إليه ما طلب ، فكان بلزاك يجرع السائل وهو يغلى بحيث لا تكاد الأصابع تتحمل لمس الفنجان . . ويخرج توماش مبهوتاً ، ويأوى إلى فراش ، يتساقط تعباً . . ويتساءل : « ماذا يمكن أن يقولا حتى الساعة الرابعة صباحاً !. »

وكان يقول لها ، كما كان يفعل منذ سبعة عشر عاماً فى رسائله ، كل ما كان ، وكل ما يريد ، وكل ما يحب . . فهذا الرجل ، فى كتبه ، وفى نفسه ، لم يكن حياة واحدة . إنه كان كل الحيوات ، فى كل العصور . . كان فذاً فى شخصه ، وفى فكره ، وفى حبه . كان ملهماً بروح قدسى ، ينيره ، فيشرق ، ويبعث الهناء . . وهو يتفانى ، وينطفىء ، ويفنى . .

وحدث ، بعد ثلاثة أسابيع من ذلك ، أن ظلا ليلة معاً حتى مطلع الفجر . . وقد أشعلا النار فى المصطلى سبع مرات ، وأصغت إليه الساعات الطوال ، دون أن تقول كلمة ، اللهم إلا أن شكرته بعينيها الممتلئتين حباً ، عند ماقال لها بصوته الرخيم :

ــ فلنصعد ياصديقتى لنستريح . فما كان أعظمك الليلة ! . إن الروح فيك يفوق الجسد جمالا . على جماله ! . .

فنهضت ، وتناولت يديه وقبلتهما بكل نفسها ، وقالت له بتلك اللهجة العزيمة :

ــ أتريد أن نتزوج فى الشهر القادم ؟ . .

فاضطرب وتمتم :

ــ إيف ! . . إيفاى ! . .

فاستندت إلى ذراعه ، وقالت له بذات الصراحة والجلاء :

ــ تعال إلى حجرتى . . لتنام معى . . .

وفى اليوم التالى أعلنت بنتها وزوج بنتها بعزمها ، وكانا يحبان بلزاك كأب لها . فبلغ من تأثرهما أن لم ينبسا بكلمة . ثم انتحت بابنتها جانباً ، وقالت لها :

— أنت تعلمين أن عدولى عن الاقتران به يعد جريمة ، فلشد ما تألم . وهو مقضى عليه ، وا أسفاه ! . . وتجلى عبقريته المؤاتى ، على الصورة التى تشهدينها فى هذه الأيام ، دليل على أنه لم يعد من هذا العالم . ولكن إذا كان عقله يرى الآخرة ، فإن قلبه يعانى فى الدنيا . . وواجبى أن أخفف عنه ، وألطّف أيامه الأخيرة على هذه الأرض . . .

وفى تلك الأثناء ، كتب بلزاك ، بقلم يتعثر سعادة ، إلى كل الذين يحبونه ، أو يمكن أن يفخروا به . . فكتب إلى أمه يوصيها : بإعداد البيت ، وتنسيق الحديقة ، وملء الحجرات بالزهور فى اليوم الذى سيحدده لحضوره مع عروسه ! . وزف إلى أخته البشرى : بأنه يتزوج من أرقى طبقة نبيلة فى أوربا . . وكتب إلى زولما كارو يعلن إليها : أنه ، هو الذى لم يزدهر ربيعه ، ولم يسعد شبابه ، قد آن له أن يطمئن ، ويستروح خريف الحياة . . وأن امرأته تعرفها ، كما لو كانت قد رأتها رأى العين :

[. . فانى قد رسمت صورتك بتأثرات قلبى . . فعدتها صديقة حميمة لك . وقد كلفتنى أن أقول لك : إن لك دائماً فى باريس غرفتك عندنا . . كيف أستطيع أن أرد إليك كنوز المودة ، وكريم المثوى ؟]

وكتب إلى الدكتور ناكار :

[إن نسب زوجتى يتصل مباشرة بأمبراطور روسيا . . وكذلك سيتم الزواج الذى ما كان أكثر حساده ! . .]

لقد كان سعيداً : فى حبه ، وفى غروره وزهوه ، وفى إدراكه للمنافع ، وفى ضعفه لألقاب النبل ومراتب الشرف ، وفى ميله للعظمة والجاه ، وفى عزمه أن يكون غنياً . . لقد كان سعيداً على طول الخط ! . .

ولكنه أصيب ثانية بالبرد ، مما كاد يؤخر هذا الهناء الذى لاحد له . وكاد يهلك من شدة السعال . وأخيراً ، فى ١٥ مارس ١٨٥٠ ، بعد ثمانى عشرة سنة فى الانتظار ، وفى الهيام ، وفى الحساب ، تزوج من « إيڤ » ، حوائه الشائقة ،

الفاتنة ، فى دير من أديرة الكرمليين ، مشهور بصورة معجزة للعذراء . . وكان يوماً فظيعاً ، ومشرقاً . . مشرقاً لأنه كان ينظر إلى زوجته بعينى الانجذاب ، فقد كانت عنده جوهرة بولونيا . . وفظيعاً بالنسبة لانحطاط بدنه . . برد صقيع ، ووحل رطب . . وكانت مقاطعة أوكرانيا ـ التى كانت فى هذه السنين الأخيرة (من ١٩٤١ إلى ١٩٤٤) ساحة للحرب العظمى بين الروس والألمان ـ كانت أوكرانيا هذه ، فى يوم زواج بلزاك ، مغرقة بصيّب من مطر متواصل . . وكانت الطرق اللينة تموج تحت العربات . . وصعد بلزاك مركبة مقفلة ، وكاد يتعذر عليه النزول منها . وكان « توماش » يسنده ، مع « المدام » ، لدى كل ارتجاج . وكان يختنق ، ويشكو . ورأسه على كتف « إيف » :

ـــ يا حوائى ! . . سأموت قبل أن أعطيك اسمى ! . .

ووصل . وهدأ . ودخل الكنيسة على ذراع الوصيف « توماش » ، الذى ظل يعينه مخلصاً طوال فترة القداس . . وخرجوا ، وقلب بلزاك يذوب من كل شىء حناناً . . وتذكر كلمة زولما كارو : « إذا أصبت بالجنون ، كما تقول ، فإنى سألازمك وأحرسك ! . » . . ورواها لزوجته بصوت متهدج ، وأضاف :

ـــ إننى مجنون . . من الهناء . . فلازمينى ، واحرسينى ! . .

وكان الفصل لسوء الحظ قاسياً قارساً ، وكان هو جد متألم ، بحيث لم يستطع السفر فى الحال إلى فرنسا ، كما كان يرجو . . ورثى لنفسه :

ـــ لشد ما كنت أريد أن أرى الربيع فى باريس . فالمدينة كلها تبتسم فيه ابتسامتها الزكية ، التى لا تشاركها فيها مدينة فى العالم ! . .

ومضى أبريل كله ، دون أن يستطيع الحلم برحلة طويلة كهذه . ثم رأف به القدر فى أوائل مايو ، وتحسن تنفسه ، فقال : « فلنسرع بالسفر ! » . . وظل خلال ثمانية أيام يلقى عذاب الشهداء ، ولكنه كان وطيد الأمل بأن هواء باريس ، أو جو فرنسا ، يشفيه من كافة أوجاعه التى ضاعفها برد بولونيا ،

وأحس عند الحدود الفرنسية بأنه أحسن حالا . . وكانت مدام دى بلزاك (الكونتس دى هانسكا) حزينة . . فسألها صبراً ، فسوف تجازَى الجزاء الأوفى !.. وأخيراً بلغا باريس ، بعد ظهر يوم جميل ، وكأن الهواء لايحمل إلا أنباء طيبة فى عالم سلام . . ثم دخلوا شارع « لافورتونيه » ، فى نحو الساعة السابعة ، مع شعاع الشمس الأخير على السطوح . . وكانت أمه قد آثرت العودة إلى بيتها ، تاركة البيت معداً ، بحراسة خادمه الوفى « فرانسوا » . . فقال بلزاك وهو ينزل من المركبة :

— إنى أحب هذا الشارع ، فهو هادىء ، يريح الفكر . . وبابنا قوى متين . . أليس كذلك ؟ . .

فقالت مدام دى بلزاك ، وقد لاحظت أن النور مضىء فى داخل البيت :

— لقد بادر الخادم الأمين ! . . ولا ريب فى أن الحساء الآن على المائدة . . فلنسرع بدق الجرس ! . .

ودقا الجرس : خمس مرات ، عشر مرات . ولكن لم يتحرك شىء . . على أن المصابيح مضيئة ، فلا نزاع فى أن بعض الناس فى البيت ! . . وسألا جارة لم تكن تدرى شيئاً . . وناديا . . فلم تفتح نافذة ما . . وانتظرا . . وبدأ الليل يرخى سدوله . ولما ضاقا ذرعاً بعثا بالحوذى فى طلب حدّاد . فجاء وفتح الباب . وظلت مدام دى بلزاك ملازمة الصمت . بينما كانت أعصابه متوترة إلى حد لايطاق . فاندفع إلى الغرف المضيئة . وهى تتبعه . فوجدا فرانسوا جالساً ، شاحباً ، ينظر إليهما بعينين جاحظتين ، ولا ينطق إلا لغواً لا معنى له . . لقد أصيب بالجنون .

وعندئذ نزلت مدام دى بلزاك ، فأمرت الحوذى بحمل الحقائب . وفى خلال ذلك كان بلزاك فى الدور الأرضى ممسكا قلبه بيديه ، متطيّراً ، يتمتم ، كما لو كان مغشياً عليه من الموت :

— يالفأل المروّع ! . . إننى لن أخرج من هذا البيت حياً ! . . .



٤

نحن فى العشرين من شهر مايو ١٨٥٠ . . أمام بلزاك ثلاثة أشهر حتى يموت ! . . . فما هى ثلاثة أشهر من العمر بغير أمل أو رجاء ؟ . . كان يرى هاوية تحت قدميه . . وكان يتألم . . ولم يكن ألمه قاصراً على اختفائه ، وهو يكاد يكون شاباً ، بكل ما يحمل من أمانىّ ، وكل ما لديه من مشروعات ، وكل ما بين جنبيه من حب . . بل كان يبكى كلما انفرد بنفسه ، لأنه حطم حياة الكونتس دى هانسكا البولونية ، ليعطيها الترمّل عوضاً عن ذلك فى بيت خاو فى باريس . . .

وليت هذا البيت كان ، على الأقل ، يعجبها ! . . ولقد سألها فى ذلك مئة مرة ، فلم يحصل منها إلا على أجوبة مبهمة ، كتلك التى يعلل بها الأطفال المرضى . . . ولا يكاد يسترد أنفاسه ، حتى يطلب إليها أن يعتمد على ذراعها لينزلا لرؤية اللوحات الفنية والبسط ! . . ويقول لها :

— أنت هنا فى الإطار اللائق بك . . فقد ولدت للعيش بين روائع الفكر الفرنسى ! . .

ثم يسود سكوت ، تقطعه بقولها مثلا :

— لا تنس أنها الآن ساعة تناولك الدواء ! . .

ولم يكن يرى فى تملصها من الرد على هذا النحو إلا لونا من الحنان ، فقد قدر ما أعطته إياه ، فى عامين اثنين ، بأكثر من ستين ألف فرنك (٢٤٠٠ جنيه) ! أنفقها فى مختلف الأعمال ! . . وكان يرزح بعرفان الجميل ، فيكرر لها :

— لقد كنت أنت حياتى ! . . أنت تعلمين أنه منذ خمس عشرة سنة وكتبى كلها قد كتبت لك ، وبقربك . . وأنت لم تغادرى قط مكتبى . . . وكانت صورتك دائماً حاضرة ! . . وإذا كانت ثمة هذه الحرارة كلها فى مؤلفاتى ، فذلك لأنى لم أقلب صفحة إلا نظرت إليك قائلا : « إيف ! . . إنى أحبك ! . . . » . . وعلى ذلك ، فإن قصصى ملك لك . . ولست ألقى الكلام خبط عشواء . فإنك تجدينها فى مكتبتى مجلدة باسمك . وقد صححت فيها أشياء جوهرية ، سوف ترعينها ياحبيبتى إذا أعادوا طبعها . ولكم كنت أود لو أعدت قراءتها معك ، حتى تبدى فيها رأيك ، ولكن الله يأبى . . . على أن لى الثقة فى فطنتك ، فقومى عنى بهذا ، إذا ما اختفيت من الدنيا . . فليس فى الدنيا غيرك فهمنى فى عملى ! . .

وكانت عند ما تسمعه يتكلم هكذا ، بصوته الأبح من المرض ، تنسى ، هى التى صارت مدام دى بلزاك ، والتى كانت الكونتس دى هانسكا ، تنسى : مرارة أيامها ، ووحشة لياليها ، وتهتز بفرح الكبرياء الذى يعوض عليها تضحيتها . . .

وجاء الدكتور ناكار بمجرد رجوعه ، لزيارة بلزاك ، فوقف عاجزاً أمام ما شاهده فيه من ضيق التنفس ، وتقطع الكلام ، وغشاوة البصر . . فتوسل إليه بلزاك أن يعوده كثيراً ، فعاده ، بحكم الصداقة . فكان بلزاك يقول له كل مرة :

— آه يا دكتور ! . . إنى أنتظرك بفارغ الصبر . . إنى أتألم أكثر مما لو كنت من الهالكين ! . .

وكان يوماً يشكو القلب ، ويوماً الكلى ، ويوماً البطن . . فقال الدكتور ناكار لمدام دى بلزاك ، وهو يخرج آسفاً :

— إنه يا سيدتى عمل كعشرة رجال ! . . ومنذ خمسة عشر عاماً ، رأيته فى شارع كاسينى ، فزعمته قد قضى نحبه ، وكنت يومئذ لا أستطيع له شيئاً . . ولكن . . هل تريدين الآن رأى زملائى ؟ . .

ودعا ثلاثة أطباء للاستشارة : فوكييه ، ورو ، ولويس . ولم يكن أحد منهم قد بهرته « الكوميديا الإنسانية » ! . . لم يكن منهم من سحرته العبقرية ! . . فكشفوا على بلزاك كأى مريض مدنف ، على فراش الموت . . . وأمروا بكاسات هواء ، ووضع دود لامتصاص الدماء ، وملينات ، وما إليها . . بلا اكتراث . . وكان الله بالسر عليماً ! . . وبعد زيارتهم اشتد الاضطراب فى بصره . . وراح ، خلال مسائين ، فى بحران ، خرج منه مرعوباً يبحث عن ذات نفسه . . ولم يعد يستطيع أن يقرأ أو يكتب . ومرّ عليه أسبوع صحو ، فى يوليه . قال أثناءه لأمه ، وقد حملت إليه فاكهة وزهراً :

— إنى أحبك ، وأعجب بك ، يا أماه ! . . فأنت تعيشين بثلاثة صلديات ! . . والذنب فى هذا ، وا أسفاه ، ذنبى . . ومع ذلك تجدين سبيلا للترفيه عنى هكذا . . أتوجد إذن ساعة تجاور فيها الأمهات الرفيق الأعلى ؟ ! .

فطفقت أمه تنتحب :

— لقد ظلمتنى طويلا يا أونوريه . .

— ولقد قسوت علىّ يا أماه . . ولكن دعينا من هذا . . فأنت تحبين زوجتى . . وتستحقين على ذلك كل حنانى . . وسأعرف كيف أوفر لك شيخوخة هادئة الجناب . .

وجاء فى هذا الأسبوع أيضاً فكتور هيجو لزيارته . وروى له من حوادث الثورة حكاية : هرب الملك لويس فيليب فى عربة حصان ، كانت تركب فيها

سيدات ، فأنزلهن ، وركب مكانهن ! . . فرثى له بلزاك :

— مسكين ! . . الرجل المسكين ! . .

وأراد هيجو ، وهو ينصرف ، أن يشجع بلزاك ، ويطمئنه ، فرد عليه هذا بقوله :

— أجل . . إنى أحسن حالا . . وقد يمكن أن أشفى . . فالساحر المشهور « بلتآزار » قد تنبأ لى ، من قبل ، بهذا المرض الشنيع فى سن الخمسين . . وقال إننى سأنجو منه ! . . فإذا كان ذلك حقاً ، وعادت إلىّ قواى ، فسأستخدمها كلها فى النضال ضد الديمقراطية ! . . فإنى لا أدرى كيف أن رجلا ملكا يتنزل عن لقبه كعضو فى بلاط فرنسا ، وهو أجمل لقب بعد لقب الملك ! ؟ .

فرد عليه هيجو بصوت عميق :

— هناك ما هو أجمل من الملك ، وهو الأمة . وقد قام نزاع طويل فى ضميرى . . وقد كنت عضواً فى مجلس البلاط الأعلى ، مختاراً من الملك . . . فآثرت أن أكون نائباً ، مختاراً من الشعب . . .

ونهض لينصرف ، فقال بلزاك :

— يا عزيزى هيجو ، إنى أعجب بالديمقراطية عند ما تتكلم بلسانك ! . . ولكنها عند ما تتحرك بأذرع الشعب ، أخاف وأجزع ! . . فالشعوب تجهل ما هو نبيل . . وأنا ، قد أموت غداً ، ولكنى أكون قد حققت حلمى . .

ونظر إلى زوجته ، مواصلا الكلام :

— وتزوجت ، وحالفت ، سليلة ملوك . .

وعند هذه الكلمات سرح بصر فكتور هيجو بين الزوجين متأملا . . ثم انحنى ، واستأذن . . فأشار بلزاك إلى زوجته أن تفرجه على اللوحات ! . . وصحبت مدام دى بلزاك الشاعر الكبير . فقال لها :

— أهناك أمل فى إنقاذه ؟

فتنهدت قائلة :

ـــ لست أدرى . . وهو اليوم أحسن حالا . . وقد رأيت من إشراقه لمحات . . ولـكنه طفل كبير . . فاغفر له بعض ملاحظاته . . فهو متعلق بأهداب أشياء اسمها : النبالات ، والسلالات . .

فتأمل هيجو ، ملياً ، هذه السيدة السلافية العظيمة ، التى طالما تحدثت عنها الصحف ، بالحق وبالباطل . . ورأى مظهر سيادتها المطمئنة ، وعينيها العميقتى النظرات ، وجبينها الوضاء . . فقبل يدها بانحناء . . وانسحب . .

فعادت إلى بلزاك ، فإذا به يقارن بين : هيجو ولامارتين . . ويقول إن الأخير ، ولو أنه ديمقراطى ، فهو يحب النبالة . . فقاطعته :

ـــ ياعزيزى المسكين ! . بالله لاتعد إلى هذا . . فأنت تؤلمنى ! . . أفلا تدرك إذن أبداً أن النبلاء حقاً لايتحدثون قط عن نبالتهم ؟! . . أفلا تدع الادعاء بأننا نتصل بالنسب إلى القياصرة . .

ـــ ادعاء ؟ . . إن الوثائق تحت يدى ! .

ـــ ولو كانت . . فليس لنا أن نذكر ذلك ! . .

وأنّ بلزك أنيناً ، وقد أصيب باختناق :

ـــ ربّاه ! . . ربّاه ! . أقضى علىّ . . . إنى لم أعد أستطيع نطقاً . . إنى سأموت . . . أقضى علىّ بألاّ أظهر بمظهرى الصريح ، الطبيعى ، الأمين ؟ . .

وأمسك لحظات ، يعانى ، ثم قال :

ـــ هاتى مروحتك ! . . ردّى إلىّ أنفاسى المقطوعة . . يا صديقة ! . . أهكذا نزول ونختنق ، عندما تبدأ الحياة تطيب ؟ . . .

وألحت عليه العلة . ولم يزده الدواء إلا عناء . وكان جسده المضنى لايكف عن تعذيبه . . وانتفخت يداه وقدماه . . وأخيراً ، كان يتحرك ثلاث خطوات فى حجرته ، فاصطدمت ساقه بقبضة نحاسية فى الأثاث . . فتكوّن جرح لم يندمل

قط . وصار مؤلماً ، لا يطاق . وكأن فيه ناراً تتأجج ، وتشعبت منه الحمى إلى بقية الجسم . . .

* * *

وفى صباح ١٨ أغسطس ، دخلت مدام دى بلزاك إلى غرفته ، وسألته ، سألت الممرضة التى تساعدها ليلا ، عما إذا كان قد نام قليلا . . فأشار بنظرة شاردة أن : « لات حين منام ! . . » . .

واستجمع قواه ، وقال بصوت متقطع :

— إنى حريص . . . على أن أدفن فى مقبرة « پير لاشيز » . .

فتثلجت إيڤ ، وهمت بالرد . . فربت على يديها ، محاولا الابتسام :

— إنى أرى ما رآه نابليون . . من أن من يتعشق المجد ، ليس له غير باريس مثوى ، ومقام أخير . . .

وبعد ذلك خفض جفنيه ، ولم يعد يرد إلا بإشارات مبهمة على أسئلتها :

— أتريد أن تشرب ؟ . . أأنت تتألم ؟ . . قل كلمة ياصديق قلبى ، كلمة واحدة ، تطمئنى ! . .

ولم يتحرك إلا لدخول الطبيب . . وفجأة ، كما لو كانت عيناه قد شهدتا القبر ، نظر إليه ، وقال :

— هل تظن ياصديقى أن أمامى بضعة أسابيع ؟ . .

فطلب الدكتور ناكار ، بلطف ، أن يجس نبضه . . فألح عليه بلزاك :

— بربك ترفق بى وأجبنى : هل أمامى ثلاثة أسابيع ؟ . .

— إن نبضك أحسن !

— أربعة أسابيع ؟ . . لا ؟ . . إذن خمسة عشر يوماً ؟ ! . .

— بالله دعك من هذا ، واسترح ! . .

فسأله :

— ثمانية أيام ؟ . .

فلم يجب الدكتور ناكار . وعندئذ اعتدل بلزاك فى جلسته ، وصاح :

— ثمانية أيام مع الحمى ! . . يكفينى هذا الزمن لأضع فيه كتاباً ! . .

ثم انكفأ على أذنيه . . وبدأ الاحتضار ، ولم يخاطب بعد أحداً من عالم الأحياء . . دخل فى اللحظة العلوية ، التى يحاكم فيها المخلوق حياته ويحاسبها قبل أن يغادرها . فرآها كلها : ثلاثون سنة فى جهاد وكفاح للوصول . أربع أو خمس سنوات مالكا لأمره ونفسه . . ثم هو الموت يعلن القدوم . . وليست بقية الزمن إلا : نضالا مميتاً ، وصراعاً قاتلا ، تتخبط خلاله عظمة الروح فى مذلة الجسد .

وعندئذ ، بدأ ، فى عقله الباطن ، حوار مشهود ، بين : بلزاك الذى أدرك مصيره واستسلم ، وبلزاك الذى لشدة تعلقه بالحياة قد أعطاها كل ما أعطاها . . فهو يرحل ، على الرغم من المجهود الهائل الذى بذله ولم يتمه . . أحدهما يقنط من ذلك ويحزن . . والآخر يعزيه قائلا :

« — وماذا يهمك ! . .

والأول يقول :

« — ومع ذلك فقد بذلت كل قواى . . وعشت مئات الليالى المشبوبة ، وكنت فوق كل ما يلوح فى إمكان البشر ! .

والآخر يجيبه :

« — ولكن ماهذا كله ، إذا قيس بمملكة الشمس الهادئة ، التى تسطع كل يوم على البحار والقفار ، وتحيي الكروم والحقول ؟ . . إن ابن آدم ليس إلا مُثْلَةً ، إلاّ مَسْخاً ! . .

فيقول الأول مندهشاً :

« — أمع كل هذا الجهاد ، لم أؤد إلا قليلا ؟ ! . .

فيرد عليه صاحبه :

« — كل شيء على الأرض قليل ! . . من أنت ؟ . . ما أنت ؟ . . وما ميكيلّ

أنجلو ؟ . وشكسبير ؟ . وبيتهوفن ؟ ! . . إنكم جميعاً قرعتم ، عبثاً ، الجدار الذى يفرق البشر عن الحقيقة العليـا . . فهل أسمعتم الحجارة تحت قبضات أيديكم الدامية ؟ ! . .

فيجيبه بحدة :

« — إن عملى ما كان ليكون قليلا ، لو أننى استطعت أن أكتب « **صور الحياة العسكرية** » ، إذ كان يمكن أن يكون هذا هو التـاريخ الأوربى ، الذى يسيطر عليه ذلك الرجل القزم ، نابليون بونابرت ! . . ولـكننى لم أتمكن . . ولهذا سيظل عملى أعرج . . .

فيسخر منه صاحبه :

« — إن عملك ، حتى لو كنت قد أتممته بـ« **صور الحياة العسكرية** » ، كان سيظل أعرج فى عيون كل الذين لا استعداد فيهم لتقدير الأشياء العظيمة . . وما أكثرهم ! . .

فيسأله غاضباً :

« — إذن فلن يكون عملى شيئاً ؟ ! . .

فيجيبه :

« — إنه ضـياء فى ظلام . . ولـكنه لن يطرد الظلمـات التى بعضها فوق بعض . . »

ونادى بلزاك أبطاله . . واستنجد بأبنائه ، الذين أبدعهم ، وخلقهم ، وسوّاهم ، من سويداء قلبه ، فى صفحات كتبه :

— إلىّ يا أولادى ! . . إلىّ ، أنتم جميعاً ، يامن صنعتهم من لحمى ودمى . . وخلقتهم من صميم حياتى ! . .

وراح يناديهم بأسمائهم ! . . ثم توقف عند اسم أشهر طبيب فى قصصه . . وسمعته الممرضة وزوجته وهو يجذب ملاءة الفرش ، ويدعوه لاهثاً :

— بيانشون ! . دكتور بيانشون ! . ادعوه إلىّ ! . فهو الذى سينقذنى ! .

ولـكن الصوت الآخر الداخلى رد عليه :

— ومم ينقذك ؟ ! . .

بلزاك ، الحنون ، الحساس ، المرح ، عاشق الحياة ، لم يعد يرد ، شعره مشعث ، وعيناه مغمضتان ، وفمه مفتوح ، وروحه تصعد إلى بارئها . . .

والتاريخ ١٨ أغسطس ١٨٥٠ . . . .

* * *

الأمبراطوريات تنهار . والفراعنة يرقدون فى سبات ، ويتحولون إلى موميات مقمطة ، يقضون أجيالا وأجيالا فى الظلام ، بعد سنوات قليلة سريعة فى النور ، والإسكندر الأكبر يقضى نحبه فى سن الثلاثين . وديموستين ، الخطيب الأشهر ، ينتحر . . وسقراط يشرب السم الزعاف . . وقيصر يطعن بخنجر . . وموليير ينفث دماً . .

مقابر ! . . ثم مقابر ! . . فى كل مكان مقابر ! . . و . .

رب لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحكٍ من تزاحم الأضداد ! . .

ودفين على بقايا دفين من قديم الأزمان والآباد ! . .

وكل شىء ، كل ما كان عظيماً ، أعظم ما يكون . يخضع ، على رغمه ، ويخفض جناحه ، وينكسر . ويضطر إلى الاستسلام ، والعدول عن النضال ، ويسلم النفس الأخير . .

زد على هذا القضاء المحتوم : أن بلزاك قد مات على يديه ذات أولاده ، الذين خلقهم بقلمه ، ثم ألقى بهم ليعمّروا المقابر ! . .

ورآهم ، وهو فى النزع ، واحداً بعد واحد ، رجالا ونساء . . يتتابعون على الأجداث صاغرين . . وسمع صوت خطوات . . فالتفت . . فإذا بجنازة تمر . . عرف فى المشيعين أسرة حبيبته لور دى برنى ، يتبعون نعشاً . . كان

نعشها . . فقد ماتت كذلك ، تلك التى كانت له : أماً ، وصديقة ، وحبيبة ، وملكاً حارساً . . .

هى أيضاً ! .. وعلى ذلك ارتضى الموت ، وسلم بأنه حق . وتمدد ، من تلقاء نفسه ، على سريره ، ليرتاح إلى الأبد . . وتحول جفناه نحو روحه . . ورأت أمه ، وهى منحنية على فراشه ، نجمتيهما تنطفئان . . فصرخت ، وأجهشت فى البكاء . .

وكانت الساعة الحادية عشرة والنصف مساء . وقد ظل يحتضر اثنتى عشرة ساعة . . واعتكفت مدام دى بلزاك ، الكونتس البولونية ، فى غرفتها ، بعد ما هلكت : حزناً ، ولوعة ، وتعباً . . فلم يرها تنصرف . وجاء قسيس فصلى ، ولم يسمع صلاته . ثم جاء ڤكتور هيجو يحمل إليه وداع الشعر ، فلم يحس يده تضغط على يده . . ثم كانت أمه ترى ، وتشهق بين عبراتها :

— أوّاه ! . . يا ولدى ! . .

* * *

شُيّع أونوريه دى بلزاك فى جنازة تافهة ! . . كتلك التى يؤديها المجتمع لموتاه ، جميعاً ، بلا تميز ! . . وبلغت كنيسة سان فيليب دى رول ، فى الساعة الحادية عشرة ، من صباح الأربعاء ٢١ أغسطس . . وكان النساء مزدحمات من حولها فى السوق . . فوقفن لحظة ، ينظرن ببساطة ، ويحيين باحترام . . ولا يعرفن ، فى كثرتهن ، مقدار ما أحبهن هذا المسجّى فى تابوت من خشب ! .

وكان الجو ثقيلا ، كئيباً . . وبدأ رذاذ مطر يتساقط . . ووصلوا مقبرة پير لاشيز فى ساعة متأخرة . وكان جمهور هائل ينتظر الرفات . . وكان المتران المربعان من الأرض ، اللذان اختارتهما أرملته فى العشية ، يقعان على قمة الربوة . . فعانت الخيل ، وجهدت ، فى الوصول إلى حفرته . . وكاد هيجو ، وهو ممسك بطرف من بساط الرحمة ، يحصر بين العجلة وقبر من القبور . . وحدث هرج

ومرج ، وتعالى الصياح . . ثم أنزل التابوت فى الحفرة ، ووقفت الجماهير دقيقة ، جامدة ، خاشعة . . وكان هناك أربعة رجال ، فى ثياب عمال ، أخذوه بالحبال ، وتركوه يهبط . . .

فارتجف الكاتب الرقيق ، « باربيه دورڤيلى » ، الذى كان يعجب ببلزاك ، ولزم الصمت أثناء جنازته ، وقال لنفسه : « إن بلزاك هو نابليون بونابرت الأدب ، ولكنه لم ينزل عن عرشه ، ولم يهزم فى موقعة ووترلو ! . . . » . . ثم أغمض عينيه ، ورأى ، بدلا من جسد يسقط فى حفرة ، روحاً يصعد إلى عنان السماء . . فآمن بأن المجد يسمو فوق كل حقد ، وفوق كل حسد ، وفوق كل عناء ، وفوق كل شقاء . . .

وبعد أن بارك أحد القسس الضريح ، تكلم ڤكتور هيجو . . وكان الهواء الذى يعصف ، وحفيف الشجر الذى يهتز ، ووقع الفؤوس التى تحفر ، تلتهم الكثير من كلماته قبل أن تصل إلى الآذان . . وأخيراً التفت الشاعر الكبير نحو باريس ، واستودعها الكاتب الخالد . .

وكان يوماً عبوساً قمطريراً . فلما آن أوان الشفق ، تفتحت أبواب السمٰوات ، وبزغت الشمس ، وصبغت بذهبها البهيج رؤوس الأشجار . . وخرجت الطيور التى كانت مستكنة فى أعشاشها ، فصدحت . .

واتخذت مقبرة پيرلاشيز مظهر حديقة للموتى . . وقد استودعتها فرنسا ، الساعة ، رفات مجد من أعظم أمجادها . . .

وكان صاحب هذا الرفات ، من ثلاثين سنة ، يجوس ، وما زال فتياً ، بين أجداث نزلائها ، أمثال : موليير ، ولافونتين . . .

* * *

فى هذا المساء ، ٢١ أغسطس ١٨٥٠ ، الله وحده يعلم كم من النساء يسهرن ، وهن يطالعن روائع أونوريه دى بلزاك ، ويهنأن ! . . بيد أنه كانت هناك ،

فى إقليم بعيد ، امرأة ، صديقة ، وفية ، هى « زولما كارو » ، لم تعد قراءة ماقرأته ، بل عادت فاستعرضت ، بكبد حرّى ، وفؤاد يتمزق ، تلك الرواية التى عاشتها وإياه ، فى صداقة نقية خالصة ، على هامش « الكوميديا الانسانية » . .

أيها العظيم بلزاك ! . أيها العزيز بلزاك ! . أيها القلب البطل ، الذى لم يعد يخفق ! . . أيها الصديق الذى لا مثيل له . . الراقد الآن ، منفرداً ، فى الأرض الباردة ! . . . إن كل هؤلاء اللواتى ، فى ليلة الحداد عليك ، يرثين لأنفسهن ، ولك ، قد خضعن مع ذلك لما أصابهن من تعب وكلال ، هو أقوى من الحزن . . وبعد ساعة أو أكثر أو أقل ، نمن جميعاً ، كما نامت أخته ، وكما نامت زوجه ، وكما نامت أمه . . أما « زولما كارو » فقد بقيت ، وحدها ، من دون الدنيا كلها ، ساهرة ، مع النجوم الساطعة فى سمائها ، الخافقة من عليائها ، المشرفة فى تواضع مشرق على مقبرة بيرلاشيز . . فلم تأو إلى فراشها . بل صعدت إلى الغرفة التى كان بلزاك قد سكنها ، فى جناح من بيتها الصغير ، فوق ما كان يحبه من خزين الحبوب والدقيق ، هذه الأشياء النبيلة ! .

فحملت شمعة . ووضعتها على المنضدة التى كان يجلس إليها ، وتركت النافذة مفتوحة على الحديقة ، لتشم هواء الليل القادم من بعيد . . ربما من باريس . . من يدرى ؟ . . وجلست أمام الشمعة ، التى يرتعش لهبها ، على نحوها . وقد تاهت عيناها ، وشرد منهما البصر ، وضمت يديها . . وتعانق ذراعاها على صدرها ، وبدأت تعيد بقداسة ، فى ذاكرتها ، وكأنها تسبّح ، ذكرى هذا الرجل المجيد ، ذى القلب الذى لا يفنى ، ولا عداد له . .

وظلت هكذا تتبعه ، وتصحبه ، فى فكرها ، وتؤنسه ، سواد ليلته الأولى ، الموحشة . فى المقبرة . . .



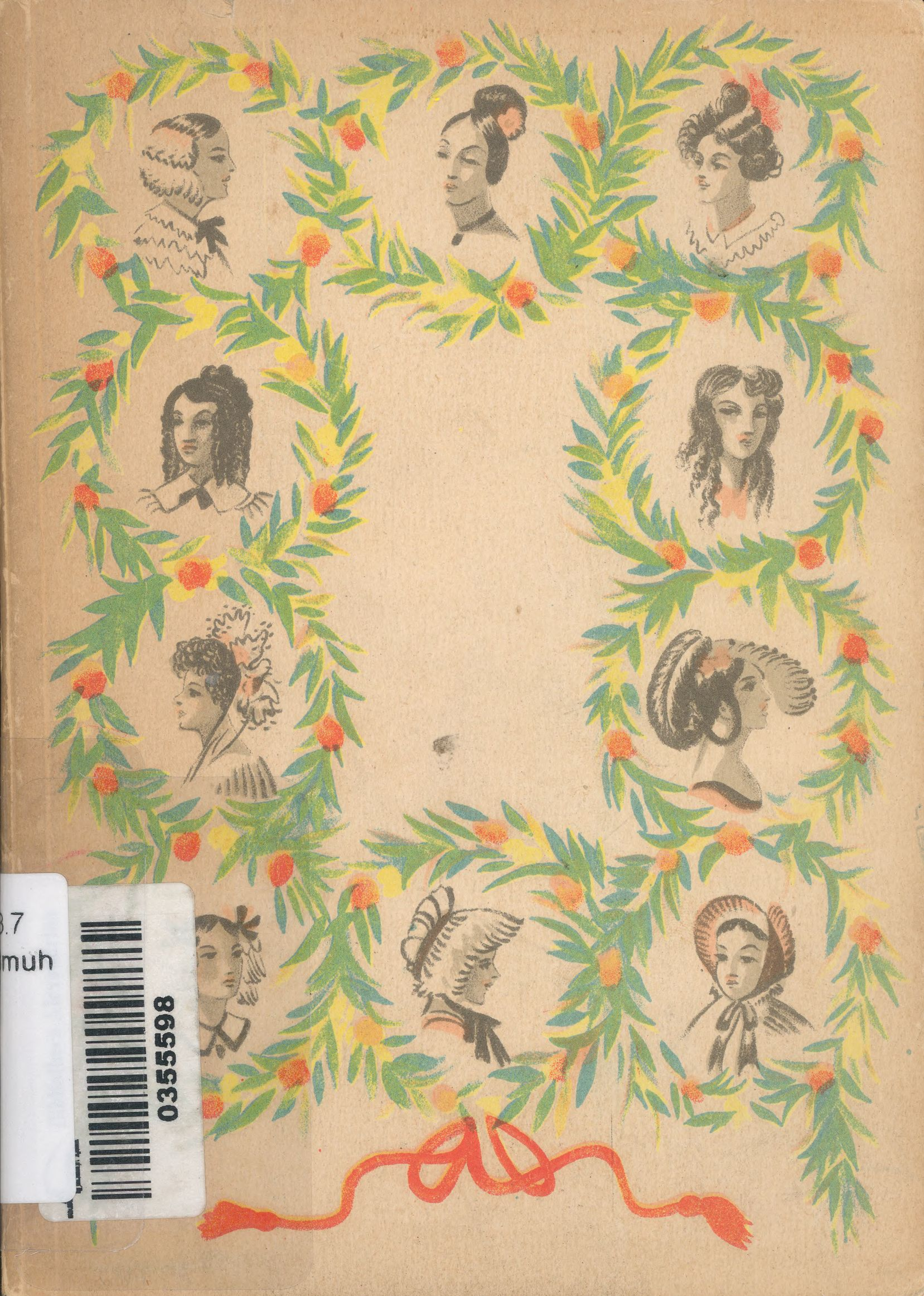
فهرس

الجزء الأول
النضال مع الحياة

الجزء الثانى
انتصار العبقرية

الجزء الثالث
النضال مع الموت

شركة فن الطباعة
صندوق بوسته ٤ شبرا مصر - تليفون ٥٨١٤٩


3.7
muh
03555598